

طبع بأمر من صاحب الجلالة الأمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

صاحب البغدادية حياته وأشائه

دراسة

الدكتور عبد الوهاب التازي سيمود

1413 هـ / 1993 م

مقدمة

I

يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم في الصفحات التالية دراسة عن أبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي اللغوي وكتابه الذي اشتهر به بين الناس، أعني «الفصوص».

وسلاحظ القارئ أن هناك تلازماً في هذه الفصول الدراسية بين الرجل وكتابه، ولا غرو فإن الرجل لم يشتهر بغير الفصوص، ولذلك كان نظري فيما اعتبرته مداخل دراسية ينصب على المصادر التي تحدثت عن الرجل وكتابه، وعلى محاولة تجلية صورة واضحة للرجل في مختلف مناحي شخصيته الغنية، وعلى كتابه: «الفصوص».

وسيتضح مما سيأتي في فصول الدراسة أن شخصية صاعد البغدادي الغنية والمتنوعة كما تظهر من خلال «الفصوص»، تؤكد الفكرة المتداولة عند مؤرخي الفكر والحضارة وهي أن القرن الرابع الهجري كان بغير منازع قرن ازدهار هذا الفكر في أجلى مظاهره.

وحسبُ الفصوص وصاحبه انتسابهما للفكر العربي في قمة ازدهاره وعطائه.

- II -

لاشك في أن الإقدام على أثر متميز كالفصوص، من أجل نفض غبار القرون عنه، وتقديمه في الصورة التي يستحق أن يقدم عليها إلى القراء، عمل طموح، ومحفوف بالمصاعب العلمية المختلفة؛ ولا يدفع إلى الاستسلام لهذا الطموح، أمام ما يقف في وجهه من مصاعب، إلا سبب يستحق هذه المواجهة. والسبب في رأي أهمية هذا الأثر العلمي من جانب، وظلم القدماء لصاحبه، ثم له من جانب آخر. وعلى الرغم من أن هناك من رأى أن هذا الكتاب، لقيمته العلمية البالغة، يجب أن تتضافر الجهود على نشره⁽¹⁾، توكلت على الله، واعتبرت أن ما سأبذله من جهد صادق في تحقيقه ودرسه، معتمدا في ذلك على جهود من سبقني وأعانني على عملي كيفما كان نوع إعانته، يمكن أن يستجيب للرجبة الدفينة التي حركها في علم صاعد في فصوصه، ثم ظلم المؤرخين له. وإن إخراج آثار أجدادنا العلماء إلى نور الحياة من جديد، كفيل بأن يحفز الهمم، ويخفف من العراقيل التي تصاحب مثل هذا العمل.

على أنني - على ما بذلت في تحقيق الفصوص من جهود - لم أشاء أن أستبد بالقول في دراسته، فاعتبرت ما قمت به في هذا الباب مجرد مداخل دراسية للرجل وأثره العلمي، منتظرا ما يأتي من الأيام لأعود إلى الفصوص كاشفا، ومحللا، ومقارنا. وهكذا قسمت هذه المداخل الدراسية إلى ثلاثة: سميت أولها قراءة في المصادر، وجعلت الثاني مشروع سيرة، وخصصت ثالثها للفصوص. وقسمت المدخل الأول قسمين: عرضت في أولهما للمصادر عرضا تاريخيا، وصنفت في ثانيهما معلومات هذه المصادر تصنيفا نقديا، باعتبار أن منها ما يؤرخ لحياة صاعد،

(1) محمود علي مكي، في مقدمة تحقيقه للمقتبس ص: 52، الهامش 2.

ومنها ما تنوعت معلوماته، أو تحدث عن غير الفصوص، أو أرخ لها.

وعرضت في مشروع السيرة الذي جعلته المدخل الثاني لرحلة حياة صاعد، من الهوية والجذور إلى المولد والنشأة، ثم إلى حياته في بغداد، ثم خروجه من بغداد، ومرحلة رحلته التي وسمتها بالمصرية، إلى وصوله إلى الأندلس، ثم خروجه إلى دانية فسرقسطة فصقلية. ونظرت بعد ذلك في الرجل إلى تلمذته لعدد من الشيوخ في مختلف المناطق التي حل بها، وإلى تميزه بتحصيل عدد من كنوز التراث العربي فيما نقله من خطوط العلماء. وألقيت نظرة على شاعرية صاعد في كل من المشرق والأندلس. وخصصت بعد ذلك لكتابته حديثاً مقتضباً. ووقفت عند جانب بارز من شخصيته هو جانب النديم، فقسمته إلى النديم العالم، والمسامر، والمغني، والماجن. ثم تحدثت عنه باعتباره عالماً مصنفاً. وخصصت بعد ذلك فقرة للحديث عن صاعد الشيخ، فتحدثت عن تلاميذه وما روه عنه. وختمت هذا المدخل الثاني بالإشارة إلى مصنفاًته، وإلى الروايات المختلفة لفصوصه.

وفي المدخل الثالث المخصص للفصوص، تحدثت عن الفصوص بين كتب الأمالي والمجالس والأدب العام، فعرضت لطائفة من كتب هذا الاتجاه العلمي العربي المشهور، محاولاً تلمس موضع كتاب الفصوص بينها. وعرضت بعد ذلك لبناء الفصوص، ومصادرها، وشخصية مؤلفها من خلالها، وأثره هو فيها وفي غيرها مما أتى بعده؛ ثم ختمت هذا المدخل بوقفة عند فصوص صاعد وأمالي القالي. وقد وقفت في بناء الفصوص على العنوان ودلالاته وعلاقته ببناء الكتاب؛ ثم انتقلت إلى ما سميته بالبناء المنطقي للفصوص، فعرضت لكونها مزيجاً من الأخبار والطرائف والأشعار والشروح والتفاسير، لا يخضع توزيعها لمنهج

ثابت. وانتقلت بعد ذلك إلى بناء الفص الواحد، متحدثاً عن معايير تحديده، وعن أركانه التي ظهرت لي متجلية في مدخله الإسنادي، ومنتنه، ثم ما يعقب ذلك من شروح. ووقفت بعد ذلك عند تفاوت الفصوص في بنائها الكمي بين الطول والقصر. وميزت في البناء العلمي لها بين فصوص الآيات، والأحاديث، والمواعظ والحكم، والأخبار، والطرائف والملح، والهزل والمجون، وأخبار الشعراء، وأخبار العلماء، وأخباره هو، وفصوص المختارات الشعرية والنثرية، ثم فصوص تفسير الأشعار، وشرح أبيات المعاني، والفصوص اللغوية، ثم فصوص العروض والقوافي، ففصوص المعارف الجاهلية. وكشفت في مصادرها عما سميته منها بالوسيلة، وهي خطوط العلماء والرواية، وما سميته منها بالأصول وهي القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمصادر الأدبية المسموعة، والمخطوطة كأشعار القبائل وغيرها، ثم الكتب المشهورة.

وحين انتقلت إلى شخصية صاعد العلمية من خلال الفصوص، كشفت فيها عن العالم المفسر، والمحدث، والشارح، وعالم الصرف والنحو، والراوية الموثق، والشاعر الناقد، والهازل الماجن، ثم العالم المتحزب. وكان لابد من تلمس أولي لأثر الفصوص فيما بعده، فتحدثت عما ظهر لي من ذلك في آثار تلاميذه وتلاميذهم. وخصصت فصوص صاعد أمام أمالي القالي بحديث منفرد، رغم أنه ينتمي إلى ما سبق أن أشرت إليه من موضع الفصوص بين كتب الأمالي والمجالس والأدب العام، فتحدثت عن صاعد أمام تلامذة القالي، وأمام مؤلفيه «البارع والأمالي».

على أن أهم ما يجب أن يشار إليه هنا، أنني استطعت أن أرفع الوهم الكبير الذي غشى عيون جميع من نظر إلى صاعد سابقاً، فاعتبره ممخرقا كذابا. والحق أن علم الرجل في الفصوص كشف

عن معدن نفيس من علوم العرب، أظهر التحقيق مصادرها المتعددة، وعلاقتها الوشيحة بمختلف معارفهم. كما كشفت الفصوص عن ذخائر من عيون تراثنا لم يسبق أن ظهرت في مؤلف آخر.

وإن ما يبرر اعتبار ما قمت به هنا مجرد مداخل دراسية، أن غنى المحتوى العلمي للفصوص يفرض دراسة شاملة لهذه المادة، ووضعها في إطارها التاريخي والمعرفي، وتلك لعمري مهام يجب أن ينهض لها دارسون متعددون، حتى يوفوا الموضوع حقوقه المختلفة.

وبعد، ففيما قدمت مقنع لقارئ الفصوص التي طال اختفائها، والله المسؤول عن نجاح القصد، والسلام.

د. عبد الوهاب التازي سعود

أبو العلاء طاعد بن الحسن الربيعي
وكتابه الفصوص
في الآداب والأشعار والأخبار
مداخل دراسية

. المدخل الأول .

صاعد والفصوص :
قراءة في المصادر

أولا : عرض وترتيب

ثانيا : تصنيف نقدي

تقديم :

تهدف هذه القراءة إلى تتبع جل المصادر التي أرخت لصاعد وفصوصه، أو اكتفت بالإشارة إليهما، وذلك من خلال عرضها وترتيبها ثم تصنيفها نقدياً.

أولاً : عرض وترتيب

I - مصادر القرن الرابع :

(1) لعل أقدم الإشارات إلى صاعد تعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وقد وردت أولها لدى معاصره أبي حيان التوحيدي في كتابه: «الإمتاع والمؤانسة». وهي إشارة تفيد - إذا لم يكن المقصود صاعدا آخر - أن صاحب «الفصوص» كان في وقت مبكر من حياته وقبل 352هـ (2) قد أصبح من المقربين إلى الوزراء. فالتوحيدي ينقل ما يفيد أن أبا العلاء صاعدا كان واحدا من جماعة من النبهاء الذين قربهم الوزير المهلبى وقدمهم ونوه بهم ونبه على فضلهم: «سمعت ابن سورين يقول: آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع، واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب، واهتز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتنم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهابا والتهب في عشق الثناء التهابا، أبو محمد المهلبى، فإنه قدم قوما، ونوه بهم، ونبه على فضلهم، وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم وإلى كفايتهم، منهم: أبو الفضل العباس بن الحسين، ومنهم ابن معروف القاضي، ومنهم أبو عبد الله اليفرنى، ومنهم أبو إسحاق الصابى، وأبو الخطاب الصابى، ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد...» (3).

(2) الإشارة الثانية تعود إلى سنة 361هـ، وقد وردت أيضا عند أبي حيان التوحيدي في كتابه: «المقابسات»، وهي إشارة تفيد أن

(2) هي السنة التي توفي فيها الوزير المهلبى الذي سيشار إليه في النص اللاحق.

(3) الإمتاع والمؤانسة: 212/2 - 213.

صاعداً كان في مرحلة من حياته يحضر دروس يحيى بن عدي الملقب بالمنطقي، تلميذ متى بن يونس والفارابي. ففي المقابسة 14، يرد قول التوحيدي: «قال يحيى بن عدي في درس البديهي عليه سنة إحدى وستين وثلاثمائة وأنا حاضر... ودخل أبو العلاء صاعداً، فانقطع الكلام وفات أن يبلغ أقصى ما عنده» (4).

(3) الإشارة الثالثة في كتاب إيضاح المشكل لشعر المتنبي، لمؤلفه أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمان الأصفهاني، وقد ألفه لبهاء الدولة البويهية، وتتبع فيه أخطاء ابن جني في شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي. والجديد الذي تقدمه هذه الإشارة يتجلى في كون صاعد الذي تعود حضور مجالس الوزير أبي محمد المهلب، قد التقى في بعض هذه المجالس بالشاعر أبي الطيب المتنبي. فعن وصول أبي الطيب إلى بغداد، ووروده على الوزير المهلب يقول أبو القاسم الأصفهاني: «فركب إلى المهلب فأذن له، فدخل وجلس إلى جنبه، وصاعد خلفه» (5)، ودونه أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، فأنشدوا هذا البيت...» (6) ويجمع بين هذه الإشارات الثلاث كلها، فضلاً عن أهميتها التاريخية، قدّمها بالقياس إلى كل ما كتب عن صاعد في المصادر القديمة، وجدّتها بالقياس إلى ما كتب عنه حديثاً إذ لم يسبق - حسب ما اطلعت عليه - لباحث أن وقف عند هذه الإشارات.

(4) المقابسات: ص: 156 - 157.

(5) ورد في طبعة بولاق وطبعة هارون: وصاعد خليفته دونه وأبو الفرج. والراجح ما أثبت. ويحتمل أيضاً وصاعد خلفه دونه وأبو الفرج. وما رجحناه يعود إلى كون الحديث عن الطريقة التي جلس بها باقي الحاضرين كل حسب مقداره. وانفرد أبو الطيب دون غيره بالجلوس إلى جنب الوزير.

(6) نقلاً عن خزانة الأدب للبغداد 385/1 (بولاق).

II

وفي القرن الخامس الهجري نجد الإشارة إلى صاعد ترد بصيغ مختلفة في سبعة مصادر أندلسية، عاصر أصحابها صاعدا، أو أدركوا من عاصره. هذه المصادر هي: التشبيهات لابن الكتاني المتوفى سنة 420هـ، والمقتبس لابن حيان المتوفى سنة 469هـ، وأرجوزة ابن سيده المتوفى سنة 458هـ، ومعجم ما استعجم ثم التنبيه فاللآلي لأبي عبيد البكري المتوفى سنة 487هـ، وجذوة المقتبس للحميدي المتوفى سنة 488هـ.

(1) يكتفي ابن الكتاني صديق صاعد في تشبيهاته بإيراد نماذج متنوعة من أشعار صاعد، في عدة مواضع من كتابه (7) ولعله سمع ما اختاره من هذه الأشعار من الشاعر نفسه، ففي منزل ابن الكتاني كان صاعد ينزل عند حلوله بسرقة ولا يضم هذا الكتاب أي خبر يتعلق بصاعد أو بكتابه الفصوص. ويكتفي المؤلف عند ذكر صاعد بأن يسميه صاعد بن الحسن أو صاعد بن الحسن اللغوي أو صاعدا البغدادي.

(2) ويقدم لنا أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، تلميذ صاعد، صورة مفصلة عن طبيعة المصنفات التي كان التلاميذ في الأندلس يقرؤونها على شيخهم المشرقي صاعد البغدادي، وذلك من خلال تعدادها في أرجوزته أسماء شيوخه وما رواه عنهم من مصنفات.

وفي ذكر للكتب التي رواها عن شيخه المشرقي، يبدو ابن سيده معترفا بفضل هذا الشيخ عليه (رجز):

1 — ثُمَّ قَرَأْتُ عِلْمَ سَيِّبُوِيهِ
لُبَّ الْفُؤَادِ فَهَمَّا عَلَيَّهِ

(7) انظر الصفحات 100، 135، 146، 173، 195، 218، 289.

- 2 - على أبي عثمان شيخي نافع
وكان فيه جد حبر بارع
- 3 - ثُمَّتَ فَأَوْهَتْ أَبَا الْعَلَاءِ
في كتب الصفات والأسماء
- 4 - رَوَّانِي الْغَرِيبَ وَالْإِصْلَاحَا
حتى أنار فجرها ولاحا
- 5 - ثُمَّتَ رَقْنَانِي إِلَى الْأَلْفَازِ
راويةً فعُودَتْ فِي الْحَقَّازِ
- 6 - وَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَ الْمَجَازِ
عليه من قمرمودة الشيرازي(8)

(3) ويورد ابن حيان في مقتبسه ما يفيد تلمذته المباشرة لصاعد وسماعه منه كتاب الفصوص. ففي سياق حديثه عن الأعرابي العذري يقول: «قال حيان: أقول أنشدنا أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي في كتابه المعروف بالفصوص في معنى قول هذا الأعرابي...»(9) وينقل وهو يتحدث عن مفاضلة الأعرابي بين التمر والبلوط بيتين من كتاب الفصوص: «لأعرابية بدوية نقلها زوجها من البادية إلى قرى النخل كارهة فأحمدت النجعة لما طعمت التمر ثم حنت إلى وطنها، فلما عاودته أعوزها التمر فتشّهته وقالت (طويل):

- 1 - أَلَا مَنْ لِقَلْبٍ لَا يَزَالُ مَكْلُفَا
تَزَايِلُ مَا بَيْنَ الْقَرِيبَةِ وَالْفَحْلِ
- 2 - يَحِنُّ إِلَى الْأَرْطَاةِ حَتَّى إِذَا أَتَى
بلادا بها الأرطاة حنّ إلى النخل(10)
- والقصة واردة في النسخة التي أخرجناها من الفصوص.

(8) ابن سيده المرسي، لداريو كابانيلاس رودريجيث، ترجمة حسن الوراكي، ص: 51.

(9) المقتبس 14/3.

(10) المقتبس 14/3، وانظر الفصوص ص: 109 ب. (اعتمدت في الإشارة إلى كتاب الفصوص على أرقام صفحات مخطوطة القرويين).

4) ويستفيد البكري تلميذُ ابن حيان تلميذ صاعد من كتاب الفصوص استفادة واضحة في إغناء المادة العلمية لكتابه: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» وينقل عنه في عدة مواضع، ففي ذكره لبُرْقة حاج يقول البكري: «هكذا ذكرها صاعد بن الحسن بالحاء والجيم، وهكذا روينا منه وإنما هو خاخ بخاءين معجمتين على ما يأتي في حرف الخاء» (11) وتتكرر الاستفادة عند الحديث عن دارات العرب (12). ولا يعتبر البكري مخالفته لما رواه صاعد مبررا لإسقاط رواية شيخه: «وقد تقدم في ذكر البُرْقِ برقة الصَّفَّاح بفتح الصاد وتشديد الفاء، هكذا ذكره صاعد وحدثنا به عنه، وأنا أراه برقة الصِّفَّاح» (13). ويعتمد البكري في كتابه اللآلي على رواية صاعد في إظهار وهم القالي في بعض ما رواه، «... وأخبرني من أثق به أن صاعد بن الحسن كان يرد هذه الرواية في البيت ويقول إن الصحيح (طويل):

تَجَلَّلْتُ عَارًا لَا يَزَالُ يَسُبُّهُ
سِبَابَ الرِّجَالِ نَثْرُهُ وَالْقَصَائِدُ (14)

ويرد نفس الكلام في كتابه التنبيه (15). والملاحظ أن كتب البكري الثلاثة التي تدل على اهتمامه بمرويات صاعد، لا تقف عند الأخبار الخاصة بحياة صاعد لانصراف التأليف فيها إلى مباحث لغوية لا علاقة لها بالأخبار. 5) ويظهر مع جذوة المقتبس لأبي عبد الله محمد بن فتوح الحميدي، نفس جديد في الحديث عن صاعد والتعريف به.

(11) معجم ما استعجم - ص: 242.

(12) نفسه ص: 535 537 538.

(13) معجم ما استعجم ص: 835.

(14) سمط اللآلي 1/ 429.

(15) التنبيه على أوهام القالي في أماليه: ص: 56.

فالحميدي يخصص في جذوته ترجمة مطولة لصاعد يمكن تصنيف معلوماتها إلى معلومات تتعلق بحياة صاعد في الأندلس ومعلومات تتعلق بمؤلفاته، وأخرى تتعلق بما حكى عنه من نوادر للثقفة، ومعلومات تتعلق بعلمه ومعارفه.

فعن حياة صاعد في الأندلس، يشير الحميدي إلى تاريخ قدومه من المشرق إلى الأندلس ووفوده على المنصور بن أبي عامر، مرجحا عن طريق الظن أن أصله من الموصل، وأنه انتقل إلى بغداد قبل مجيئه إلى الأندلس: «صاعد بن الحسن الربيعي اللغوي أبو العلاء ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر في حدود الثمانين وثلاثمائة وأظن أصله من ديار الموصل ودخل بغداد» (16). ويشير الحميدي إلى انقطاع صاعد بعد موت المنصور عن حضور مجالس الأنس التي كان يحضرها (17).

وينهي الترجمة بذكر خبر خروجه إلى صقلية منبها إلى أنه مات بها عن سن عالية قريبا من سنة 410 (18).

أما المعلومات المتعلقة بمؤلفات صاعد فتشير إلى أنه ألف للمنصور بن أبي عامر كتاب الفصوص وكتابين آخرين كان المنصور مشغولاً بهما: «ومما ألف له: كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي وكتبا آخر... سماه كتاب الهجفجف بن غدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف، وكتبا آخر في معناه سماه كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء. قال لي أبو محمد علي بن أحمد: وهو كتاب مليح

(16) الجذوة ص: 223.

(17) نفسه ص: 224.

(18) جذوة المقتبس ص: 620.

جدا، وكان المنصور أبو عامر كثير الشغف بكتاب الجواس، حتى رتب له من يخرج به أمامه في كل ليلة» (19).

ومن أشعار صاعد يورد الحميدي الأبيات التي أرسلها إلى المنصور مع الأيل الذي أهده إليه، والأبيات المادحة التي أرسلها إلى المظفر معذرا بمرضه عن حضور مجالسه (20).

ويذكر الحميدي حكايتين عن تسرع صاعد في الإجابة عن كل ما كان يسأل عنه، وهما الحكايتان اللتان ستتكرران في المصادر اللاحقة: «وكان أبو العلاء كثيرا ما تستغرب له الألفاظ ويسأل عنها فيجيب فيها بأسرع جواب... ومما يحكى عنه أنه دخل على المنصور أبي عامر وبيده كتاب ورد عليه من عامل له في بعض البلاد اسمه مبرمان بن يزيد يذكر فيه القلب والتزبيل... فقال له: أبا العلاء. قال: لبيك يامولانا. قال: هل رأيت فيما وقع إليك كتاب القوالب والزوالب لمبرمان بن يزيد؟ فقال: إي والله يامولانا، رأيته ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخط كأكرع النمل... فقال له: أما تستحيي أبا العلاء من هذا الكذب، هذا كتاب عاملنا ببلد كذا وكذا... وإنما صنعت هذا تجربة لك. فجعل يحلف أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافق. وقال له المنصور مرة أخرى وقد قُدم طبق فيه تمر: ما التَّمَرُ كُلُّ في كلام العرب؟ فقال: يقال تَمَرُكَل الرجل يَتَمَرُكَلُ تَمَرُكُلًا: إذا التف في كسائه. وله من هذا كثير» (21). ويذكر قصة الأيل الذي أهده صاعد إلى ابن أبي عامر وهي القصة التي ستتكرر الإشارة إليها في المصادر اللاحقة باعتبارها إحدى المستغربات. وينقل الحميدي مسندا إلى العاصمي النحوي خبرا سيصبح نواة للأخبار المضطربة المتعلقة

(19) جذوة المقتبس ص: 223.

(20) انظر الجذوة ص: 224/226.

(21) الجذوة ص: 225/224.

بمعارف صاعد وعلومه. وهو خبر يرتبط بالمرحلة التي وصل فيها صاعد إلى بلاط المنصور ليجد نفسه أمام تلامذة القالي الذين كانوا قد أصبحوا علماء مجالس المنصور: «حدثني أبو محمد علي بن أحمد قال: حدثني الوزير أبو عبدة... عن العاصمي النحوي قال: لما قدم صاعد بن الحسن اللغوي على المنصور... جمعنا معه فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها... قال: ثم سألنا صاعد فقال ما معنى قول امرئ القيس... فقلنا هذا واضح... فقال صاعد: سبحان الله أنسيتم قوله قبل هذا في وصفه... قال: فبُهِتْنَا والله وكأننا لم نقرأ هذا البيت قط، واضطررنا إلى سؤاله عنه...» (22).

وينقل الحميدي أيضا خبرا آخر يؤكد أن صاعدا كان متفوقا على معاصريه من الأندلسيين في فهم الشعر وتذوقه (23)، وهو الخبر الذي سأل فيه صاعد علماء المنصور عن معنى الحماسة في بيت للشماخ. وقد أورد صاعد نفسه هذا الخبر في كتابه الفصوص، عند حديثه عما فات القالي من أحرف في كتابه البارع. ومما يجدر التنبيه إليه في هذا العرض الخاص بترجمة صاعد في الجذوة، أن الحميدي يروي جل ما نقله سماعا عن شيخه ابن حزم، الذي صادف وروده على المظفر العامري لأول مرة إنشاد صاعد لبائيته أمام الحاجب، وهي البائية التي كتبها صاعد لتلميذه ابن حزم هذا بخطه (24).

ويبدو أن الحميدي لم يكن يثق بالحكايات المجرحة التي حكيت للقدح في علم صاعد، ويتضح ذلك في قوله بعد إشارته إلى تسرعه في الجواب: «ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزاح لما حُمل

(22) الجذوة ص: 225.

(23) نفسه ص: 225/226.

(24) نفسه ص: 224.

إلا على التصديق، وقد ظهر صدقه في بعض ما قال» (25)، وقوله بعد ذكر خبر القوالب والزوالب، وخبر التمركل: «وله من هذا كثير، ولكنه كان عالماً» (26).

وفي الترجمة 979 يشير الحميدي إلى الزبيري الشاعر صاحب أبي العلاء صاعد، ويورد له بيتين قالهما متندرا بابن شهيد وصاعد، عندما عجزا عن وصف نرجسة رُكِبَت في وردة (27). كما يذكر خبره مع بشار الأعمى في معنى الجرنفل. وفي حديثه عن وفود ابن دراج على المنصور يشير إلى قصيدة له عارض بها صاعداً البغدادي (28).

III

وفي القرن السادس الهجري يرد ذكر صاعد في عدة مصادر أندلسية مغربية مع تفاوت في مقدار المعلومات التي تتضمنها هذه المصادر.

(1) ففي فهرس ابن عطية ترد الإشارة إلى كتاب الفصوص وإلى إجازة ابن حيان لأبي محمد بن عبد الرحمان بن عتاب فيه (29).

(2) وفي الفصل الذي خصصه ابن بسام لذكر الأديب اللغوي صاعد بن الحسن البغدادي وإثبات جملة من نظمه ونثره، يمد المؤلف الباحث بأطول ترجمة (30) قديمة لصاعد، فللتعريف بشاعريته يورد ابن بسام أبياتاً كثيرة مختلفة موضوعاتها

(25) نفسه ص: 224.

(26) الجذوة ص: 225.

(27) نفسه ص: 384.

(28) نفسه ص: 103/104.

(29) فهرس ابن عطية ص: 81.

(30) الذخيرة - القسم الرابع 1/18، 57.

ومناسباتها، اقتطعت من منظومات متعددة نظمها صاعد بالأندلس. ويذكر قصة ابن العريف والمكيدة التي كادها متهما صاعدا بسرقة بيتين نظمهما في وصف وردة لم تفتتح، وما تلا ذلك من امتحان المنصور لصاعد أمام الحاضرين، وتفوق صاعد في وصف المشهد الذي أعده المنصور لاختبار شاعريته (31). ويشير ابن بسام إلى تخرج صاعد من معارضة قصيدة أبي نواس الرائية في الخصيب، عندما أمره المنصور بمعارضتها، ويمدح فيه هذا الاعتراف بالعجز عن مجارة أبي نواس (32). ولم يفت ابن بسام أن يقف عندما اعتبر سرقة في شعر صاعد، كما لم يفته - وكتابه قد ألف لإبراز محاسن أهل الجزيرة - أن يقارن بين بديهة صاعد وبديهة الشاعر الأندلسي أبي مروان الجيزري ليبرز فضل الأندلسي على الوافد المشرقي (33).

أما ترسله ونثره فقد رسم لنا ابن بسام صورة له من خلال نقله لفصل اقتطعها من عدة رسائل كتبها صاعد إلى بعض أصدقائه من الحكام (34).

ومن أخبار صاعد في الأندلس يكرر ابن بسام الإشارة إلى وفوده من المشرق إلى الأندلس، ويضيف إلى ما ذكره عن أصله قوله «الطبري أصلاً» (35) دون أن يذكر الموصل. ويعيد نقل بعض ما جرى له مع المنصور، وقصة الأيل، ثم يضيف أخباراً جديدة تتعلق باتصاله بالوزير ابن مسلمة، ومراسلته لمجاهد العامري والقائد ابن وداعة، والخليفة الأموي هشام المؤيد، ويذكر سوء

(31) الذخيرة - القسم الرابع 17/1، 19.

(32) الذخيرة - القسم الرابع 22/1، 23.

(33) الذخيرة - القسم الرابع 35/1، 36.

(34) الذخيرة - القسم الرابع 10/1، 11، 53.

(35) الذخيرة - القسم الرابع 33/1.

أحواله في أيام الفتنة، ويعيد ذكر ما حكي عن كذبه فينقل حكايتي القوالب والزوالب، والتمركل الواردتين في الجذوة، ثم يضيف إليهما حكاية (36) الخنشار، وحكاية (37) الكاغد الأبيض الذي سفر ووضع له عنوان لاختبار كذبه.

ولا يذكر ابن بسام من كتب صاعد إلا كتاب الفصوص، ضمن خبر يفيد أنه ألفه للمنصور، على غرار نوادر أبي علي القالي، وأنه أملاه بجامع مدينة الزاهرة، وأن الكتاب غرق في النهر بأمر من المنصور بعد أن جعله أدباء الوقت يشك في صحة ما يأتي به صاعد ويجيب به: «... فناظره ابن العريف فظهر عليه صاعد، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعرا شاهدا، أو أتى بحكاية تجانسها، فازداد المنصور عجا. ثم أراه كتاب النوادر لأبي علي، فقال: إذا أراد المنصور أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته كتابا أرفع منه قدرا، وأجل خطرا لا أدخل فيه خبرا مما أدخله أبو علي، فأذن له المنصور في ذلك، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم بالفصوص. فلما أكمله وتتبعه أدباء الوقت، لم تمر فيه كلمة زعموا صحتها عندهم، ولا خبر ثبت لديهم. فقالوا للمنصور: رجل مقتدر على تأليف الكذب... حتى إنهم كلفوا المنصور أن يأمر بتسفير كاغد أبيض وتغيير بهجته ليدل على القدم، ففعل وترجم على ظهر ذلك السفر بكتاب: «النكت»، تأليف أبي الغوث الصنعاني. فترامى إليه صاعد حين رآه، وجعل يقلبه (38)، وقال: إني والله قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان، وهذا خطه. فأخذه المنصور من يده خوفا أن يفتحه، وقال له: إن كنت رأيته كما تزعم فعلام يحتوي؟ قال:

(36) الذخيرة - القسم الرابع 33/1.

(37) الذخيرة - القسم الرابع 15/1.

(38) لعل الصواب يقبله.

ورأسك لقد بعد عهدي به ولا أنص منه شيئاً، ولكنه يحتوي على لغة منتورة لا يشوبها شعر ولا خبر. فقال له المنصور: أبعد الله مثلك فما رأيت الذي هو أكذب منك. وأمر بإخراجه، وأن يقذف بكتاب الفصوص في النهر، وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر (سريع):

قد غاص في البحر كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقیل يغوص

فجاوبه صاعد بقوله (سريع):

عاد إلى معدنه إنما

توجد في قعر البحار الفصوص (39)

أما الشخصية العلمية لصاعد، فتبدو من خلال الذخيرة غير واضحة، ويعود ذلك إلى أن رأي ابن بسام في صاحب الفصوص كان خاضعاً لتأثير الأخبار التي تحدثت عن تقصيره في النحو والصرف أمام العاصمي والزيدي، أو عن كذبه وتسرعه إلى الإجابة عن كل ما يسأل عنه تظاهراً بالعلم والمعرفة، ولتأثير الأحكام التي اعترفت له بأنه كان راسخاً في العلم رسوخاً تشهد به مصنفاته: «وكان طلع على آفاق الجزيرة في أيام المنصور محمد بن أبي عامر، نجماً من المشرق غرب، ولساناً عن العرب أعرب، أبده من رأى وسمع، وأذكى من طار ووقع، فأراد المنصور أن يعفي به أثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية قبله، وهزه لذلك فألفى سيفه كهاماً، وسحابه جهاماً، من رجل يتكلم بملء فيه، ولا يوثق على ما يذره وما يأتيه... وقد أتيت أنا بلمع من أعاجيبه، وأوردت غرائب من أكاذيبه وتخللت أثناء ذلك جملة من نظمه ونثره، مما يشهد على ثبوت قدمه وشهرة تقدمه» (40). لكن

39) الذخيرة - القسم الرابع 1/15، 16.

40) الذخيرة - القسم الرابع 1/8، 9.

ابن بسام يصرح - رغم ما نقله عنه من أخبار - بما يوحي أنه كان في قرارة نفسه مطمئناً إلى علمه وإلى ما ورد في الفصوص اطمئنان من قرأ ووعى: «قال ابن بسام: وما أحسب أن أحدا يجترئ على إخراج تصنيف وإبداء تأليف، يضيق عنه التعديل، ويدفع في صدره النقد والتحصيل لاسيما وصاعد علم أن قرطبة حسب ما ذكرنا، ميدان جياذ وبلد جدال وجلاد، ولكنه اشترط غير المشهور، فلم يظفروا منه بكثير، وأعانهم هو على نفسه بما كان ينفق به من تنحله وكذبه. ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير، ولا بصر (41) بالنقد مشهور، وإلا فليس يخلو كتاب الفصوص المذكور من غريبة مسموعة ولا من فائدة رائقة بديعة. ولكنه خبر وجدناه فنقلناه» (42).

وينقل ابن بسام خبرا يفسر ما وصف به صاعد نفسه (43) عند مناظرته العاصمي والزبيدي وابن العريف أمام المنصور، من أنه كان عالما بالموسيقى مع دلالة هذا الخبر المنقول الضمنية على أنه لم يكن يجاهر بمعرفته بالأنغام والأوزان: «ودخل صاعد يوما على المنصور فلما وصل إليه، وجد عودا بين يديه، فقال له المنصور: قد تواتر الخبر، وتحدث عنك البشر، أنك فرد في علم الموسيقى، وقد أردت غير مرة الانبساط معك سرا في ذلك، فشق الأمر على صاعد هنالك، ولم يجد من محيد عن أخذ العود، فتناوله وجس أوتاره وسوى تسوية أطربت ابن أبي عامر، ثم اندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر...» (44).

(41) لعل الصواب «نحرير، ولا بصير بالنقد مشهور». فيكون المقصود أن المنصور كان يفتقر إلى العالم الناقد القادر على تقويم الكتاب تقويما حقيقيا. ونفهم من كلام ابن بسام أنه لمس من نفسه هذه الصفة.

(42) الذخيرة - القسم الرابع 16/1.

(43) «قال صاعد: وبضاعتي أنا حفظ الأشعار... وعلم الموسيقى».

الذخيرة - القسم الرابع 15/1.

(44) الذخيرة - القسم الرابع 30/1، 31.

وتبدو هذه المعرفة بالموسيقى - رغم سكوت كل المصادر عنها(45) - منسجمة مع الصورة التي رسمها صاحب الذخيرة، للشخصية الإنسانية لصاعد، وهي الشخصية التي جمعت بين طيب المعاشرة والمزاح والفكاهة، والإمتاع عند المجالسة واللطافة في الاستجداء، والوفاء لأولي الفضل عليه، والحنين إلى الوطن في بلد الغربة.

ويؤكد ابن بسام في آخر ترجمته المطولة لصاعد، ما ورد عند الحميدي قبله، من أن وفاة هذا الوافد المشرقي كانت بصقلية سنة 410هـ. ويضيف ابن بسام إلى هذه الترجمة المسهبة لصاعد، أخبارا يوردها عرضا في كتابه في سياق حديثه عن مترجم لهم من الأعلام.

ففي ترجمته للشاعر ابن دراج القسطلي، يورد له مقتطعا من قصيدة قالها في مدح منذر بن يحيى، مصرحا بأن مناسبة هذه القصيدة كانت تهنئة الأمير بقدوم أبي العلاء صاعد اللغوي عليه(46).

وفي سياق ذكر خبر الوزير عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع، ومقتله على يدي المظفر عبد الملك بن أبي عامر، يشير إلى تعليق رأسه بباب الزاهرة، ثم ينقل قول ابن حيان: «وكنت في جملة من نظر إليه واستبنت الضربة بخده الأيمن. وكان أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي منقطعا إلى عيسى، فكان أول من أنشد عبد الملك، على سبيله من سرعة الانقلاب، شعرا يقول فيه (بسيط):

1 - فتلک هامتہ فی الجو ناطقہ
تُحدِّثُ الناس من آیاتہا عِبْرًا

(45) نقل المقرئ كلام ابن بسام.

(46) الذخيرة - القسم الأول 71/1، 72. والقصيدة في ديوان ابن دراج ص: 173.

2 - مكتوبة الوجه بالهنديّ يقرؤه

من ليس يقرأ مكتوباً ولا سطرًا (47)

ويورد عند حديثه عن أبي حفص بن برد، شعرا له «خاطب به
أبا العلاء صاعد بن الحسن اللغوي» (48)، ثم يثبت الأبيات التي
أجابه بها صاعد (49). ولم ترد هذه الأبيات التي تضمنت الإشارة
إلى سن صاعد عند نظمها، في غير الذخيرة من المصادر التي
استطعت الوصول إليها.

وفي سياق الحديث عن أعمال عباد، يتطرق إلى عبد الجبار
الملقب بالمهدي، مفرق الجماعة، والحديقة التي غرسها برؤوس
أعدائه والخارجين عليه، ويشير إلى اشتغال النظارة بها وذكر
الشعراء لها، ممثلاً لذلك بقول صاعد «من قصيدة أولها (وافر):

جلاء العين مبهجة النفوس

حدائق أطلعت ثمر الرؤوس...» (50)

ويكشف عند إيراد أبيات لابن القوطية في وصف الترنجان، أن
صاحبها أخذها من بيت لصاعد في نفس الوصف: «وأراه سمع
قول صاعد اللغوي فيه حيث يقول (بسيط):

مِنْ طَيْبِهِ سَرَقَ الْأَتْرَجُ نَكْهَتَهُ

يَاقُومُ حَتَّى مِنَ الْأَشْجَارِ سَرَّاقُ

ولكنه عكسه إذ اقتبسه وترك الرائحة، ومال إلى الاسم» (51).
ويورد في القسم الثالث من الذخيرة فصولاً من خطبة لابن
سيده في نقد الوزير الكاتب أبي الأصبع ابن أرقم، ورد ابن أرقم

(47) نفسه - القسم الأول 1/128.

(48) نفسه - القسم الأول 1/129.

(49) نفسه - القسم الأول 1/130.

(50) الذخيرة - القسم الثاني 1/27.

(51) الذخيرة - القسم الثاني 1/216.

عليه، متهما إياه بالتقصير لإثباته رواية بيت اعتبرها ابن أرقم محرفة خارجة عن طرائق الشعراء ومذهب الفصحاء. والبيت الذي يتحدث عنه ورد ضمن أول ما أثبته صاعد في كتابه الفصوص من شعر، وقد أنشده ابن سيده كما رواه عن شيخه صاعد. ومما أورده ابن بسام في هذا السياق... وقال (52) في فصل منها: والحساد في كل ذلك تكسر علي أوعاظها، ولا تفتقر من النظر إلي ألاحظها، وأنا أنشدهم ما أنشدته عن أبي العلاء صاعد بن الحسن الربيعي عن أبي رجاء الضبعي (طويل) (53):

- 1 - حَسودٌ كُئِيبُ الْقَلْبِ يُخْفِي أُنَيْنَهُ
ويُضْحِي كُئِيبَ الْبَالِ عِنْدِي حَزِينَهُ
- 2 - يَلُومُ عَلَيَّ أَنْ ظَلَمْتُ لِلْعِلْمِ طَالِباً
أُجَمِّعُ مِنْ عِنْدِ الرِّوَاةِ فَنَوْنَهُ
- 3 - وَأَكْتُبُ أَبْكَارَ الْكَلَامِ وَعَوْنَهُ
وَأَحْفَظُ مِمَّا أُسْتَفِيدُ عِيُونَهُ
- 4 - فَيَا حَاسِدِي دَعْنِي أَغَالِ بَقِيمَتِي
فَقِيمَةُ كُلِّ النَّاسِ مَا يَحْسَنُونَهُ

الرد (54): في هذا البرسَام غريبتان، إحداهما مقالة الحاسد الذي يكسر عليه أوعاظه، قوله: دعني أغال بقيمتي، هذا جواب الأولياء لا جواب الحسدة والأعداء. والأخرى تحريفه الشعر عن وجهه، وصرفه عن نكهته، ولو تبين وقرأ طرائق الشعراء، ومذهب الفصحاء والخطباء لما استجازه، ولا جاد نقده وإحرازه، فهذا الشعر

(52) الضمير يعود على ابن سيده. الارعاض ج: رُعُظ. مدخل النصل في السهم.

(53) الشعر في الفصوص ص: 1 ب لابن طباطبا العلوي.

(54) يقصد ابن بسام رد الوزير ابن أرقم.

لأحمد بن المعذل مشهور مأثور (طويل):

غَزَالَ سَقِيمَ اللَّحْظِ يُخْفِي أُنَيْنَهُ

وَيُضْجِي كَثِيبَ الْقَلْبِ عِنْدِي حَزِينَهُ

ونسى نفسه أبو الحسن في تأمل البيت الأول وكيف يجتمع فيه كئيب القلب، كئيب البال، وكيف يكون حزين البال، والشاعر منزله عن هذا السقط، مبرأ من مثل هذا الغلط...» (55) وبهذه الأخبار التي وردت في غير الفصل الخاص بالحديث عن صاعد، تكون المعلومات التي تمدنا بها الذخيرة، أوفر وأغزر ما كتب عن صاحب الفصوص في المصادر القديمة والمراجع الحديثة، فضلا عن قيمتها العلمية كما سيتبين.

(3) وفي الغنية للقاضي عياض المتوفى سنة 544هـ، ترد الإشارة إلى أن أبا محمد عبد الرحمان بن عتاب (56) أجاز عياضا في فصوص صاعد (57). وينقل القاضي عياض أيضا، في ترتيب المدارك (58)، خبر رد ابن العطار على المنصور بن أبي عامر، لفظة «لفع»، وإدخال المنصور لصاعد الذي حكم بوجود الفاء والقاف في اللفظة، مع اعتبار ذات القاف أشهر. ولم يتقدم هذا الخبر لا عند الحميدي ولا عند ابن بسام.

(4) وفي فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي المتوفى سنة 575هـ، يذكر المصنف كتاب الفصوص في اللغات والأخبار، مشيرا إلى أن صاعدا ألفه للمنصور بن أبي عامر، ثم يقول متحدثا عن روايته لهذا الكتاب: «حدثني به الشيخ أبو محمد

(55) الذخيرة القسم الثالث 390/1.

(56) قد تقدمت الإشارة، عند التعرض لفهرسة ابن عطية، إلى أن ابن حيان أجاز ابن عتاب في كتاب الفصوص.

(57) الغنية ص: 224.

(58) ترتيب المدارك 151/7.

بن عتاب رحمه الله، قال: أخبرني به الشيخ المؤرخ صاحب الشرطة أبو مروان، حيان بن خلف بن حيان، وكتب لي بذلك بخطه، عن أبي العلاء صاعد مؤلفه، رحمه الله» (59).

وينقل ابن خير إشارة الوزير أبي بكر المصحفي إلى أنه كان يقرأ كتاب «المداخل» للمطرز، على ابن خشخاش، وصاعد اللغوي حاضر. ثم يذكر ما يفيد أن صاعدا قرأ «المداخل» بمصر على الوزير ابن حنزابة، عن أبي عمر محمد الزاهد مؤلفه، قراءة عليه ببغداد، «وكان ابن حنزابة لا يفارق صاعدا يسامره» (60).

وعند ذكر كتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب بن السكيت، ينقل ابن خير قول أبي بكر المصحفي: «وقراه أيضا أبي رحمه الله على أبي العلاء صاعد بن الحسن الربيعي النحوي البغدادي، وكان يرويه عن شيخه أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي بأسانيدهما المشهورة، وعن غيرهما» (61). ويمدنا ابن خير عند ذكره لشعر ابن حجاج، بخبر جديد يفيد أن صاعدا هو الذي أدخل شعر هذا الشاعر الماجن إلى الأندلس: «شعر ابن حجاج البغدادي في ستة أجزاء، حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان، رحمه الله، عن الوزير أبي بكر محمد بن هشام المصحفي، قال: سمعته على أبي العلاء صاعد اللغوي عن قائله ابن حجاج» (62). ثم يشير بعد ذلك إلى رواية المصحفي لشعر ابن سكرة عن صاعد، وينقل عنه خبرا يفيد أن ابن سكرة وابن حجاج كانا صاحبين لصاعد اللغوي ببغداد، ويشير إلى من كان يسمع معه شعر ابن حجاج على صاعد، وإلى تكريم التلاميذ لصاعد من

(59) فهرسة ابن خير صفحة 326.

(60) فهرسة ابن خير ص: 358.

(61) فهرسة ابن خير ص: 331.

(62) فهرسة ابن خير ص: 406.

أجل شيخ لهم كان يسمع معهم عليه شعر ابن الحجاج، ثم إلى نزول صاعد على ابني غصن خالي الوزير ابن أرزاق، ونزوله على ابن الكتاني بسرقسطة» (63).

ويذكر عند إشارته إلى تواليف الأديب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى، أنه روى جميع ما رواه ابن سيده «عن أبيه وأبي عمر الطلمنكي وصاعد اللغوي وغيره» (64).

5) ويستهل ابن بشكوال المتوفى سنة 578هـ، ترجمته لصاعد، في كتابه الصلة، بذكر شيوخ صاحب الفصوص، فيسمي منهم السيرا في والفارسي اللذين ذكرهما ابن خير (65) من قبل، ثم القطيعي والخطابي. وينقل عن الحميدي ملخصا (66) ما ورد في الجذوة عن وفود صاعد على المنصور في حدود سنة 380هـ، وعن أصله وعلمه باللغة والآداب والأخبار، وما حكى عن بديهته وتفكهه وطيب عشرته، وحذقه في استخراج الأموال، وما قاله الحميدي عن خروج صاعد أيام الفتنة إلى صقلية وموته بها سنة 410هـ، لكنه يضيف إلى هذا التاريخ تاريخا آخر ينقله عن ابن حزم: «قال أبو محمد بن حزم: توفي صاعد رحمه الله بصقلية في سنة سبع عشرة وأربع مائة» (67).

ومن الأخبار التي أوردها ابن حيان، ينقل ابن بشكوال قوله عن تأليف الفصوص: «وجمع أبو العلاء للمنصور، محمد بن أبي عامر كتابا سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار، وكان ابتداءه

63) فهرسة ابن خير ص: 406.

64) فهرسة ابن خير ص: 450.

65) فهرسة ابن خير ص: 331. وورد في الذخيرة 4 - 14/1:

«فرغ المنصور مجلسه وأنسه، وسأله عن أبي سعيد السيرافي فزعم أنه لقيه وقرأ عليه...».

66) الصلة ص: 237.

67) الصلة ص: 238.

له في ربيع الأول سنة خمس وثمانين [وثلاثمائة]، وأكمله في شهر رمضان من العام، وأثابه عليه بخمسة آلاف دينار، دراهم في دفعة، وأمره أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة، في عقب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة. قال ابن حيان: وقرأته عليه منفردا في داره سنة تسع وتسعين وثلاثمائة» (68).

ولا نجد بين هذه النقول مما نسبته ابن بشكوال إلى نفسه إلا قوله، «قلتُ: وكان صاعد هذا متهما بالكذب وقلة الصدق فيما يورده، عفا الله عنه» (69). إلا أن هذه العبارة على قصرها، أصبحت بعدُ حكما يتردد في بعض تراجم صاعد التي كتبها علماء متخصصون في الحديث النبوي ورجاله.

وفي ترجمة ابن بشكوال للسعيد بن عثمان المعروف بابن القزاز، الملقب بلحية الذبل (70)، الذي كان من أجل (71) أصحاب أبي علي القالي، أن لابن القزاز هذا كتابا في الرد على صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي، في مناكير كتابه في النوادر والغريب المسمى بالفصوص، أكثر التحامل عليه فيه (72).

وفي عدة مواضع من الصلة، ترد الإشارة عرضا إلى صاعد عند الترجمة لمن روى عنه، أو روى عن تلامذته كتابه الفصوص، أو أجازوا فيه (73).

(68) الصلة ص: 237، 238.

(69) الصلة ص: 238.

(70) يرى عبد العلي الودغيري، أن لفظة الذبل تصحيف للفظ «الثيل»، أبو علي القالي: ص: 353.

(71) الصلة ص: 210.

(72) الصلة ص: 209، 210.

(73) انظر الصلة ص: 348، 349، 369، 370، 417، 533، 535، 536، 556، 557، 648.

(6) وفي بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ينقل أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي المتوفى سنة 599هـ، بالحرف ما أورده الحميدي في الجذوة من أخبار صاعد ونوادره وأشعاره ومؤلفاته، دون أن يضيف جديدا. وكل ما يميز ترجمة صاعد في بغية الملتمس، عن ترجمة الحميدي له، أن الضبي في بعض ما نقله يروي عن غير واحد عن شريح بن محمد بن حزم(74)، بينما يروي الحميدي سماعا عن ابن حزم، وأنه جعل وفاته سنة 417هـ(75) بينما جعلها الحميدي سنة 410هـ، كما تبين من قبل.

IV

وفي القرن السابع الهجري، نجد أخبار صاعد لدى كل من الأزدي والشريشي والمراكشي والقفطي والحموي وعز الدين بن الأثير، وابن الأبار وابن خلكان وابن عذاري.

(1) صنف علي بن ظافر الأزدي المتوفى سنة 613هـ، كتابه بدائع البدائع لتجميع ما أبدعته بدائهُ بعض الشعراء، في مناسبات لم تكن متوقعة. ومن هذه الأشعار البديعة التي أوردها الأزدي، أبيات لصاعد، قالها بديهة في مناسبات مختلفة، أو أبيات لشعراء غيره قالوا على البديهة محسنين وصفَ ما قصّر صاعد عن وصفه. ومن ذلك الأبيات التي قالها في وصفَ المشهد الذي أعده المنصور لاختبار شاعريته(76)، والأبيات التي قالها بعد ذلك - مستدركا - في وصف جارية من النوار تجدف بمجاديف من ذهب(77)، والبيت الذي قاله، عند سقوطه في البركة(78)، والبيتان

(74) بغية الملتمس ص: 320.

(75) بغية الملتمس ص: 320.

(76) بدائع البدائع ص: 300.

(77) بدائع البدائع ص: 301.

(78) بدائع البدائع ص: 356.

اللذان قالهما في وصف وردة أهديت إلى المنصور (79)، والبيتان اللذان قالهما في وصف الإبريق (80)، وكل ذلك كان نقلا عن ابن بسام. أما الحميدي فقد نقل من جذوته الخبر الذي رواه أبو الحسن الراشدي عن براعة الزهيري الشاعر صاحب صاعد في وصف نرجسة ركبت في وردة، بعد أن عجز صاعد وابن شهيد عن وصفها (81).

أما كتاب التنبيهات على غرائب التشبيهات، فقد اكتفى فيه الأزدي بإيراد البيتين اللذين قالهما في وصف الوردية التي أهديت (82) إلى المنصور قبل أن تستكمل تفتحها، وهما البيتان اللذان كانا سببا في امتحان المنصور لشاعرية صاعد وبديته، بعد أن أوهمه ابن العريف أنه سرقهما من شاعر بمصر.

(2) وينقل الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي المتوفى سنة 620هـ، في شرحه لمقامات الحريري، بعض أشعار صاعد مع ذكر مناسبة نظم بعضها.

ومما نقله أن المنصور كان «قد أثبت عنده الحسدة أن صاعدا اللغوي متهم في كل ما يورده من حديث أو شعر، فأدخلت عليه يوما باكورة لم تفتح أكمامها فقال فيها صاعد ارتجالا: (متقارب):

1 - أَتَتُّكَ أَبَا عَامِرٍ وَرْدَةَ

يُذَكِّرُكَ الْمَسْكُ أَنْفَاسَهَا

2 - كَعِذْرَاءٍ أَبْصَرَهَا مُبْصِرٌ

فَغَطَّتْ بِأَكْمَامِهَا رَاسَهَا

فَسُرَّ بِذَلِكَ الْمَنْصُورُ، وَكَانَ ابْنُ الْعَرِيفِ حَاضِرًا...» (83).

(79) بدائع البدائع ص: 299.

(80) بدائع البدائع ص: 302، 303.

(81) بدائع البدائع ص: 358. وانظر الجذوة ص: 384.

(82) التنبيهات ص: 83.

(83) شرح مقامات الحريري 1/58.

وأورد الشريشي كذلك، الأبيات التي قالها صاعد في وصف ترنجان عبث به المنصور ورماه (84)، وقوله (85) متغزلاً (منسرح):

1 - قُلْتُ لَهُ وَالرَّقِيبُ يُعْجِلُهُ

مستعجلاً للفرار: أَيَّنَ أَنَا؟

2 - فَمَدَّ كَفّاً إِلَى تَرَائِبِهِ

وقال: سِرُّ أَمْنَا فَأَنْتَ هُنَا

ومما استحسنته الشريشي في البر بالجليس، أبيات نسبها، كابن بسام قبله، إلى صاعد (86)، وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الفصوص، إلا أن صاعدا صرح بنسبتها إلى الشاعر العباسي كشاجم (87).

والملاحظ أن كل ما أورده الشريشي من أشعار صاعد منقول من كتاب الذخيرة لابن بسام.

(3) وفي المعجب (88) في تلخيص أخبار المغرب، يعيد عبد الواحد المراكشي ذكر ما ورد (89) من قبل في الجذوة، فيشير إلى وفود صاعد على المنصور سنة 380هـ، وإلى ما عرف عنه من ميل إلى الفكاهة وسرعة جواب وطيب معاشرة وحذق في استخراج الأموال، وينقل قصة الرقاع التي لبسها في مجلس المنصور، ثم يورد نفس الأبيات التي قالها صاعد معتذراً بعلته، عن حضور مجالس المظفر بعد وفاة أبيه المنصور. ويشير إلى قصة القوالب والزوالب، والتَّمَرُّكُل، وتعجيز العاصمي لصاعد في النحو، وتفوق صاعد على العاصمي وباقي العلماء الحاضرين

(84) شرح مقامات الحريري 60/1.

(85) شرح مقامات الحريري 271/4.

(86) شرح مقامات الحريري 186/2.

(87) الفصوص ص: 191. والأبيات في ديوان كشاجم ص: 287.

(88) فرغ المراكشي من تأليفه سنة 621.

(89) انظر ص: 30، 37.

في شرح أبيات لامرئ القيس والشمّاخ، وإلى قصة الأيل الذي أهّاه صاعد إلى المنصور، ثم يعيد ما ذكره الحميدي من أن وفاة صاعد كانت بصقلية سنة 410هـ، عن سن عالية.

ويضيف المراكشي إلى هذه الأخبار المكررة، خبرا جديدا يفيد أن المنصور استوزر صاعدا: «استوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان... واستوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الربيعي اللغوي البغدادي» (90). ويخالف المراكشي ابن بسام في ما نقله عن تغريق كتاب الفصوص، فصاحب الذخيرة يذكر أن المنصور هو الذي أمر بأن يقذف الكتاب في النهر، بعد أن تبين له كذب صاعد، بينما يورد المراكشي خبرا يفيد أن كتاب الفصوص سقط في نهر قرطبة مع الغلام الذي كان يحمله: «وألّف له أبو العلاء هذا كتبا، فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي. واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر، نهر قرطبة، فخانت الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب، فقال في ذلك بعض الشعراء...» (91) ومن الجديد الذي تضمنه المعجب، أن كتاب «الجواس» الذي ألّفه صاعد للمنصور، كان ما يزال موجودا متداولاً في عصر المراكشي: «.... وهو كتاب مليح جدا، انخرم أيام الفتن بالأندلس، فنقصت منه أوراق لم توجد بعد» (92).

4) ويردد القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف المتوفى سنة 624هـ، في إنباه الرواة على أنباه النحاة، وهو يترجم لصاعد، ما ورد في المصادر السابقة، وينقل ما كان ابن حيان قد

(90) المعجب ص: 30.

(91) المعجب ص: 31.

(92) المعجب ص: 33.

قاله عن تأليف الفصوص، وفي قراءته هذا الكتاب مفردا على شيخه صاعد سنة 399هـ.

ومما يبدو جديدا في كتاب القفطي، تعليقه انتقال صاعد إلى الأندلس، برغبته في ترويح بضاعته العلمية، «وبلغه أن اللغة بالأندلس مطلوبة، والآداب هناك مرغوب فيها من ملوكها ورعيته، فارتحل إلى الأندلس، ودخلها في حدود ثمانين وثلاثمائة» (93).

وعند الحديث عن وفاة صاعد، ينقل القفطي نفس ما ورد عند ابن بشكوال (94) من جمع بين تاريخ الحميدي لوفاة صاعد وتاريخ ابن حزم لهذه الوفاة: «وخرج صاعد عن الأندلس في أيام الفتنة، وقصد جزيرة صقلية، فمات بها قريبا من سنة عشرة وأربعمائة، وقد أسن..... قال أبو محمد بن حزم: توفي صاعد رحمه الله، بصقلية في سنة تسع (95) عشرة وأربعمائة» (96).

ويصرح القفطي بما يفيد أن العلماء في عصره، لم يكونوا مقتنعين بصحة الأخبار التي صاغها خصوم صاعد في البلاط العامري، تشكيكا في علمه وصدقه، وهو تصرّح يفسر بأن كتاب الفصوص الذي جمع فيه صاعد حصيلة درسه، لم يكن من الكتب المجهولة لدى العلماء والمحصلين، «ولولا مزحه وكثرة ما كان يأتي به في تصانيفه ما كان إلا عالما، وقد اختبرت الكتب المطولة في اللغة وغيرها، فوجد فيها حقيقة ما اتهم فيه، وكان صاعد غير صاعد في النحو مقصرا وباللغة قيما، وله يد طولى في استنباط معاني الشعر» (97).

93) إنباه الرواة ص: 85.

94) الصلة ص: 237، 238.

95) الراجع أن (تسع) تصحيف لـ (سبع) التي وردت في المصادر الأخرى.

96) إنباه الرواة 89/2 - 90.

97) إنباه الرواة 88/2.

وفي ترجمته لسراج بن عبد الملك اللغوي الأندلسي، يذكر القفطي أن سراجا هذا أنشد - لما قرئ عليه في الموطأ حديث: «لا قطع في ثمر ولا كثر» لصاعد بن الحسن الربعي (كامل) (98):

- 1 - ومهففي أجهى من القمر
قمر الفؤاد بفاتن النظر
- 2 - خالسته تفاح وجنته
فأخذتها منه على غرر
- 3 - فأخافني قوم فقلت لهم
لا قطع في ثمر ولا كثر (99)

والملاحظ أن هذه الأبيات لم ترد في ما ذكرت من قبل من المصادر، وقد وردت في الفصوص، لكن صاعدا نسبها إلى قائلها الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، خلافا للقفطي.

(5) يستهل الحموي (100) المتوفى سنة 626هـ ترجمته لصاعد بذكر شيوخه، فيشير إلى السيرافي والفارسي، ثم الخطابي الذي ذكره ابن بشكوال ضمن شيوخ صاعد، لكنه لم يذكر القطيعي رغم ورود اسمه في الصلة مقترنا باسم الخطابي والسيرافي، عند تعداد ابن بشكوال لشيوخ صاعد. ويقتصر الحموي في معجمه على نقل ما ورد عند المراكشي من أن المنصور استوزر أبا العلاء صاعدا، وأن كتاب الفصوص الذي ألفه له سقط في النهر عندما زلت قدم الغلام الذي كان يحمله وهو يعبر النهر، وأن كتاب الجواس الذي ألفه صاعد أيضا للمنصور انخرم أيام الفتن التي كانت بالأندلس، فسقطت منه أوراق لم توجد بعد.

(98) الشعر في الفصوص ص: 111 أ للوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف.

(99) إنباه الرواة 66/2.

(100) معجم الأدباء 286، 281/11.

ورغم نقله بالنص عن المعجب، يجعل ياقوت الحموي وفاة صاعد سنة 417هـ كما ورد عند الضبي وابن بشكوال، مخالفاً بذلك المراكشي الذي جعل وفاة صاعد سنة 410هـ.

(6) وترد إشارة إلى صاعد عرضاً في الكامل لابن الأثير المتوفى سنة 630هـ عند الحديث عما حدث سنة 385هـ من الحوادث. ففي ذكر حادثة غريبة بالأندلس، يقول عز الدين ابن الأثير: «في هذه السنة سير المنصور بن محمد بن أبي عامر... عسكرياً إلى بلاد الفرنج للغزاة... فكان من القدر أن شاعراً للمنصور يقال له أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي قد قصده من بلاد الموصل وأقام عنده وامتدحه قبل هذا التاريخ، فلما كان الآن، أهدى إلى المنصور أيلًا وكتب معه أبياتاً منها....» (101).

ويبدو من العبارة التي ذكر فيها ابن الأثير صاعداً، أنه لم يكن يعرف عنه أكثر من التسمية التي كان المؤرخون يفتتحون بها كلامهم عند الترجمة لصاحب الفصوص.

(7) وفي ترجمة علي بن وداعة، ينقل (102) ابن الأبار المتوفى سنة 658هـ، في الحلة السيرة، الخبر الذي أورده ابن بسام في ذخيرته، عن استغاثة صاعد بالقائد ابن وداعة، عندما ساءت أحواله وضاق به العيش، في أخريات الدولة العامرية، ويثبت ستة أبيات لصاعد، من الأبيات السبعة التي أوردها ابن بسام.

ويشير ابن الأبار نفسه في معجم أصحاب أبي علي الصديقي إلى ابن العريف (103)، ويذكر أنه روى كتاب الفصوص لصاعد عن أبي محمد الركلي عن أبي مروان بن حيان عنه، وأنه رواه أيضاً

(101) الكامل في التاريخ 9/ 113.

(102) الحلة السيرة ص: 181، 182.

(103) معجم أصحاب أبي علي الصديقي ص: 16.

عن أبي القاسم ابن النخاس، عن ابن سراج عن أبي حيان، عن صاعد(104).

(8) ويصف ابن خلكان المتوفى سنة 681، صاعدا بأنه صاحب كتاب الفصوص(105)، ويسمي من شيوخه السيرافي والفارسي والخطابي، دون أن يذكر القطيعي. ثم يلخص ما ورد في المصادر السابقة عن وفوده على المنصور، وعن علمه وبداهته وحذقه في استخراج الأموال.

ومن النوادر التي حكيت عن صاعد وتسرعه في الإجابة، ينقل ابن خلكان، خبر عبث صاعد بالشاعر الأندلسي بشار الأعمى، في مجلس الأمير مجاهد العامري، وهو يشرح لفظة «الجرنفل» التي وضعها بشار للكشف عن كذبه(106). ولم ترد هذه النادرة التي تكمل ما صيغ حول صاعد وسرعة جوابه، إلا في جذوة المقتبس(107). ويعيد ابن خلكان خبر أمر المنصور بتغريق الفصوص، «لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له»(108) لكن وصفه لصاعد بأنه صاحب الفصوص، وتعليقه رَفَضَ (109) الناس لهذا الكتاب، بكون صاحبه قد اتهم بالكذب في نقله، يفيد أنه كان يعرف كتاب الفصوص معرفة من طالعه وقرأه، ويقوي هذا الافتراض قول ابن خلكان في ترجمته لأبي العتاهية: «وحكى صاعد اللغوي في كتاب الفصوص أن أبا العتاهية زار بشار بن

104) معجم أصحاب أبي علي الصديقي ص: 16.

105) وفيات الأعيان 181/2.

106) وفيات الأعيان 181/2.

107) الجذوة ص: 384. وحصر ورود هذا الخبر في الجذوة مقيس إلى ما ذكرت من قبل من المصادر.

108) وفيات الأعيان 182/2.

109) وفيات الأعيان 181/2.

برد يوما فقال له أبو العتاهية...» (110)، وقوله في حديثه عن الوزير علي بن عيسى: «وذكر صاعد اللغوي في كتاب الفصوص قال: حدثني أبو الحسن المرزباني، قال: هويت جارية لعلي بن عيسى غلاما لأبي بكر ابن العلاف الضرير، ففطن بهما فقتلا جميعا... فقال أبو بكر مولاه هذه القصيدة يرثيه بها وكنى عنه بالهر والله أعلم...» (111).

وترد الإشارة إلى صاعد أيضا، في وصف ابن خلكان لابن حيان صاحب المقتبس - وهو يترجم له - بأنه صاحب «أبا العلاء صاعد بن الحسن الربيعي البغدادي وأخذ كتابه المسمى بالفصوص» (112).

كما ترد الإشارة إليه في ترجمته (113) لابن السيد بن مقلس الأندلسي، وترجمته لابن سيده (114) من خلال إشارته إلى تلمذتهما لصاعد.

9) وفي سياق الحديث عن المظفر، عبد الملك بن أبي عامر، واقتراحه على شعرائه، في بعض أوقات الربيع نظم قطع نوارية في الخيري وغير ذلك من أنواع النوار، يورد ابن عذاري المتوفى سنة 695هـ في البيان المغرب، نقلا عن ابن حيان، «قول أبي العلاء صاعد بن الحسين» (115) البغدادي النديم رحمه الله (116)، في الآس (117) والترنجان (118) والنرجس (119) والبنفسج (120)

(117) نفسه 19/3.

(118) نفسه 19/3.

(119) نفسه 19/3.

(120) نفسه 19/3.

(110) وفيات الأعيان 226، 223/1.

(111) وفيات الأعيان 110، 109/2.

(112) وفيات الأعيان 218/2.

(113) وفيات الأعيان 193/3.

(114) نفسه 330/3.

(115) كذا، وسيرد نفس التصحيف في النفح.

(116) البيان المغرب 18/3.

والخيرى(121) والورد(122). وفي حديثه عن مقتل الوزير ابن القطاع يقول ابن عذاري: «وذكرت الشعراء قتل عيسى، ورفعت أشعارها إلى الحاجب عبد الملك مهنئة بالصنع فيه على عاداتها، فمن ذلك قول أبي العلاء صاعد البغدادي من قصيدة (بسيط):

يامن أعاد لنا من عدله عمرا
حتى حسبناه من ملحوده نشرأ
وهي طويلة(123).

ولعل البيان المغرب يتميز، قياسا إلى ما تقدم من المصادر(124)، بتضمنه مقطوعة من قصيدة قالها صاعد مادحا المنصور لما نزل قصر الزاهرة: «واشتد ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها حتى أحسن كمال، وجاءت في نهاية الجمال.... وفيها يقول صاعد اللغوي (بسيط):

- 1 - يأيها الملك المنصور من يمن
والمبتني نسبا غير الذي انتسبا
- 2 - بغزوة في قلوب الشرك راتعة
بين المنايا تناغي السمر والقضبا
- 3 - أما ترى العين تجري فوق مرمرها
زهوا، فتجري على أحسائها الطربا

121) نفسه 20/3.

122) نفسه 20/3.

123) البيان المغرب 35/3.

124) أقصد المصادر التي ذكرتُ.

4 - أَجْزَيْتَهَا فَطَمَا الزَاهِي بِجَرْيَتِهَا
كَمَا طَمَوْتَ فَسُدَّتِ الْعُجْمَ وَالْعَرَبَا...» (125)

- V -

في القرن الثامن الهجري ترد الإشارة إلى صاعد في عدة مصادر مشرقية وأندلسية:

(1) ففي لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة 711هـ يصبح صاعد مصدرا لكثير من الروايات التي يثبتها صاحب اللسان، وسأعود إلى توضيح هذا في مبحث لاحق.

(2) وفي سياق اهتمام الحافظ الذهبي المتوفى سنة 748هـ بالرواة وصفاتهم وأسانيدهم، يعرف في كتابه «ميزان الاعتدال» بصاعد تعريفا مقتضبا نبّه فيه نقلا عن الصلة، على أنه اتهم بالكذب: «صاعد بن الحسن الربيعي، أبو العلاء الأديب نزيل الأندلس، قال ابن بشكوال: متهم بالكذب» (126).

ومن بين شيوخ صاعد لا يذكر الذهبي في كتابه: «العبر في خبر من غبر» إلا القطيعي العالم المحدث» (127).

ويكرر الإشارة إلى أنه كان يُتهم بالكذب (128)، وهي نفس الإشارة التي ترد في كتابه الثالث المغني في الضعفاء (129).

واقصر الذهبي في كتابه «مختصر إنباه الرواة» على اختصار ما أورده القفطي في ترجمته لصاعد (130).

(125) البيان المغرب 2/ 277.

(126) ميزان الاعتدال 2/ 287.

(127) العبر في خبر من غبر 3/ 124.

(128) العبر في خبر من غبر 3/ 124.

(129) المغني في الضعفاء 1/ 302.

(130) انظر المكتبة العربية الصقلية ص: 644.

(3) وفي تخلص الشواهد لابن هشام المتوفى سنة 761هـ يورد المؤلف قول الشاعر (منسرح):

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ فِي بَعْضِ غِرَّاتِهِ يُوَافِقُهَا

ثم يشير إلى أن المشهور كون البيت لأمية بن أبي الصلت، وإلى أن صاعدا نسبته إلى رجل خارجي قتله الحجاج» (131). وهو نفس ما نجده في المقاصد النحوية للعيني حيث يقول الشارح: «أقول: قائله هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، شاعر جاهلي، وقال صاعد: هو لرجل خارجي قتله الحجاج، والأول أصح» (132). وفي هذا ما يطمئنا إلى أن ما رواه صاعد في فصوصه ومجالسه كان بعضا من المادة العلمية التي اعتمد عليها شراح الشواهد لعدم غرابة رواياته عنهم.

(4) ويعيد الصفدي المتوفى سنة 764هـ في الوافي بالوفيات، نقل بعض ما ورد في المصادر السابقة مشيرا إلى شيوخه الأربعة (133)، ويجعل وفاته سنة 417هـ، كما ذكر ابن حزم، وخلافا لما ورد عند الحميدي وابن بسام. وبعد إشارته إلى تأليف صاعد لكتابه الفصوص، يورد خبر عبثه ببشار الأعمى في مجلس مجاهد العامري وقصة القوالب والزوالب، وقصة الأيل، ويثبت بعض الأشعار التي نسبت إلى صاعد في المصادر المتقدمة مع مناسباتها، ثم يورد الأبيات الرائية التي انفرد القفطي - حسب ما اطلعت عليه - بإيرادها في الإنباه منسوبة إلى صاعد (134).

(131) تخلص الشواهد ص: 328.

(132) المقاصد النحوية 2/ 187.

(133) السيرافي والفارسي والخطابي والقطيعي.

(134) إنباه الرواة 2/ 66، وهي منسوبة في الفصوص إلى الوزير ابن يوسف.

ويبدو أن الصفدي نقل قصيدة ابن العلاف (135) في رثاء الهر عن ابن خلكان الذي نقلها من كتاب الفصوص، إذ لم ترد القصيدة مروية عن صاعد في كتاب آخر قبل وفيات الأعيان.

(5) ويأتي ابن كثير المتوفى سنة 774هـ، في كتابه: «البداية والنهاية»، عند ذكر كتاب الفصوص، بما يبدو غريباً بالقياس إلى كل ما قيل عن الفصوص في المصادر، ففي حديثه عن صاعد يقول ابن كثير: «.... صاحب كتاب الفصوص في اللغة على طريقة القالي في الأمالي، صنفه للمنصور بن أبي عامر، فأجازه عليه خمسة آلاف دينار. ثم قيل له إنه كذاب متهم... قلت كأنه سمي هذا الكتاب بهذا الاسم ليشاكل به الصحاح للجوهري، لكنه كان مع فصاحته وبلاغته وعلمه متهما بالكذب، فلهذا رفض الناس كتابه ولم يشتهر» (136). وحديث ابن كثير عن عدم اشتهار الفصوص، ومقارنته بالصحاح يوحيان بأنه لم يكن يعرف من كتاب الفصوص إلا اسمه.

(6) وترد الإشارة إلى صاعد في ثلاثة مؤلفات لابن الخطيب المتوفى سنة 776هـ، ففي كتاب الإحاطة (137) يذكر ابن الخطيب أن صاعداً كان من بين الشعراء الذين صاحبوا المنصور بن أبي عامر في غزواته سنة 374هـ، وهو تاريخ سابق لسنة 380هـ التي يجعلها المؤرخون تاريخ وفود صاعد على المنصور.

وفي أعمال الأعلام (138) يورد ابن الخطيب خمسة عشر بيتاً من قصيدة ذالية مدح بها صاعد المنصور بن أبي عامر يهنئه بالنصر الذي حققه، في غزو للإفرنج. ولم ترد هذه الأبيات حسب ما اطلعت عليه في مصدر آخر.

(135) انظر نكت الهميان ص: 47.

(136) البداية والنهاية 21/12.

(137) الإحاطة 2/106.

(138) أعمال الأعلام ص: 83.

وفي كتاب «السحر والشعر» (139) يورد البيتين التاليين
منسوبين إلى ابن شهيد (كامل):

1 - إَقْبَلْ هُدَيْتَ أَبَا الْعَلَاءِ نَصِيحَتِي

بِقَبُولِهَا وَبِوَأَجِبِ الشُّكْرَ

2 - لَا تَهْجُوْنَ أَسَنَ مِنْكَ فَرَبَمَا

تَهْجُو أَبَاكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي

وسيرد في النفح أن صاعدا كان يبكي من سماع هذين البيتين،
إلا أن المقري نسبهما إلى شاعر آخر.

- VI -

وفي القرن التاسع نقف على أخبار صاعد وأشعاره في أربعة
مؤلفات، هي: البلغة للفيروز آبادي، ولسان الميزان لابن حجر،
وروضة الإعلام لابن الأزرق، ونزهة الأنام للبدري.

(1) يكتفي الفيروز آبادي المتوفى سنة 817هـ في ترجمته
المختصرة لصاعد بالإشارة إلى أخذه عن السيرافي والفارسي،
وحظوته عند المنصور، وتأليفه للفصوص، وسقوط الكتاب في
النهر مع الغلام الذي كان يحمله، ويجعل وفاته سنة 410هـ.
ويصف الفيروز آبادي صاعدا بالخلاعة، ثم يجعل هذه الخلاعة
سببا في امتناع الناس عن الأخذ عنه: «وكان خليعا مولعا بالشراب
واللعب، فلم يؤخذ عنه العلم» (140).

(2) رغم تأخر العصر الذي ظهر فيه كتاب لسان الميزان، يمدنا
الحافظ ابن حجر المتوفى سنة 852هـ بما يبدو جديدا بالقياس
إلى ما ورد في المصادر السابقة. فهو يتحدث عن صاعد باعتباره

(139) السحر والشعر ص: 383. تحقيق قدور إبراهيم. نقلا عن: المستدرک علی دیوان
ابن شهید الأندلسي، لعبد العزيز الساوري.

(140) البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص: 98.

أحد رواة الحديث النبوي: «وهو من الرواة للحديث النبوي، وإنما اتهم في اللغة» (141). ويصرح ابن حجر بما يفيد أنه قرأ كتاب الفصوص: «وقد طالعت كتاب الفصوص له، فذكر في أوائله أنه لزم في حدائته أبا سعيد السيرافي وأبا علي الفارسي حتى استظهر اللغة...» (142) والنقول المطولة التي ينقلها من عدة مواضع من الفصوص، تؤكد أنه قرأ الفصوص كله قراءة متمعن» (143).

وفي هذا ما يطمئنا إلى أن كتاب صاعد كان في القرن التاسع معروفا في المشرق لدى أمثال ابن حجر من الحفاظ والعلماء.

وإلى جانب هذا يشير ابن حجر إلى بعض ما حكي عن صاعد في المصادر، وينقل عن الحميدي بعض ما ذكره عنه، ثم يشير إلى أنه قد روى عن صاعد من القدماء «أبو محمد بن حزم، وأبو مروان بن حيان، وغيرهما» (144).

3) وينقل ابن الأزرق المتوفى سنة 896هـ من فصوص صاعد ما يفيد أنه كان يعرف الكتاب معرفة من طالعه. وقد توزعت هذه النقول على عدة مواضع من كتابه «روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام». ومن هذه النقول خبر الأعمش حين كان يقرئ بمسجد بني أسد بالكوفة مع أبي حصين إمام المسجد (145)، وخبر أمير البصرة الذي لحن على المنبر (146).

141) لسان الميزان 160/3.

142) لسان الميزان 161/3.

143) انظر لسان الميزان 160/3 إلى 163.

144) لسان الميزان 163/3. وورد في الطبعة التي اعتمدنا عليها أن صاعدا توفي سنة سبع وأربعمئة بصقلية. والراجح أنه تصحيف لسبع عشرة وأربعمئة.

145) روضة الإعلام، ص: 27.

146) روضة الإعلام، ص: 488.

4) وينفرد أبو البقاء عبد الله البدرى أحد علماء القرن التاسع الهجري في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام بإيراد قول صاعد اللغوي في المنتور (سريع):

- 1 - قَدْ أَقْبَلَ الْمَنْثُورُ يَا سَيِّدِي
كَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي نَظْمِهِ
- 2 - ثَنَّاكَ لِأَزَالِ كَأَنْفَاسِهِ
وَرَأْسُ مَنْ عَادَاكَ مِثْلُ اسْمِهِ (147)

وإيراد قوله (سريع):

- 1 - تُفَّاحَةً أَذْكَرَنِي نِصْفُهَا
خَدَّ حَبِيبِي يَوْمَ عَانَقْتَهُ
- 2 - وَنِصْفُهَا الْآخِرُ شَبَّهَتْهُ
بِلَوْنِ وَجْهِ حِينَ فَارَقْتَهُ (148)

والملاحظ أن هذه الأبيات التي أوردها أبو البقاء البدرى منسوبة إلى صاعد اللغوي، لم ترد في أي مصدر من المصادر التي ترجمت لصاعد أو نقلت شعره (149).

- VII -

ويكتفي السيوطي المتوفى سنة 911هـ، بأن ينقل في بغية الوعاة، بعض ما ورد في تراجم غيره من المؤرخين الذين ترجموا لصاعد، فينقل عن ابن النجار، بعض ما تردد في جل المصادر (150).

(147) نزهة الأنام، ص: 84.

(148) نزهة الأنام، ص: 122.

(149) حسب ما تيسر الاطلاع عليه.

(150) بغية الوعاة 7/2.

وينقل عن ابن مكتوم كلاما يذهب فيه صاحبه إلى أن نزول قدر صاعد لدى القدماء، كان بسبب ما غلب عليه من الخلاعة: «وقال ابن مكتوم: كان مقدما في علم اللغة ومعرفة العويص وكان أحضر الناس شاهدا، وأرواهم لكلمة غريبة. وإنما حطمه عند أهل الأدب، ما غلب عليه من حب الشراب والبطالة، وإيثار الفكاهة، فلم يثقوا بنقله، ولا استكثروا منه» (151).

- VIII -

وفي القرن الحادي عشر يرد ذكر صاعد وفصوصه، لدى كل من المقرئ المتوفى سنة 1041هـ، وحاجي خليفة المتوفى سنة 1067هـ وابن العماد الحنبلي المتوفى سنة 1089هـ:

(1) في سياق الحديث عن الوافدين إلى الأندلس من المشرق، يذكر المقرئ أبا العلاء صاعد بن الحسين (152)، ثم ينقل جل ما ذكره ابن بسام في ترجمته لصاعد، كما ينقل بعض ما ورد في الجذوة وبدائع البدائه عنه.

ومما يبدو متميزا في النفح، بالقياس إلى ما ورد عن صاعد في كل المصادر السابقة، عدا فهرسة ابن خير (153) إشارة المقرئ إلى أن صاعدا «قدم الأندلس من مصر أيام المؤيد، وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة 380هـ» (154). ولم ترد الإشارة إلى وجوده بمصر حسبما استطعت الاطلاع عليه إلا عند ابن خير (155). ويورد المقرئ الأبيات الرائية (156) التي ضمنت حديث: «لا قطع في

(151) بغية الوعاة 7/2.

(152) ورد نفس التصحيف في البيان المغرب.

(153) حيث يشير ابن خير إلى أن صاعدا قرأ المداخل بمصر على الوزير ابن حنزابة.

(154) نفح الطيب 36/4.

(155) فهرسة ابن خير ص: 358.

(156) النفح 76/4. وقد نسبها المقرئ إلى صاعد كما نسبها القفطي قبله إليه. وقد نسبها صاعد في الفصوص إلى الوزير ابن يوسف.

ثمر ولا كثر»، وهي نفس الأبيات التي أوردتها القفطي منسوبة إلى صاعد. كما ينقل عن كتاب الأزهار المنثورة في الأخبار المأثورة أن صاعدا ألبس غلاما له أسود قميصا من الرقاع ليستخرج مال المنصور وهباته (157)، وهذه الرواية المنسوبة إلى صاعد تخالف الروايات السابقة التي تجعل صاعدا هو الذي لبس الرقاع. ويذكر المقرئ أن الحجاري قدم صاعدا بقوله (بسيط):

كَأَن إِبْرِيْقِنَا وَالرَّاحُ فِي فَمِهِ
طِيْرٌ تَنَاولُ يَاقُوْتَا بِمَنْقَارِ (158)

ومن شبه الجديد في النفح إشارة المقرئ إلى هجاء شاعر سماه ابن جاشد البغدادي لصاعد: «وقال جاشد البغدادي في صاعد اللغوي - وكان صاعد ينشدهما ويبكي، ويقول: ما هجيت بشيء أشد علي منهما -، (كامل):

1 - إِقْبِلْ هُدَيْتَ أَبَا الْعَلَاءِ نَصِيْحَتِي
بِقَبُولِهَا وَبِوَاجِبِ الشُّكْرِ
2 - لَا تَهْجُؤَنَّ أَسْنَ مِنْكَ فَرَبِمَا
تَهْجُؤُ أَبَاكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي

نعوذ بالله من لسان الشعراء (159)».

وقد تقدمت الإشارة إلى صاعد عرضا عدة مرات في نفح الطيب. ففي الحديث عن ابن مقلس، يذكر المقرئ أنه قرأ الأدب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب كتاب الفصوص (160). وعند ذكره لكتاب الكامل للمبرد والنوادر للقالبي، يشير إلى أن كتاب الفصوص لصاعد «جار في مضممار الكتابين المذكورين» (161).

(157) نفح الطيب 82/4.

(158) نفح الطيب 94/4.

(159) نفسه 95/4. وقد سبق أن ابن الخطيب ينسب البيتين لابن شهيد.

(160) نفسه 132/2.

(161) نفسه 172/2.

ويشير إلى قصة افتخار صاعد بالمشرق أمام الأندلسيين، وإنشاد ابن شهيد مقطوعة يعرض فيها بفخر صاعد (162). كما يورد قصة عجز صاعد وابن شهيد عن وصف نرجسة ركبت في وردة، وإسراع الزهيري تلميذ صاعد إلى وصفها (163). وهي القصة التي ذكرها الحميدي في الجذوة. وفي سياق الحديث عن اشتداد ملك المنصور بن أبي عامر ونزوله بقصر الزاهرة، يورد المقري ثمانية أبيات (164) من القصيدة البائية التي مدح فيها صاعد المنصور عند نزوله بهذا القصر، وهي نفس الأبيات التي يبدو، حسب ما تيسر لي الاطلاع عليه، أن ابن عذاري سبق إلى التفرد بإيرادها.

ولعل المقري ينفرد بنقله عن ابن سعيد قصة الأحد عشر بيتاً التي قالها صاعد مناقضاً خصمه ابن العريف النحوي: «وقد ذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر، وعنده صاعد اللغوي البغدادي، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات (مجثث):

- 1 - فَأَلْقَامِيرِيَّةُ تَزْهَى
عَلَى جَمِيمٍ مِيعِ الْمَبَانِي
- 2 - وَأَنْتَ فِيهَا كَسَيْفٍ
قَدْ حَلَّ فِي غَمْدَانٍ

فقام صاعد، وكان مُناقِضاً له، فقال: أسعد الله تعالى الحاجب الأجل، ومكن سلطانه، هذا الشعر الذي قاله قد أعدّه ورؤى فيه، أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالاً. فقال له المنصور: قل،

(162) نفح الطيب 2/ 260.

(163) نفح الطيب 2/ 598، 599.

(164) نفح الطيب 1/ 581.

- IX -

ويمكن أن نلحق بهذه المصادر مؤلفين متأخرين هما: روضات الجنان، للخوانساري المتوفى سنة 1285هـ والمكتبة العربية الصقلية المطبوع سنة 1857م.

(1) يضيف الخوانساري في ترجمته لصاعد صفة الشيخ التي كان أبو العلاء المعري يوصف بها، وينقل بعض ما ورد في المصادر المتقدمة، وينقل عن السيوطي ما نقله عن ابن مكتوم (169).

وفي عرض الحديث عن بعض من سمووا بابن السيد يشير إلى ابن مقلس الأندلسي «الذي هو من تلامذة صاعد البغدادي في اللغة» (170). كما ينقل عن ابن خلكان - عند حديثه عن ابن سيدة - إشارته إلى تلمذة هذا الأخير لأبي العلاء صاعد البغدادي (171).

(2) وينقل ميخائيل أماري بعض ما ورد في ترجمة صاعد في وفيات الأعيان، ومختصر إنباه الرواة، والوافي بالوفيات، ضمن ما نقله من هذه المصادر في مؤلف المكتبة العربية بصقلية (172).

- X -

وترد الإشارة إلى صاعد وفصوصه في كثير من المراجع الحديثة العربية والأجنبية، ومن بين هذه الإشارات أنبه على ما

(169) روضات الجنان 131/4.

(170) روضات الجنان 250/1.

(171) روضات الجنان 119/5/5.

(172) انظر ص: 625، 644، 659.

ورد عند كل من الندوي (173)، وبلاشير (174)، وبروكلمان (175)،
وبلانثيا (176)، وأحمد أمين (177)، والزركلي (178)، وكحالة (179)،
وإحسان عباس (180)، وألبير مطلق (181)، ومحمود علي
مكي (182)، وعبد العلي الودغيري (183).

وقد نبه الندوي في وقت مبكر إلى وجود نسخة من كتاب
الفصوص لصاعد بخزانة القرويين: «قلت: كتاب جيد في
الأدب، نسخة نادرة في مكتبة جامع القرويين
بفاس» (184).

-
- (173) تذكرة النوادر ص: 129، 130.
(174) صاعد البغدادي، مجلة هسبريس، العدد 1، الجزء 10، 1930. (بالفرنسية).
(175) تاريخ الأدب العربي 3/149.
(176) تاريخ الفكر الأندلسي ص: 66، 68.
(177) ظهر الإسلام ص: 22، 128، 129، 229.
(178) الأعلام 3/271.
(179) معجم المؤلفين 4/318.
(180) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ص: 60، 61.
(181) الحركة اللغوية في الأندلس 94، 102.
(182) مقدمة تحقيق المقتبس لابن حيان ص: 22، 23، 57، 58.
(183) أبو علي القالي ص: 273، 276، 353، 354 وغيرها.
(184) تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ص: 130.

ثانيا : ترتيب نقدي :

نهدف من وراء هذا التصنيف، إلى المقارنة بين المعلومات التي تقدمها المصادر عن صاعد، وفصوصه من حيث الأهمية. وحتى تصبح هذه المقارنة ممكنة، أثرت وضع محاور تتم من خلالها المقارنة، فقسمت هذه المصادر إلى:

- I - مصادر تؤرخ لحياة صاعد.
- II - مصادر متنوعة المعلومات.
- III - مصادر رتحدث عن غير الفصوص من مؤلفات صاعد وآثاره.
- IV - مصادر تؤرخ للفصوص.
- V - مراجع حديثة.

I - مصادر تؤرخ لحياة صاعد :

ويقصد بهذه المصادر كل المؤلفات التي ورد فيها ذكر صاعد، دون تمييز بين ما كان ترجمة أو إشارة عابرة. وميزت في ترتيب هذه المصادر بين ما أفادنا في معرفة بعض ما يتعلق بالمرحلة المشرقية من حياته، وما أفادنا في معرفة المرحلة الثانية من حياته أي مرحلة السفر، وما أفادنا في معرفة المرحلة الثالثة من حياته أي المرحلة الأندلسية، وما أفادنا في معرفة المرحلة الأخيرة من حياته أي المرحلة الصقلية.

(1) المرحلة المشرقية :

رغم كثرة الذين ترجموا لصاعد أو تحدثوا عنه، من القدماء والمعاصرين، ظلت أخبار هذه المرحلة من حياة هذا الأديب غير معروفة. ولعل هذا الترتيب الذي أنجزه، يكون سبيلا إلى الوقوف

على بعض النصوص التي تكشف عن مرحلة من حياة صاعد، سكتت عنها جل المصادر.

أ) أهم هذه المصادر كتاب الفصوص نفسه، فالمؤلف يتضمن إشارات متعددة إلى بعض من اتصل بهم صاعد في المشرق. ولعل أهمية كتاب لسان الميزان قبل تحقيق كتاب الفصوص، كانت تتجلى في نقل مقدمة الفصوص التي تحدث فيها صاعد عن أسباب خروجه من بغداد، ونقل الفصل الذي ذكر فيه صاعد بعض ما جرى له مع أحد اللغويين المشاركة في مجلس من مجالس عضد الدولة البويهى.

ب) يماثل الفصوص أهمية، من حيث النظر إلى أخبار صاعد في المشرق ثلاثة نصوص مشرقية، اثنان منهما للتوحيدي، والثالث لأبي القاسم الأصفهاني.

- في النص الأول يشير التوحيدي الذي كان معاصرا لصاعد، إلى أن أبا العلاء صاعدا كان من بين ذوي الفضل الذين قدمهم الوزير المهلبى المتوفى سنة 352هـ، ونوه بهم ونبه على فضلهم (185).

- ويرد النص الثاني في المقابسات، وهو يفيد أن دروس المنطق التي كان أبو حيان التوحيدي يحضرها لم تكن غريبة عن أبي العلاء صاعد، فالتوحيدي يذكر في إحدى المقابسات، وهو يتحدث عن درس في المنطق حضره سنة 361هـ أن صاعدا دخل على الحاضرين فانقطع الكلام قبل أن ينهي يحيى بن عدي درسه (186).

- أما النص الثالث فيرد في إيضاح المشكل الذي ألفه أبو القاسم الأصفهاني لبهاء الدولة البويهى. وتبدو أهمية هذا النص

(185) الإمتاع والمؤانسة 212/3، 213.

(186) المقابسات ص: 156، 157.

في إشارته إلى أن صاعدا كان جالسا خلف الوزير المهلبى، قريبا من الشاعر أبي الطيب المتنبي، في المجلس الذي وفد فيه هذا الشاعر(187) على الوزير، وهو المجلس الذي ضم أيضا أبا الفرج الأصفهاني وغيره من ندماء المهلبى، كابن الحجاج وابن سكرة.

- بعد الإمتاع، والمقابسات، والإيضاح، نعثر على نص بالغ الأهمية يكمل النصوص السابقة، ويوضح بعض ما غمض فيها، من حيث النظر إلى طبيعة الوسط الأدبي الذي ارتبط به صاعد قبل أن ينتقل إلى الأندلس. وقد ورد هذا النص في فهرسة ابن خير، عند حديث المؤلف عن سنده في رواية شعر ابن الحجاج وابن سكرة:

«شعر ابن حجاج البغدادى في ستة أجزاء، حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر رحمه الله، عن الوزير أبي بكر محمد بن هشام المصحفي قال: سمعته على أبي العلاء صاعد اللغوي، عن قائله ابن حجاج.

شعر ابن سكرة الهاشمي حدثني به الشيخ أبو عبد الله... عن الوزير أبي بكر... عن أبي العلاء صاعد اللغوي عن ابن سكرة. وكان ابن سكرة هذا وابن حجاج المتقدم الذكر صاحبين لصاعد اللغوي ببغداد أيام حدثتهما»(188). وتتجلى أهمية النص، فضلا عن إشارته إلى نقل صاعد لشعر ابن حجاج وابن سكرة إلى الأندلس سماعا عنهما، في دلالاته الصريحة على صحبة صاعد لزعمي شعر المجون في المشرق في القرن الرابع، وهي دلالة قد تفيد الباحث في تفسير الموقف الذي وقفه أدباء الأندلس من صاعد.

- بعد هذه المصادر تأتي في آخر هذا الترتيب - من حيث أهمية الأخبار المعرفة بالمرحلة المشرقية من حياة صاعد - كل

(187) نقلا عن خزانة الأدب البغدادى 385/1.

(188) فهرسة ابن خير ص: 406.

المصادر المشرقية والمغربية الأندلسية التي اكتفت عند الترجمة لصاعد بالإشارة إلى أصله وانتقاله إلى بغداد، وأخذه بالمشرق عن السيرافي والفارسي، ثم الخطابي والقطيعي عند التوسع.

(2) مرحلة السفر، أو المرحلة المصرية :

وهي مرحلة سكنت عنها كل المصادر التي ترجمت لصاعد، باستثناء مصدرين هما فهرسة ابن خير ونفح الطيب.
(أ) أما الفهرسة، فتكاد تنفرد بأهميتها في الكشف عن بعض أخبار صاعد، في المرحلة التي توسطت خروجه من بغداد، ووصوله إلى الأندلس.

ففي سياق الحديث عن سنده في رواية كتاب المداخل لأبي عمر المطرز الزاهد، يشير ابن خير في السند إلى الوزير أبي بكر المصحفي الذي ذكر أنه كان يقرأ هذا الكتاب على ابن خشخاش وصاعد اللغوي حاضر، مشيراً إلى أن صاعداً كان قد «قرأ المداخل بمصر على الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل... المعروف بابن حنزابة، عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرز قراءة عليه ببغداد، وكان ابن حنزابة لا يفارق صاعداً يسامره» (189). ولدلالة النص على استقرار صاعد بمصر زمناً كفاه لقراءة كتاب المداخل، وإشباع نهم الوزير إلى السمر، أثرت تسمية هذه المرحلة بالمرحلة المصرية.

(ب) ورغم كون النفح، بعد الفهرسة، المصدر الثاني الذي يرد فيه ذكر مصر عند الحديث عن صاعد، لم تتعد إشارة المقرئ قوله: «وقدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر» (190). والعبارة كافية للدلالة

189 (الفهرسة ص: 358 359.

190 (نفح الطيب 4/96.

على أن وصول صاعد إلى الأندلس كان من مصر لا من بغداد.

(ج) ولا تتحدث باقي المصادر التي اطلعت عليها، عن حلول صاعد بمصر قبل مجيئه إلى الأندلس. إلا أن قصة الأبيات التي استنسخها ابن العريف بخط مصري، وزعم أنه سمعها من بعض البغداديين بمصر، قبل أن ينسبها صاعد إلى نفسه، توحي بأن المرحلة المصرية من حياة صاعد لم تكن مجهولة من لدن الأندلسيين، وإن كانت المصادر قد سكّت عنها.

3) المرحلة الأندلسية :

هي المرحلة التي اهتمت بها المصادر التي ترجمت لصاعد. وإذ كانت الأخبار المتعلقة بهذه المرحلة تتردد مشيرة إلى نفس الوقائع والأحداث، فقد آثرت أن أرتب مصادر هذه المرحلة نقديا الترتيب الآتي:

(أ) مصادر تكتسب أهميتها من معاصرتها لصاعد.

(ب) مصادر تكتسب أهميتها من وفرة معلوماتها.

(أ) يراعي الترتيب النقدي هنا أهمية المصادر من حيث النظر إلى معاصرة الروايات لصاعد، واتصال أصحابها به، أو النظر إلى اتصال السند بين صاعد ومن انتهت إليهم أخباره عن طريق الرواية المتصلة السند. ويتجلى ذلك من خلال التمييز بين أربعة أنواع من الروايات:

(191) نقل ابن الكتاني، الذي كان يضيف صاعدا بمنزله بسرقسطة، بعض أشعار هذا الأديب في كتاب التشبيهات، وسأعرض لذلك.

- النوع الأول :

روايات تعود إلى عصر صاعد، وهي الروايات التي اتصل أصحابها بصاعد عن طريق الصداقة أو التلمذة، وأذكر من ذلك (191):

- روايات ابن حزم، الذي كان أول اتصال له بعبد الملك المظفر مرتبطاً بالمجلس الذي مدح فيه صاعد هذا الحاجب، بقصيدة يهنئه فيها بعيد الفطر سنة 396هـ، وهي المناسبة التي أهدى فيها صاعد ابن حزم القصيدة، بعد أن كتبها له بخطه، عندما رآه يستحسنها ويصغي إليها وهي تنشد (192).

- روايات ابن حيان تلميذ صاعد، الذي قرأ عليه الفصوص منفرداً في داره سنة 399هـ (193).

- روايات تلميذه ابن سيده صاحب المخصص، الذي درس عليه مجموعة من المصنفات، ذكرها في أرجوزته (194).

- النوع الثاني :

روايات نقلت عن عرف صاعداً أو تتلمذ له وأقصد:

- روايات البكري تلميذ ابن حيان تلميذ صاعد، التي وردت في معجم ما استعجم، والتنبيه، والآلي.

- روايات الحميدي التي نقلها في الجذوة عن بعض مشايخه، وعن ابن حزم.

- النوع الثالث :

مصادر نقلت عن المصادر السابقة، أي عن الذين نقلوا عن تلاميذ صاعد، أو عن أصدقائه، وهي:

192) الجذوة 224.

193) الصلة 238.

194) انظر أرجوزته، وانظر الصلة ص: 417.

- الغنية، وترتيب المدارك للقاضي عياض، الذي ذكر (195) أن ابن عتاب تلميذ ابن حيان تلميذ صاعد، أجازته في كتاب الفصوص.
- الفهرسة لابن خير، الذي ذكر أن شيخه ابن عتاب المذكور سابقا، حدثه بالفصوص سماعا عن ابن حيان، وكتابة عنه، عن أبي العلاء صاعد مؤلفه (196)، وأن شيخه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر حدثه بكتاب المداخل في اللغة لأبي عمر الزاهد، سماعا عن الوزير أبي بكر المصحفي، الذي كان يقرأ المداخل على ابن خشخاش وصاعد اللغوي حاضرا (197). كما ذكر أنه - أي ابن خير - روى شعر ابن حجاج وابن سكرة عن شيخه ابن معمر، سماعا عن الوزير أبي بكر المصحفي، عن صاعد، عن ابن حجاج وابن سكرة. وعن الوزير المصحفي المذكور نقل الخبر الصريح الدلالة على صحبة صاعد لهذين الشاعرين الماجنين (198).

- بغية الملتمس للضبي، الذي نقل أخبار صاعد عن غير واحد، عن شريح، عن ابن حزم (199)، الذي يروي ما رآه أو ما أخبر به عن العاصمي مُناظرٍ صاعدٍ أو عن غيره.

- أما النوع الرابع :

فيشمل كل المؤلفات الأخرى التي اكتفت بنقل أخبار صاعد، عن المصنفات المتداولة السابقة لها. وتظل أهميتها النسبية مقترنة بسبق بعضها زمنيا بالقياس إلى بعضها الآخر.

195) الغنية ص: 224.

196) الفهرسة ص: 325.

197) الفهرسة ص: 358.

198) فهرسة ابن خير 406.

199) بغية الملتمس 319، 323.

ب) وأما الترتيب النقدي للمصادر التي نقلت أخبار صاعد في الأندلس، من حيث النظر إلى وفرة المعلومات، فيضع أمامنا مصدرين اثنين:

الأول: الذخيرة، وتكتسب أهميتها، فضلا عن قربها النسبي من عصر صاعد، من جمعها بين ما ورد في مختلف المصادر التي ترجمت لصاحب الفصوص، وأخبار أخرى لم ترد في هذه المصادر. وهذا ما جعل الأخبار التي نقلها ابن بسام في القسم الذي خصصه للترجمة لصاعد، أو عند حديثه عن ارتباط بهم، تبدو وفيرة (200) وشبه جامعة.

والثاني: نفح الطيب، وهو مصدر متأخر بالقياس إلى معظم المصادر التي ترجمت لصاعد، ورغم تأخره، استطاع المقرئ أن يجمع من أخبار صاحب الفصوص كمًّا وفيرا (201)، شمل ما ورد في المصادر المتقدمة وما لم يرد.

(4) المرحلة الصقلية :

تبدو كل المصادر التي اطلعت عليها عديمة الأهمية، حين يتعلق الأمر بالتأريخ للمرحلة الصقلية من حياة صاعد. ولعل هذا الغموض الذي يكتنف أخبار صاعد بصقلية، يعود إلى انقطاع هذه

(200) امتدت ترجمته لصاعد من ص: 8 إلى ص: 56 من المجلد الأول من القسم الرابع، فضلا عن الأخبار الواردة عرضا في القسم الأول، المجلد الأول ص: 30، 71 72 128 129 130. والقسم الثاني م 1 ص: 27 216. والقسم الثالث م 1، ص: 390.

(201) شغلت ترجمة صاعد في النفح حوالي عشرين ص: 4/75 إلى 96 فضلا عن الأخبار الواردة عرضا في 1/400، 580 إلى 582، ثم 2/132، 172، 260، 598، 599.

الأخبار بعد رحيله إليها، وجهل المؤرخين بما آلت إليه أموره فيها. ويقوي هذا الاحتمال اختلاف المصادر في تحديد تاريخ وفاته، رغم الضبط الزمني الذي كشفت عنه هذه المصادر عند تناول أخبار المرحلة الأندلسية.

ولا نستبعد أن تكون بعض أخبار صاعد في صقلية قد وردت في المصادر التي تحدثت عن العلماء الذين نزلوا بصقلية، إلا أن ذلك يتطلب بحثاً مستقلاً، لا يتسع له هذا المدخل. وأكتفي هنا بالإشارة إلى أن أبا تمام غالب بن عبد الله بن عامل القيسي، المعروف بالقطيني الميورقي، قد روى عن صاعد في صقلية قبل أن يكمل رحلته إلى المشرق (202).

II - مصادر متنوعة المعلومات :

إذا نحن تجاوزنا هذا التصنيف الذي ينظر إلى أهمية المصادر من حيث النظر إلى أهمية ما تضمنته من أخبار عموماً، دون اعتبار المراحل المذكورة، أمكن التمييز بين صنفين من المصادر:

- (1) مصادر تفرّد بعضها بأخبارٍ لم تردّ في غيره من المصادر.
- (2) مصادر تشترك في نقل نفس الأخبار.

(1) لكون أهمية مصادر هذا النوع واحدة، لتفرد كل مصدر منها بما لم يرد في الآخر، راعيت في تصنيفها الترتيب الزمني، دون أن يكون لهذا الترتيب أي اعتبار في المفاضلة بينها، إذ هي متساوية الأهمية:

(202) الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني ص: 517.

أ) الإمتاع والمؤانسة: وقد تفرد بالإشارة إلى أن صاعدا كان ممن قربهم الوزير المهلبى، المتوفى سنة 352هـ، وهي إشارة تفيد أن صاعدا كان قد حصل من العلم والمعرفة قبل 352هـ ما جعله أهلا لحضور مجالس هذا الوزير، فضلا عن دلالة النص دلالة غير مباشرة على أن أبا حيان التوحيدى كان يعرف صاعدا معرفة من عاشره.

ب) المقابسات : وقد تفرد بالإشارة إلى أن حلقات دروس المنطق التي كان يحيى بن عدي يلقيها سنة 361هـ، وكان أبو حيان التوحيدى يحضرها، لم تكن غريبة عن صاعد.

ج) إيضاح المشكل: وقد تفرد بالإشارة إلى أن صاعدا كان جالسا بالقرب من أبي الطيب المتنبي وأبي الفرج الأصفهاني في المجلس الذي وفد فيه أبو الطيب على الوزير المهلبى. ولم يرد في المصادر الأخرى ما يفيد أن صاعدا وأبا الطيب المتنبي التقيا في مجلس واحد، ولا ما يفيد أن صاعدا كان يحضر نفس المجالس التي كان شيخه أبو الفرج صاحب الأغاني يحضرها.

د) الذخيرة: وتفردت بإيراد بعض رسائله كما تفردت بإيراد قصيدة تتضمن الإشارة إلى سنه عندما نظمها، وهي القصيدة التي أجاب بها صاعد صديقه الوزير ابن برد عن قصيدة أرسلها إليه.

هـ) فهرسة ابن خير: وقد تفردت بعدة أخبار هي الإشارة الصريحة إلى أن صاعدا استقر بمصر فترة مكنته من قراءة كتاب المداخل على الوزير ابن حنزابة ومن إمتاع هذا الوزير بأسماره، ثم الإشارة الصريحة إلى أن صاعدا هو الذي أدخل شعر ابن الحجاج وابن سكرة زعيمى شعر المجون في القرن الرابع إلى الأندلس سماعا عنهما. والإشارة الصريحة إلى علاقة الصداقة

والصحبة التي ربطت صاعدا بهذين الشاعرين الماجنين، ثم الإشارة الصريحة إلى أن صاعدا كان يدرس شعر ابن الحجاج وابن سكرة الماجن الغريب عن البيئة الأندلسية، في سرقسطة في وسط علمي ضيق.

(و) **نفح الطيب:** وقد تفرد نقلا عن ابن سعيد، بإيراد خبر المجلس الذي ناقض فيه صاعد خصمه ابن العريف النحوي، أمام المنصور العامري بقصيدة ارتجلها، متحديا خصمه الذي كان قد هيا شعره من قبل، مما جعل ابن أبي عامر يقول لابن العريف بعد استحسانه شعر صاعد: «ما لك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله» (203).

(2) تأتي بعد المصادر السابقة كل المصنفات التي تناقلت نفس الأخبار المتعلقة بصاعد، مع تفاوت نسبي من حيث وفرة هذه الأخبار أو قلتها، ومن حيث اطرادها أو ورودها في بعض هذه المصادر دون بعضها الآخر.

III - مصادر تتحدث عن غير الفصوص من مؤلفات صاعد وآثاره:

نفرق هنا بين المصادر التي اهتمت بآثاره الشعرية، والمصادر التي اهتمت بغير آثاره الشعرية.

(1) مصادر اهتمت بآثاره الشعرية أو سكنت عنها: ونميز في ترتيبها بين المصادر التي نقلت أشعاره دون أخباره، والمصادر التي نقلت أشعاره وأخباره، والمصادر التي سكنت عن شعره. أ) مصادر نقلت شعره دون أخباره: وهي مصادر قليلة بالقياس إلى ما اهتم بأخباره منها. ومما استطعت الوقوف عليه:

(203) نفح الطيب 582/1.

- كتاب التشبيهات لابن الكتاني، وقد أورد فيه المؤلف، في مواضع متفرقة (204)، خمسة وعشرين بيتا مختلفة أغراضها، موزعة على تسع قطع. وتعود أهمية ما نقله ابن الكتاني من شعر صاعد، إلى طبيعة العلاقة التي جمعت المؤلف بالوافد المشرقي، فابن خير يذكر أن صاعدا كان ينزل عند ابن الكتاني بمنزله عند حلوله بسرقسطة.

- معجم السلفي: نسب المؤلف فيه إلى صاعد ثلاثة أبيات في الغزل هي (كامل):

1 - ومُهْفَهفٍ أبهى من القمرِ

قمر الفؤاد بفاتن النظر

2 - خالستُه تفاح وجنته

فأخذتُها منه على غررِ

3 - فأخافني قومٌ فقلتُ لهم

لا قطع في ثمرٍ ولا كثَرٍ (205)

ولم تتقدم الإشارة إلى هذه الأبيات في المصادر الأولى، وقد وردت في إنباه الرواة والوافي بالوفيات، منسوبة أيضا إلى صاعد، رغم كون صاعد قد صرح في كتابه الفصوص بنسبتها إلى الوزير ابن يوسف.

- نزهة الأنام في محاسن الشام للبدرى: أورد المؤلف فيه لصاعد أبياتا في وصف المنثور ووصف تقاحة، وهي أبيات لم ترد في غير هذا المصدر.

ب) مصادر نقلت أخباره وأشعاره، ومعظمها أندلسي، وهي:
- المقتبس لابن حيان الذي كانت رواياته أصلا لكثير من الأخبار التي نقلتها المصادر المتضمنة لأخبار مؤلف الفصوص.

(204) انظر الصفحات: 100، 135، 146، 173، 195، 196، 218، 289.

(205) معجم السلفي (تراجم أندلسية من معجم السلفي) ص: 144، 145.

- جذوة المقتبس: حيث أورد الحميدي ستة أبيات من القصيدة البائية التي مدح بها صاعد الحاجب عبد الملك المظفر، والأحد عشر بيتا التي أرسلها إلى المنصور مع الأيل الذي أهدها إليه.
- الذخيرة: وقد تضمنت حوالي مائة بيت موزعة على قطع مختلفة الطول.

- بغية الملتبس: أورد الضبي في كتابه هذا نفس الأبيات التي وردت في جذوة المقتبس.

- بدائع البدائ: أورد الأزدي فيه لصاعد ست قطع، تجاوز مجموع أبياتها عشرين بيتا، ورد معظمها في الذخيرة.
- شرح مقامات الحريري: أورد الشريشي بعضا من الأشعار التي وردت في الذخيرة.

- المعجب: أورد المراكشي أبياتا وردت في المصادر السابقة.
- إنباه الرواة: وقد أورد فيه القفطي سبعة عشر بيتا وردت في المصادر السابقة، وثلاثة أبيات منسوبة إلى صاعد، سبق السلفي إلى إيرادها.

- معجم الأدباء: حيث نقل الحموي سبعة أبيات مما ورد في المصادر المتقدمة.

- الحلة السيرة: وقد نقل فيها ابن الأبار ستة أبيات، من سبعة أبيات أوردتها ابن بسام في الذخيرة.

- البيان المغرب: وقد أورد فيه ابن عذاري قطعا نوارية بلغت أبياتها ستة وعشرين بيتا، وبيتا واحدا من البيتين اللذين قالهما صاعد في حادثة مقتل الوزير ابن القطاع، وثمانية أبيات من قصيدة مدح بها صاعد المنصور، لم ترد في ما تقدم من المصادر.

- الوافي بالوفيات: وينقل فيه الصفدي خمسة نماذج تضمنت خمسة عشر بيتا، ثلاثة أبيات منها لم ترد في المصادر المذكورة.

- نفح الطيب: حيث يورد المقرئ عدة قطع بلغت أبياتها اثنين وستين بيتاً، منها قصيدة نقلها عن ابن سعيد لم ترد في المصادر المذكورة.

ج) مصادر سكنت عن شعره مطلقاً، أو اكتفت بإيراد البيت الذي رد فيه صاعد على تعريض ابن العريف بسقوط الفصوص في النهر. ومن هذه المصادر التي سكنت عن شعره أذكر: الإمتاع والمؤانسة والمقابسات، وإيضاح المشكل، ومعجم ما استعجم، والتنبيه، واللالى، وفهرس ابن عطية، والغنية، وترتيب المدارك، وفهرسة ابن خير، والصلة، ووفيات الأعيان، والعبر، وميزان الاعتدال، والمغني في الضعفاء، والبداية والنهاية، والبلغة، ولسان الميزان، وروضة الإعلام...

2) مصادر اهتمت بآثاره غير الشعرية: ونميز فيها بين المصادر التي نقلت رسائله، والمصادر التي تحدثت عن أدبه القصصي.

أ) مصادر نقلت رسائله: لم تول المصادر التي ترجمت لصاعد رسائله عناية كبيرة، فمن بين كل هذه المصادر لا ترد الإشارة إلى رسائله إلا في مصدر واحد هو الذخيرة، حيث يورد ابن بسام فصولاً من ثلاث رسائل لصاعد، الأولى، كتبها لما نكب الوزير ابن مسلمة، إلى الوزير ابن الدب ليشفع للوزير المنكوب عند الخليفة سليمان(206). والثانية، كتبها إلى مجاهد العامري يصف ظهوره على خيران، وأسرهم لجماعة من الصقالب(207). والثالثة، كتبها إلى علي بن وداعة، يستغيث به لما ساءت حاله وقل ماله أيام الفتنة(208).

(206) الذخيرة - القسم الرابع - 10/1، 11.

(207) الذخيرة - القسم الرابع - 11/1، 12.

(208) الذخيرة - القسم الرابع - 53/1.

ب) مصادر تحدثت عن أدبه القصصي: رغم خصوصية الشخصية الأدبية لصاعد، الموزعة بين صورة العالم والنديم، لم تهتم المصادر التي ترجمت له، بما ينتمي إلى أدب السمر من آثاره. فالمصادر التي أشارت إلى هذا النوع من تأليفه قليلة. ومن بين هذه المصادر القليلة نميز بين ما اكتسب أهميته من الإشارة إلى هذه المؤلفات والإخبار عن تداولها، وما اكتفى بذكرها، دون الإشارة إلى تداولها. فيما يخص النوع الأول، نجد المعجب للمراكشي ومعجم الأدباء للحموي. فالمراكشي يشير إلى أن صاعدا ألف للمنصور كتبا، منها كتاب على نحو كتاب الخزرجي «سماه كتاب الهجففف .. وكتاب آخر في معناه سماه كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء» (209). لكنه يضيف إشارة ثانية تفيد أن كتاب الجواس كان في عصر المراكشي ما يزال متداولاً: «وهو كتاب مليح جدا انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد» (210).

أما ياقوت الحموي فقد اكتفى في معجمه بالإشارة إلى كتاب الجواس وحده. ووصف هذا الكتاب بأنه «كتاب لطيف ممتع جدا، انخرم في الفتن التي كانت بالأندلس، فسقطت منه أوراق لم توجد بعد» (211). والعبارة رغم شبهها بعبارة المراكشي تفيد أن ياقوتا الأديب المشرقي الذي عاصر المراكشي، كان يعرف كتاب الجواس دون كتاب الهجففف، معرفة من رأى الكتاب. وفي هذا ما يطمئننا إلى أن أدب صاعد القصصي، متمثلاً في كتاب الجواس لم يكن غريباً عن المشاركة.

(209) المعجب ص: 33.

(210) المعجب ص: 33.

(211) معجم الأدباء 11/284.

- وأما المصادر التي اكتفت بالإشارة إلى تأليف كتابي الهججف والجواس، دون الإخبار عن تداولهما، فهي جذوة المقتبس، وبغية الملتمس، وإنباه الرواة. واتفقت هذه الكتب الثلاثة على أن المنصور كان مشغولاً بأسماء صاعد، مع وجود بعض التفاوت الظاهر في صياغة الخبر. فبينما ترد عند الحميدي والضبي، عند الحديث عما ألفه صاعد للمنصور، نفس العبارة: «ومما ألف له كتاب الفصوص... وكتاباً آخر سماه كتاب الهججف... وكتاباً آخر في معناه سماه كتاب الجواس... قال لي أبو محمد علي بن أحمد: وهو كتاب مليح جداً. وكان المنصور أبو عامر كثير الشغف بكتاب الجواس، حتى رتب له من يخرج أمامه في كل ليلة» (212)، نجد القفطي يقول: «وكان يصنف كتباً في أخبار العشاق ويسمي أسماء غريبة لا أصل لها، وينسب إليها كلاماً منظوماً ومنثوراً، يرصعها من قوله وقول غيره، فمنها كتاب الهججف وكتاب الجواس، وكان المنصور مغرمًا بكتاب الجواس، يقرأ عليه كل ليلة شيء منه» (213). وهذه العبارة، إذا لم تكن إشارة إلى غرابة الأسماء الواردة في عنواني الكتابين، ترجح ما ذهبنا إليه من أن أدب صاعد القصصي كان معروفاً بالمشرق.

- IV -

مصادر تؤرخ للفصوص: تنوعت المعلومات التي قدمتها المصادر المتحدثة عن الفصوص. ويمكن أن نميز في تصنيف هذه المعلومات بين ما تعلق بمناسبة تأليف الفصوص وإملائه وروايته، وما تعلق بمهاجمة الفصوص أو الدفاع عنه، وما تعلق

(212) الجذوة ص: 223، وبغية الملتمس ص: 319، 320.

(213) إنباه الرواة 86/2.

بوصفه وصف اطلاع أو نقل، أو وصفا يدل على جهل الواصف
بمضمون الكتاب.

(1) مناسبة تأليفه: نرتب المصادر التي تحدثت عن مناسبة
تأليف الفصوص حسب أهمية المعلومات التي قدمتها، الترتيب
الآتي:

(أ) ما يشير بتدقيق إلى مناسبة تأليفه: لعل ابن بسام - حسب
ما اطلعت عليه - ينفرد بإشارة يفهم منها أن المنصور كان يرغب
في أن يحظى بعالم كأبي علي القالي يؤلف له كتابا كالأمالى
يرتبط به اسمه كما ارتبط اسم الخليفة الحكم بالقالي ومؤلفه، وأن
صاعدا كان يدرك أن نيل الحظوة عند المنصور مرهون بتأليف
مصنف يتحدى به القالي ومؤلفه وتلامذته. فبعد الحديث عن تفوق
صاعد على ابن العريف، أمام المنصور، في رواية الأخبار وفك
المعنى، يقول ابن بسام: «فازداد المنصور عجباً، ثم أراه كتاب
النوادر لأبي علي فقال: إذا أراد المنصور أملت على مقيدي خدمته
وكتاب دولته كتاباً أرفع منه قدراً وأجل خطراً، لا أدخل فيه خبراً
مما أدخله أبو علي. فأذن له المنصور في ذلك» (214). ولم يتردد
هذا التدقيق في الحديث عن مناسبة تأليف الفصوص في غير
الذخيرة من المصادر. أما ما ورد في نفح الطيب فقد كان تكراراً
لكلام ابن بسام.

(ب) مصادر تكتفي بالإشارة إلى أنه ألف الفصوص للمنصور:
ومنها الجذوة وبغية الملتمس وفهرسة ابن خير والصلة، والمعجب
وإنباه الرواة ومعجم الأدباء، ووفيات الأعيان، والوافي بالوفيات،
والبداية والنهاية، والبلغة. فهذه المصادر كلها، اكتفت بالإشارة
المقتضبة إلى أن صاعدا ألف كتاب الفصوص للمنصور، وإن
كانت هذه المصادر، عدا فهرسة ابن خير والصلة، قد قيدت العبارة

(214) الذخيرة - القسم الرابع - 15/1.

بالإشارة إلى أن صاعدا نحا في فصوصه منحى القالي في نوادره (215) أو أماليه (216).

(ج) مصادر لم تهتم بالحديث عن مناسبة تأليف الفصوص: وهي التشبيهات وبدائع البدائيه والبيان المغرب، وميزان الاعتدال، والعبر في خبر من غبر والمغني في الضعفاء، وغيرها من المصادر التي تعرضت لصاعد.

(2) إملاء الفصوص وروايته: هذا التمييز بين المصادر التي تحدثت عن إملاء الفصوص والمصادر التي تحدثت عن روايته، تمييز بين المعلومات التي تكشف عن الآثار التي أحدثتها الفصوص في فترة تأليفه، والآثار التي تركها خلال مختلف المراحل الزمنية اللاحقة.

(أ) إملاء الفصوص: رغم شهرة هذا الكتاب وتعدد المصادر التي ذكرته نلاحظ أن المصادر التي تحدثت عن إملاء صاعد لمؤلفه هذا جد قليلة. فالحديث عن هذا الإملاء لم يرد حسب ما استطعت التوصل إليه إلا عند ابن حيان وابن بسام.

- أما المعلومات التي أوردها ابن حيان عن إملاء كتاب الفصوص فتعد أهم مما أورده ابن بسام، لدقتها وصراحة دلالتها. فابن حيان الذي تتلمذ لصاعد يفرق في الخبر الذي ينقله عن إملاء الفصوص تفريقا واضحا بين مرحلة تأليف الكتاب التي استمرت من ربيع الأول من سنة 385هـ إلى رمضان من نفس السنة، ومرحلة إملائه على الناس التي بدأت بعد أن تم التأليف، وأمره المنصور الذي أثابه عليه بمبلغ كبير، إعجابا به، بأن يمليه على الناس في المسجد الجامع «قال ابن حيان: وجمع أبو العلاء

(215) ورد ذكر النوادر في الجذوة وبغية الملتبس والمعجب وإنباه الرواة ومعجم الأدباء والبلغة.

(216) ورد ذكر الأمالي في وفيات الأعيان والوافي بالوفيات والبداية والنهاية وروضات الجنات.

للمنصور محمد بن أبي عامر كتابا سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار. وكان ابتداءه له في ربيع الأول سنة خمس وثمانين، وأكمّله في شهر رمضان من العام، وأثابه عليه، بخمسة آلاف درهم، في دفعة واحدة وأمره أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة» (217).

- وخلافا لما نجده عند ابن حيان، يورد ابن بسام خبرا يفتقر إلى الوضوح الذي يتضمنه خبر ابن حيان، ففي سياق الحديث عن تأليف الفصوص يقول ابن بسام: «... فقال (218): إذا أراد المنصور أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته كتابا أرفع منه (219) قدرا... فأذن له المنصور في ذلك وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم بالفصوص، فلما أكمله وتبعه أدباء الوقت...» (220).

والنص كما ذكرت من قبل، غير واضح الدلالة على علاقة مرحلة التأليف بمرحلة الإملاء، فقوله: «فلما أكمله وتبعه أدباء الوقت»، وورود عبارة «جلس» بعد قوله: «فأذن له المنصور في ذلك»، يوحيان بأن صاعدا ألف الفصوص وهو يمليه بجامع مدينة الزاهرة، ويوهمان أن مرحلة التأليف هي نفسها مرحلة الإملاء. لكن تصريح صاعد بأن الإملاء سيكون على مقيدي خدمة المنصور، وكتاب دولته، يمكن أن يكون دليلا على أن إملاء التأليف كان على كتاب المنصور، وأن إملاء التدريس بالجامع، كان على أدباء الوقت. ويقوي هذا الاحتمال أن الواو في قوله

(217) الصلة لابن بشكوال ص: 237، 238. وورد نفس الخبر عند القفطي مع خلاف

جد يسير.

(218) المقصود صاعد.

(219) المقصود كتاب النوادر للقالبي.

(220) الذخيرة 1-4/15.

«وجلس»، يمكن أن تكون بمعنى «ثم». وإذا نحن استأنسنا بما ورد عند ابن حيان، وعبادة الأدباء في عرض بعض مصنفاتهم على من ألفت لهم من الحكام، قبل إذاعتها، أمكن الاطمئنان إلى أن ابن بسام يقصد بقوله: «فلما أكمله وتتبعه أدباء الوقت...» إكمال إملاء الفصوص في المرحلة الثانية أي مرحلة ما بعد إملاء التأليف الذي كان خاصا بالحاجب المنصور.

ب) روايات الفصوص: يبدو من خلال المعلومات التي تقدمها المصادر القديمة، أن عددا من العلماء الذين عاصروا صاعدا وحضروا المجالس التي أُملى فيها فصوصه، كانوا - رغم الصورة المشوهة التي رسمها خصوم صاعد للكتاب - يروونه ويُروونه تلامذتهم. كما يتضح من نفس المعلومات أن هذا الكتاب ظل يُروى حتى عصر الحافظ ابن حجر، إن لم يكن قد روي بعد هذا العصر. ولكثرة المصادر التي تحدثت عن روايات الفصوص - بالقياس إلى قلة المصادر التي تحدثت عن إملائه، نرتب هذه المصادر (221) حسب أهميتها، مراعين وفرة المعلومات التي تقدمها، ثم قَدَمَ المصدر عند تكافؤ المعلومات:

- المقتبس لابن حيان: تعتبر الأخبار التي نقلها ابن حيان عن رواية الفصوص جد هامة، لعلاقة التلمذة التي ربطته بصاعد، ولكشفها بطريقة غير مباشرة عن الطرق التي سلكها تلامذة صاعد في رواية الفصوص. فابن حيان يورد في مقتبسه ما نفهم منه أنه سمع كتاب الفصوص يملأ على الأدباء أو على التلاميذ في مجالس كان هو نفسه يحضرها: «قال حيان: أقول قد أنشدنا أبو

(221) رغم تعدد المصادر التي نقلت بعض ما روي عن صاعد من روايات وردت في كتاب الفصوص، لم تنص بعض هذه المصادر على ورود الرواية في هذا الكتاب. لذا اقتصرنا في هذا الترتيب النقدي على المصادر التي ذكرت كتاب الفصوص صراحة.

العلاء صاعد بن الحسن اللغوي في كتابه المعروف بالفصوص في معنى قول هذا الأعرابي...» (222). وإذا كان هذا النص يفيد أن ابن حيان أخذ الفصوص عن صاعد وهو يمليه في مجالسه العامة، فإن خبراً آخر يورده ابن حيان نفسه، يفيد أن صاحب المقتبس قوى روايته الأولى للفصوص بقراءته الكتاب على شيخه صاعد بمنزله منفرداً، سنة 399هـ: «قال ابن حيان: وقرأته عليه منفرداً في داره سنة تسع وتسعين وثلاثمائة» (223). وفي جمع ابن حيان هذا، بين رواية السماع من الشيخ، ورواية القراءة عليه ما يفيد أن التجريح الذي تعرض له صاعد وفصوصه بعد إملائه الكتاب في المجالس التي كان يجلسها بجامع الزاهرة، لم يمنع التلاميذ الذين فطنوا إلى سر هذا التجريح المفتعل، من أن يلزموا صاعداً لرواية الفصوص عنه منفردين.

- فهرسة ابن خير: يكتسي هذا المصدر أهميته أولاً، من كونه يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الذين لم يصدقوا ما وصف به خصوم صاعد كتاب الفصوص، كانوا يجدون في الرواية المنفردة عنه أو عن تلامذته، ما يعوضهم عن مجالس الإملاء العامة، فابن حيان الذي قرأ الفصوص على صاعد منفرداً، يُروّيه تلميذه ابن عتاب منفرداً، ليُروّيه ابن عتاب هذا، بعد ذلك تلميذه ابن خير منفرداً، كما يتضح من قول ابن خير متحدثاً عن كتاب الفصوص: «حدثني به الشيخ أبو محمد بن عتاب رحمه الله، قال: أخبرني به الشيخ المؤرخ صاحب الشرطة أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، وكتب لي بذلك بخطه عن أبي العلاء صاعد مؤلفه، رحمه الله» (224). ويكتسي المصدر أهميته - ثانياً - من دلالته على كون ابن

(222) المقتبس 14/3.

(223) الصلة ص: 238.

(224) فهرسة ابن خير ص: 326.

حيان الذي أحكم رواية الفصوص بجمعه بين رواية السماع في مجلس الإملاء، ورواية العرض على الشيخ بمنزله، قد قصد - لإعجابه بالفصوص - إلى جعل تلميذه ابن عتاب يحكم رواية الفصوص، وذلك بتأديته الفصوص عن طريقين (225): طريق التحديث مشافهة، وطريق المناولة الخطية، وذلك ليتمكن التلميذ من سلاحين يضمنان له التأدية الأمينة للفصوص، سلاح السماع الذي يجنبه زلل التحريف، وسلاح المناولة الذي يجنبه زلل النسيان.

- فهرس ابن عطية: تعود أهمية هذا المصدر إلى كونه أيضا يجعلنا نطمئن إلى ما ذهبنا إليه من أن ابن حيان كان يقصد إلى جعل التلميذ الذي يروي عنه كتاب الفصوص، محكما لرواية الكتاب وقادرا على نقله نقل رواية ودراية. فابن عطية يشير عند الحديث عن عبد الرحمن بن محمد بن عتاب المذكور سابقا، إلى أن ابن حيان أجازته في كتاب الفصوص لصاعد (226). والإجازة التي يتحدث عنها ابن عطية هنا، ليست إجازة المكاتبة التي تمكن التلميذ من أن يروي عن الشيخ دون أن يكون قد لقيه أو سمع منه، وإنما هي إجازة الاختبار التي تجعل الشيخ يطمئن إلى أن تلميذه قد حفظ ووعى ما سمعه منه تمام الحفظ والوعي (227). وبإضافة الإجازة إلى السماع والقراءة المنفردة، تصبح الطرق التي حمل بها الفصوص وأدى، ثلاثا.

- معجم أصحاب أبي علي الصدفي لابن الأبار القضاعي: يكتسب هذا المصدر أهميته، من حيث النظر إلى المعلومات التي يقدمها عن روايات الفصوص، من إشارته شبه الصريحة إلى أن الفصوص كان يؤدي بأكثر من إسناد واحد. ودلالته على أن

(225) إلا أن يكون قد قصد بأخبرني، أخبرني به عن طريق المناولة.

(226) فهرس ابن عطية ص: 81.

(227) انظر في معنى هذه الإجازة ما قاله ابن خير عن ابن عتاب: الفهرسة ص: 15، 16.

التلاميذ لم يكونوا يكتفون بتحمل الفصوص عن شيخ واحد، رغبة في توثيق روايته عن طريق المقابلة بين ما أخذ وروي عن أكثر من شيخ. ففي سياق الحديث عن ابن العريف الصنهاجي يقول المؤلف: «روى كتاب الفصوص لصاعد، عن أبي محمد الركلي عن أبي مروان بن حيان عنه، ويرويه أيضا عن أبي القاسم بن النخاس عن أبي مروان بن سراج عن ابن حيان، سمعه عليه مع ابنه عمر بن حيان، بقراءة مهاجر بن محمد بن حزم في شعبان سنة 444هـ عن صاعد» (228).

ويكتسي نفس المصدر أهمية ثانية تتجلى في إشارته إلى طريق رابع اعتمد في رواية الفصوص تأدية وتحملا، أقصد طريق العرض والقراءة على الشيخ بحضور السامعين خلافا للقراءة المنفردة التي أشار إليها ابن حيان: «... سمعه عليه مع ابنه عمر بن حيان بقراءة مهاجر بن حزم...» (229). وفي هذه الإشارة إلى القراءة بحضور الجماعة ما يفيد أن مجالس إملاء الفصوص كانت ما تزال تعقد.

- لسان الميزان لابن حجر: رغم تأخر هذا المصدر المشرقي عما تقدم، تبدو المعلومات التي يقدمها عن روايات الفصوص هامة، لمعرفة الحافظ ابن حجر بالكتاب معرفة دراية تعود إلى مطالعته له مطالعة نقد وتمحيص، ولإشارته إلى رواية أخرى للفصوص لم تتقدم - حسب ما توصلت إليه - الإشارة إليها في المصادر التي تحدثت عن رواية الفصوص، وأقصد بذلك رواية أبي محمد بن حزم تلميذ صاعد، التي قرنها ابن حجر برواية ابن حيان وروايات أخرى لم يذكر أصحابها: «وروى عنه من القدماء أبو محمد بن حزم وأبو مروان بن حيان وغيرهما» (230).

(228) معجم أصحاب علي الصديقي ص: 16.

(229) معجم أصحاب علي الصديقي ص: 16.

(230) لسان الميزان 163/3.

- الصلة لابن بشكوال: وما ورد فيها عن إجازة ابن حيان لأبي محمد عبد الرحمان بن عتاب في الفصوص (231)، يؤكد ما ورد في فهرس ابن عطية عن نفس الإجازة.

- الغنية للقاضي عياض: وترد فيها الإشارة إلى أن ابن عتاب قد أجاز القاضي عياضاً في كتاب الفصوص (232).

- وفيات الأعيان لابن خلكان: ويعيد الإشارة إلى أن ابن حيان أخذ عن صاعد كتابه المسمى بالفصوص.

(3) مصادر تهاجم الفصوص أو تدافع عنه، «القيمة العلمية للفصوص»: كان من آثار تهمة الكذب التي وصف بها صاعد وفصوصه، أن اختلفت مواقف الأدباء من كتابه. وحملت المصادر مظاهر هذه المواقف المختلفة من الفصوص، فمال بعضها إلى نقل ما يمكن حمله على أنه تقليل من شأن الكتاب، بينما تضمنت مصادر أخرى ما يعتبر دفاعاً عن هذا المصنف الذي تحدى به صاعد أبا علي القالي وتلامذته. ولاختلاف هذه المواقف من حيث حدة المهاجمة أو منطق الدفاع، نرتب هذه المصادر الترتيب الآتي: أ) مصادر تنقل ما يمكن اعتباره مهاجمة شبه صريحة للكتاب: رغم شهرة تهمة الكذب التي اتهم بها صاعد، لا تبدو المصادر التي تهاجم أو تنقل ما يجوز حمله على أنه مهاجمة، كثيرة. وما عثرت عليه لا يتجاوز المصدرين الآتيين:

- كتاب في الرد على صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي في مناكير كتاب النوادر والغريب المسمى بالفصوص لأبي عثمان سعيد بن عثمان المعروف بابن القزاز (233)، الذي كان من أجل أصحاب أبي علي القالي. وإذا كان ابن بشكوال قد ذكر أن ابن

(231) الصلة ص: 348، 349.

(232) الغنية ص: 224.

(233) الصلة ص: 209، 210.

القزاز هذا قد أكثر التحامل في كتابه على أبي العلاء صاعد، فإن في تلمذته وإخلاصه لشيخه القالي ما يفسر هذا التحامل.

- نفح الطيب للمقري: وينقل فيه المؤلف بالمعنى كلاما ينسبه كله إلى ابن بسام - رغم أن ابن بسام نقل بعضه عن ابن حيان - دون أن ينقل كل الكلام الذي ضعف به ابن بسام الخبر القادح في صاعد وفصوصه وكشف من خلاله عن موقفه الخاص من الفصوص، وإن كان قد نقل بعضا من هذا الكلام، فإنه لا يحمل الدلالة المعدلة التي تضمنها القسم غير المنقول: «ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد... قال ابن بسام: ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر عزم المنصور على أن يقفي به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية، فما وجد عنده ما يرتضيه وأعرض عنه أهل العلم وقدحوا في علمه وعقله ودينه ولم يأخذوا عنه شيئا لقلة الثقة به، وكان ألف كتابا سماه كتاب الفصوص فدحضوه ورفضوه ونبذوه في النهر» (234). ورغم نقل المقري لهذا الخبر القادح في الفصوص، لا يظهر من كلامه وإشارته إلى الفصوص، أنه كان يتجاوز النقل إلى تبني هذا القدح، خلافا للموقف الرافض الذي وجدناه عند ابن القزاز.

(ب) مصادر تنقل خبر تغريق الفصوص: وهو الخبر الذي يفيد أن المنصور بن أبي عامر أمر بتغريق كتاب الفصوص، وإلقائه في نهر قرطبة لما تبين له بعد الاختبار أن كل ما أتى به كان كذبا وتمويها.

وقد وردت أولى الإشارات إلى أمر المنصور بتغريق الفصوص - في المصادر التي وصلتنا - عند ابن بسام الذي يقول متحدثا عن صاعد: «... فقال له المنصور: أبعد الله مثلك، فما رأيت الذي

(234) نفح الطيب 4/75 76.

هو أكذب منك. وأمر بإخراجه وأن يقذف بكتاب الفصوص في
النهر. وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر (سريع):
قد غاص في البحر كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقل يغوص
فجاوبه صاعد بقوله (سريع):

عاد إلى معدنه إنما
توجد في قعر البحار الفصوص» (235)

ورغم شهرة هذين البيتين والقصة التي ارتبطت بهما، لا نجد
في المصادر الأندلسية (236) التي اهتمت بالترجمة لصاعد أثرا لخبر
التغريق؛ وخلافا لذلك، نلاحظ أن هذا الخبر يرد في بعض
المصادر المشرقية التي تعتبر بعيدة زمانا ومكانا
عن عصر صاعد وبيئته الأندلسية. ومن هذه المصادر
أذكر:

- وفيات الأعيان: وينقل فيه ابن خلكان نفس الخبر الذي نقله
ابن بسام مع بعض الخلاف في الرواية: «ولما ظهر للمنصور
كذبه في النقل وعدم تثبته، رمى كتاب الفصوص في النهر، لأنه
قليل له: جميع ما فيه لا صحة له. فعمل فيه بعض شعراء عصره
(سريع):

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقل يغوص
فلما سمع صاعد هذا البيت أنشد (سريع):
عاد إلى عنصره إنها
تخرج من قعر البحور الفصوص» (237)

(235) الذخيرة - القسم الرابع - 16/1.

(236) أقصد المصادر التي استطعت الوصول إليها.

(237) وفيات الأعيان 182/2.

ولعل عبارة «لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له» التي صاغها ابن خلكان، تدل على عدم اقتناع المؤلف بهذه التهمة القادحة في الفصوص (238).

- الوافي بالوفيات: وينقل الصفدي فيه نفس الخبر (239) الذي ورد في وفيات الأعيان مع خلاف جد يسير.

- كشف الظنون: ويكتفي فيه حاجي خليفة بنقل نفس الخبر (240) الذي ورد في الوفيات والوافي، مع تصرف يسير.

- نفح الطيب: لتأخر زمن تأليف هذا الكتاب عن آخر عصور التاريخ العربي بالأندلس، ولارتباط التأليف نفسه بالمشرق، نعتبر هذا المصدر أقرب إلى المصادر المشرقية منه إلى الأندلسية. وقد اكتفى المقرئ فيه بنقل الخبر الذي ورد في الذخيرة مع تصرف يسير (241).

- شذرات الذهب: ويكتفي فيه ابن العماد بنقل الخبر (242) الوارد في وفيات الأعيان.

- روضات الجنات: حيث ينقل الخوانساري (243) نفس ما ورد عند ابن خلكان.

ج) مصادر تجرح صاعداً، أو تنقل خبر تجريحه، دون التعرض للفصوص:

إن في سكوت هذه المصادر عن الفصوص - رغم قدحها في صاعد - ما يجعل الكتاب في منأى عن التهمة. ويبدو أن هذه

(238) وقد نقل ابن خلكان من الفصوص أكثر من خبر.

(239) الوافي بالوفيات 16/227.

(240) كشف الظنون 2/1621.

(241) نفح الطيب 4/78.

(242) شذرات الذهب 3/207.

(243) روضات الجنات 4/131.

التهمة التي ترددها هذه المصادر ليست إلا نقلا لما ورد في المصدر الأول. وأذكر من هذه المصادر:

- الصلة: وفيها يبدو جليا أن ابن بشكوال كان مقتنعا بصحة خبر تهمة الكذب التي اتهم بها صاعد، رغم تشكيك ابن بسام قبله في ذلك. ويظهر أن قول ابن بشكوال: «قلت: وكان صاعد هذا يتهم بالكذب وقلة الصدق في ما يورده، عفا الله عنه» (244)، قد أصبح مصدرا لكل الذين ذكروا أن صاعدا كان يتهم بالكذب.

- ميزان الاعتدال، والعبر في خبر من غير، والمغني في الضعفاء: وفي هذه الكتب الثلاثة، يعيد الحافظ الذهبي نقل العبارة (245) التي صرح فيها ابن بشكوال بأن صاعدا كان يتهم بالكذب.

لكن ما يجدر التنبيه إليه هنا، أن وصف الحافظ الذهبي، أحد كبار علماء الحديث، لصاعد بالأديب، والإشارة إلى تصنيفه للكتب وروايته عن القطيعي (246)، يوحيان بأن تهمة الكذب التي وصف بها صاعدا، نقلا عن ابن بشكوال، تنصرف إلى سند ما رواه من حديث نبوي شريف.

- نفح الطيب: وينقل فيه المقرئ (247) قوله ابن بشكوال التي اتهم فيها صاعدا بالكذب وقلة الصدق في ما يورده.
- شذرات الذهب لابن العماد: حيث (248) يكتفي المصنف بنقل ما أورده الحافظ الذهبي في العبر، مع تصرف يسير.

د) مصادر تتضمن ما يفيد أن رفض الأدباء للفصوص ليس موقفا من الكتاب نفسه: وهي المصادر التي أشارت بصراحة إلى

(244) الصلة ص: 238.

(245) ميزان الاعتدال 2/ 287 - والعبر 3/ 124 - والمغني 1/ 302.

(246) العبر في خبر من غير 3/ 124.

(247) نفح الطيب 4/ 96.

(248) شذرات الذهب 3/ 206.

أن تهمة الكذب أو كثرة المزاح اللتين وصف بهما صاعد، كانتا السبب في رفض الناس لكتابه. وهي إشارات تؤكد أن رفض بعض الأدباء للفصوص، قد نتج عن حكم قبلي، ارتبط بالصورة المشوهة التي رسمها أدباء جد متشددين، لأديب مشرقي كان يخلط الجد بالهزل، في بعض المجالس، ليتخلص من المكاييد التي يكيدها له خصومه، وهو يعلم أن ذلك سيحمل على الكذب. ومن هذه المصادر:

- وفيات الأعيان: حيث يبدو من خلال ما أورده فيه ابن خلكان، نقلا من الفصوص، أن المؤلف كان مطمئنا إلى صحة ما ورد في كتاب صاعد، رافضا للقدح الذي وجه إليه، وقد بدا هذا الرفض في صياغة عبارته: «لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له» (249)، عند إيراده خبر التغريق. لذا نجده يُرجع رفض الناس لكتاب الفصوص، إلى ما اتهم به المؤلف من كذب: «وجمع له (250)، كتاب الفصوص، نحا فيه منحى القالي في أماليه.... وكان يتهم بالكذب في نقله، فلهذا رفض الناس كتابه» (251).

- الوافي بالوفيات: ويعيد فيه الصفدي نقل نفس (252) ما ورد في وفيات الأعيان.

- البداية والنهاية: يعترف ابن كثير لصاعد بأنه كان فصيحاً بليغاً عالماً، لكنه لا ينفي عنه تهمة الكذب. وإلى هذه التهمة يعزو رفض الناس لكتابه الفصوص: «لكنه كان مع فصاحته وبلاغته وعلمه متهما بالكذب، فلهذا رفض الناس كتابه ولم يشتهر» (253).

249) وفيات الأعيان 2/ 182.

250) المقصود الحاجب المنصور.

251) وفيات الأعيان 2/ 181.

252) الوافي بالوفيات 16/ 227.

253) البداية والنهاية 12/ 21.

- لسان الميزان لابن حجر: رغم صرامة هذا الحافظ المتخصص في علوم الحديث، ووصفه لبعض ما أتى به صاعد بالمناكير والمجازفات (254)، لا يتخرج من أن يجعل صاعدا من رواية الحديث النبوي - وإن كان قد اتهم في اللغة -، ويرجع ما اتهم به إلى أنه كان يكتب من حفظه ويتساهل: «صاعد بن الحسن الربيعي أبو العلاء الأديب... وهو من الرواة للحديث النبوي، وإنما اتهم في اللغة. وقد طالعت كتاب الفصوص له... وأحسن أمره عندي، أنه كان يكتب من حفظه ويتساهل» (255).

(هـ) مصادر تدافع عن الفصوص ضمينا من خلال دفاعها عن صاعد: وهي المصادر التي فصلت بين علم صاعد وما عرف عنه من ميل إلى المزاح، والجواب السريع والخلاعة، معترفة له بفضيلة العلم. وهذه المصادر هي:

- جذوة المقتبس: حيث يشير الحميدي، تلميذ ابن حزم الذي تلمذ لصاعد، إلى أن صاعدا هذا، كان سريع الجواب، يبادر إلى شرح ألفاظ موضوعة يضعها خصومه لفضح كذبه. إلا أن الحميدي يحمل هذا التسرع، على ميل صاحب الفصوص إلى المزاح: «وكان أبو العلاء كثيرا ما تُستغرب له الألفاظ، ويُسأل عنها، فيجيب فيها بأسرع جواب، على نحو ما يُحكى عن أبي عمر الزاهد. ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزاح لما حُمِلَ إلا على التصديق. وقد ظهر صدقه في بعض ما قال: (256).

وبعد نقل خبر حادثة القوالب والزوالب، و«التمركل» لتصوير سرعة جوابه، يعود إلى تأكيد ما وصفه به في أول الترجمة من رسوخ في العلم: «... وله من هذا كثير، ولكنه كان عالما» (257).

254) لسان الميزان 3/ 162.

255) لسان الميزان 3/ 163.

256) جذوة المقتبس ص: 224.

257) جذوة المقتبس ص: 225.

- بغية الملتمس: ويعيد فيه الضبي نقل نفس (258) ما قاله الحميدي في الجذوة، عن رسوخ علم صاعد وكثرة مزاحه.
 - المعجب: ويكرر فيه المراكشي القول بأن كثرة مزحه هي التي حالت دون حمل كلامه على الصدق، رغم ظهور صدقه في بعض ما قال. ثم يعيد - بعد إيراد ما حكي عن سرعة جوابه - قولة الحميدي: «وله من هذا كثير، ولكنه مع هذا كان عالماً» (259).
 - إنباه الرواة: ويؤكد فيه القفطي رسوخ قدم صاعد في العلم، من خلال إشارته إلى أن اختبار الكتب المطولة في اللغة وغيرها، قد كشف عن حقيقة ما اتهم فيه: «ولولا مزحه وكثرة ما كان يأتي به في تصانيفه ما كان إلا عالماً، وقد اختبرت الكتب المطولة في اللغة، فوجد فيها حقيقة ما اتهم فيه، وكان صاعد غير صاعد في النحو مقصراً، وباللغة قيماً، وله يد طولى في استنباط معاني الشعر» (260).

- البلغة في تاريخ أئمة اللغة: وقد ترجم فيه الفيروز آبادي لصاعد، باعتباره إماماً من أئمة اللغة، ثم فسر عزوف الناس عن علمه، بنفورهم من خلاعته: «وكان خليعاً مولعاً بالشراب واللعب، فلم يؤخذ عنه العلم» (261).

- بغية الوعاة: حيث ينقل السيوطي عن ابن مكتوم، وصفه لصاعد بكل الصفات التي يوصف بها العالم الراسخ في العلم، وإشارته إلى السبب الخلفي الذي جعل أهل الأدب لا يثقون بنقله ولا يستكثرون منه: «وقال ابن مكتوم: كان مقدماً في علم اللغة ومعرفة العويص، وكان أحضر الناس شاهداً وأرواهم لكلمة غريبة،

(258) بغية الملتمس ص: 321.

(259) المعجب ص: 35.

(260) إنباه الرواة 88/2.

(261) البلغة ص: 98.

وإنما حطه عند أهل الأدب ما غلب عليه من حب الشراب والبطالة وإيثار الفكاهة، فلم يثقوا بنقله ولا استكثروا منه» (262).

- نفح الطيب: حيث يشير المقرئ إلى قوة بدهاة صاعد في ادعاء الباطل، ثم يعقب بعد إيراد خبر حادثة الخنبشار والتمركل، بما يفيد الاعتراف له بفضيلة العلم: «وكان شديد البديهة في ادعاء الباطل... وكان مع ذلك عالما» (263).

- روضات الجنات: ويكتفي الخوانساري فيه (264)، عند ترجمته لصاعد، بنقل نفس ما نقله السيوطي عن ابن مكتوم.

و) مصادر تدافع ضمنيا عن الفصوص، من خلال تجاهلها خبر التغريق: وهي المصادر التي أنكرت خبر حادثة التغريق التي أمر فيها المنصور بإلقاء كتاب الفصوص في النهر، وذلك بإيرادها خبرا آخر يفيد أن هذا الكتاب غرق في نهر قرطبة عندما سقط الغلام الذي كان يحمله في النهر. ويبدو هذا الخبر الثاني. - بالقياس إلى خبر التغريق - مقبولا لانسجامه مع خبر الحظوة التي ظل صاعد يحظى بها عند المنصور وولي عهده المظفر بعد تأليف الفصوص. وإذا نحن استثنينا البيت الذي نسب في بعض المصادر إلى ابن العريف والبيت الذي أجابه به صاعد، يظل خبر التغريق وخبر الغرق متعارضين كل التعارض. وبسكوت هذه المصادر عن خبر التغريق الذي يبدو متعارضا وخبر الحظوة التي نالها صاعد في بلاط ابن أبي عامر، وإيرادها خبر الغرق، تكون قد تبنت موقف الدفاع الضمني عن القيمة العلمية لكتاب الفصوص، وهذه المصادر هي:

(262) بغية الوعاة 7/2.

(263) نفح الطيب 81/4.

(264) روضات الجنات 131/4.

- المعجب للمراكشي: لعل هذا الكتاب أول مصدر يشير إلى أن كتاب الفصوص غرق عندما سقط الغلام الذي كان يحمله في نهر قرطبة: «وَأَلَفَ لَهُ (265) أَبُو الْعَلَاءِ هَذَا كِتَابًا، فَمِنْهَا كِتَابُ سَمَاءِ كِتَابِ الْفُصُوصِ عَلَى نَحْوِ كِتَابِ الْنَوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ الْقَالِي، وَاتَّفَقَ لِهَذَا الْكِتَابِ مِنْ عَجَائِبِ الْإِتِّفَاقِ، أَنْ أَبَا الْعَلَاءِ دَفَعَهُ حِينَ كَمَلَ لِغُلَامٍ لَهُ يَحْمِلُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَبَرَ النَّهْرَ، نَهْرَ قَرْطَبَةَ، فَخَانَتْ الْغُلَامَ رِجْلُهُ فَسَقَطَ فِي النَّهْرِ هُوَ وَالْكِتَابُ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ - وَهُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْعَرِيفِ - بَيْتًا مَطْبُوعًا بِحُضْرَةِ الْمَنْصُورِ، وَهُوَ (سَرِيع):

قد غاص في البحر كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقیل يغوص
فضحك المنصور والحاضرون. فلم يرع ذلك صاعدا ولا هاله،
وقال مرتجلا مجيبا لابن العريف (سريع):
عاد إلى معدنه إنما

توجد في قعر البحار الفصوص» (266)
- معجم الأدباء: وينقل فيه الحموي (267)، مع بعض التصرف، نفس الخبر الذي أورده المراكشي في المعجب.
- البلغة: ويعيد فيه (268) الفيروز آبادي، نقل الخبر الذي ورد في المعجب، مع تصرف واضح: «وَأَلَفَ لَهُ كِتَابُ الْفُصُوصِ... وَلَمَّا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ أَعْطَاهُ غُلَامًا لَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ الْعَبُورَ فِي النَّهْرِ زَلِقَ الْغُلَامُ، فَوَقَعَ الْكِتَابُ فِي النَّهْرِ، فَأَنْشَدَ أَبُو الْقَاسِمِ ابْنَ الْعَرِيفِ:
قد غاص... فضحك الحاضرون، فقال صاعد...» (269).

(265) المعجب ص: 31، 32.

(266) المعجب ص: 31، 32.

(267) معجم الأدباء 1/ 283، 284.

(268) البلغة ص: 98.

(269) البلغة ص: 98.

(ز) ما يتضمن دفاعا صريحا عن القيمة العلمية للفصوص: ورد هذا الدفاع الصريح عن الفصوص، في مصدر واحد هو الذخيرة. فابن بسام الأديب الأندلسي الذي عاش في زمن قريب نسبيا من عصر صاعد، وقرأ الفصوص قراءة ناقد، وجد نفسه — رغم الأخبار التي نقلها نقل رواية — ملزما بالتشكيك في صحة الأخبار المضعفة للفصوص، التي يعارض مضمونها ما يتضمنه هذا الكتاب من علم غزير وافر. ولم يتحرج ابن بسام وهو يدافع عن القيمة العلمية للفصوص، من أن يصرح بما يعتبر طعنا غير مباشر في سعة معارف معاصري صاعد من الأندلسيين. فبعد إيراد خبر حادثة تغريق الفصوص، يقول ابن بسام: «وما أحسب أن أحدا يجترئ على إخراج تصنيف وإبداء تأليف، يضيق عنه التعديل، ويدفع في صدره النقد والتحصيل، لا سيما وصاعد علم أن قرطبة حسب ما ذكرنا، ميدان جياذ وبلد جدال وجلال، ولكنه اشترط غير المشهور، فلم يظفروا منه بكثير، وأعانهم هو على نفسه بما كان ينفق به من تنحله وكذبه. ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير(270) ولا بصر بالنقد مشهور، وإلا فليس يخلو كتاب الفصوص المذكور من غريبة مسموعة ولا من فائدة رائقة بديعة، ولكنه خبر وجدناه فنقلناه»(271)، والعبارة الأخيرة، تدل دلالة واضحة على أن ابن بسام كان يعلم أن قيمة الفصوص العلمية، كانت مختلفة عن الصورة المشوهة التي رسمها خصوم صاعد الكتاب.

بعد هذا الترتيب للمصادر التي تضمنت ما يحمل على أنه قدح في الفصوص أو دفاع عنه، نلاحظ أن المصادر التي هاجمت الفصوص أو نقلت خبر التغريق، أو اتهمت صاعدا بالكذب، تبدو

(270) قد تكون العبارة تصحيفا لـ: «تحرير ولا بصير بالنقد مشهور».

(271) الذخيرة 4-16.

قليلة بالقياس إلى وفرة المصادر التي دافعت دفاعاً ضمناً أو صريحاً عن صاعد وفصوصه، وهي مقارنة تفيد أن معظم المؤرخين كانوا يحملون ما حكى عن صاعد وفصوصه من حكايات على كونها أخباراً ونوادر للتسلية والتسلي.

(4) مصادر يشير مؤلفوها إلى الفصوص إشارة معرفة وإطلاع: وهي المصادر التي كان أصحابها يعرفون ما ورد في الفصوص معرفة جيدة، عن طريق الرواية أو المطالعة. ومن هذه المصادر: أ) المقتبس لابن حيان، تلميذ صاعد الذي كان قد أخذ عنه وروى عنه الفصوص عن طريق السماع والقراءة المنفردة.

ب) جذوة المقتبس للحميدي الذي يبدو أنه كان أول من أشار إلى أن الفصوص ألف على نحو كتاب النوادر للقالبي (272). ويظهر أن معرفة الحميدي بالفصوص تعود إلى قرب زمنه من عصر صاعد، وإلى تلمذته للعالم المشارك، أبي محمد بن حزم، الذي كان كما ذكر ابن حجر (273) من بين الذين رووا عن صاعد.

ج) الذخيرة: وقد اتضح فيه، من خلال دفاع ابن بسام عن القيمة العلمية لكتاب الفصوص، أنه كان يعرف هذا الكتاب معرفة قارئ وناقد (274).

د) فهرسة ابن خير، الذي وصف الفصوص بأنه كتاب في اللغات والأخبار. وتعود معرفة ابن خير بالفصوص إلى روايته له عن شيخه ابن عتاب، الذي رواه عن ابن حيان، عن صاعد مؤلفه (275).

(272) الجذوة ص: 223.

(273) لسان الميزان 3/ 163.

(274) الذخيرة 4- 16/ 1.

(275) فهرسة ابن خير ص: 326.

هـ) وفيات الأعيان: وقد تبين فيه من خلال النقول التي نقلها ابن خلكان من الفصوص، أنه كان يعرف كتاب صاعد معرفة من قرأه وطالعه (276).

و) لسان الميزان: وقد صرح فيه الحافظ ابن حجر بأنه قد قرأ كتاب الفصوص قراءة مستفيد: «... وقد طالعت كتاب الفصوص له، فذكر في أوائله...» (277). وتؤكد النقول المطولة التي نقلها ابن حجر من الفصوص في لسان الميزان، أنه جمع في قراءته لمؤلف صاعد، بين قراءة الاستفادة، وقراءة العالم المحدث الناقد للسند والمتن (278).

ز) روضة الأعلام: حيث ينقل ابن الأزرق عن صاعد عدة أخبار (279) وردت في مواضع متفرقة من الفصوص.

5) مصادر تصف الفصوص وصفا منقولاً: وهي المصادر التي اكتفت في وصفها لمؤلف صاعد، بنقل ما ورد في المصادر السابقة، ولا نستبعد أن يكون بعض مؤلفي هذه المصادر قد قرأوا الفصوص، إلا أن العبارة التي يشار فيها إلى خبر تأليف هذا الكتاب، في هذه المصادر، مكررة تكرار نقل. وهذه المصادر هي الصلة، وبغية الملتمس، والمعجب، وإنباه الرواة، ومعجم الأدباء، والوافي بالوفيات، والبلغة، وكشف الظنون، ونفح الطيب، وشذرات الذهب.

6) مصدر يصف الفصوص عن غير معرفة به: وأقصد كتاب البداية والنهاية لابن كثير، فالمؤلف يذكر في هذا الكتاب أن صاعداً سمي الفصوص بهذا الاسم ليشاكل به الصحاح: «قلت كأنه سمي

(276) وفيات الأعيان: 223/1، 226، 109/2، 110.

(277) لسان الميزان 160/3.

(278) لسان الميزان 160/3، 163.

(279) روضة الأعلام ص: 27، 410، 488.

هذا الكتاب بهذا الاسم ليشاكل به الصحاح للجوهري» (280).

وفي هذه المقارنة بين كتاب الفصوص ومعجم الصحاح، ما يفيد أن ابن كثير لم يكن يعرف من كتاب الفصوص إلا الاسم.

V - مراجع حديثة :

رغم كثرة المراجع الحديثة التي ترجمت لصاعد أو أشارت إلى تأليفه الفصوص، لا نجد في هذه المصادر ما يمكن أن يعد إضاءة لبعض الغموض الذي يشوب الأخبار المتعلقة بصاعد وفصوصه في المصادر القديمة. ولعل ذلك يعود إلى أن هذه الترجمات أو الإشارات المقتضبة إلى الفصوص، قد كتبت في غياب بعض المصادر، وغياب كتاب الفصوص نفسه. ومن بين ما كتب عن صاعد وفصوصه حديثاً، تكتسي أربع مراجع أهمية خاصة، لسبق أولها إلى ذكر مخطوطة الفصوص، وسبق ثانيها إلى محاولة كتابة ترجمة مطولة لصاعد وحياته العلمية منذ رحيله إلى الأندلس إلى أن توفي بصقلية، ولاطلاع صاحبي المرجع الثالث والرابع، على بعض ورقات مخطوطة الفصوص.

(1) تذكرة النوادر من المخطوطات: يشير الندوي في هذا الكتاب، بعد نقل وصف مقتضب للفصوص، إلى وجود نسخة من كتاب صاعد في جامع القرويين: «قلت: كتاب جيد في الأدب، نسخة نادرة في مكتبة جامع القرويين بفاس» (281).

(2) الدراسة (282) التي أنجزها «بلاشير» عن صاعد البغدادي: رغم قدم تاريخ نشر هذه المقالة، بالقياس إلى كثير من المراجع

(280) البداية والنهاية 21/12.

(281) تذكرة النوادر: ص: 129، 130.

(282) Un pionnier de la culture arabe: SAID DE BAGHDAD

وقد نشرت سنة 1930 بمجلة هيسبيريس: TOME X. FASS. I

الحديث التي تحدثت عن صاعد، تظل هذه السيرة الممزوجة بكثير من اللمحات النقدية أهم ما كتب عن صاعد حديثاً، وإن كانت كثير من التصورات الافتراضية التي أتى بها «بلاشير» تتعارض وما كشفت عنه بعض المصادر التي لم يطلع عليها. وقد اعترف بلاشير، الذي كان يعتقد أن كتاب الفصوص فقد (283)، بأن ضياع هذا الكتاب، قد حجب عنه وعن غيره من الدارسين، حقائق كانت ستذهب بما تعلق بسمعة الفصوص العلمية من غموض. ولعل وضع بلاشير لصاعد في سياقه التاريخي المتمثل في تفاعل الثقافتين المشرقية والأندلسية، كان من الأسباب التي جعلته ينجح في رسم بعض جوانب الشخصية العلمية لهذا الأديب المشرقي، وإن كانت بعض تصوراته تحتاج إلى تصويب.

(3) مقدمة تحقيق كتاب المقتبس: وتعود أهميتها إلى تضمنها ما يفيد أن المحقق (284) اطلع اطلاعاً لا نعرف نوعه (285) على مخطوطة الفصوص، وإلى دعوته إلى نشر الكتاب للتعريف بذخائره العلمية: «وقد كان من حظي أن اطلعت على هذه المخطوطة (286)، في رحلة إلى المغرب ما بين 14 و30 يولييه سنة 1961، من أجل البحث عن بعض المخطوطات الأندلسية الجديدة... والحقيقة أن الكتاب على الرغم من كل ما اتهم به صاعد ذخيرة بالغة القيمة، ويستحق أن تتضافر الجهود على نشره» (287). وأياً كانت طبيعة اطلاع د. مكي

Un pionnier de la culture arabe. SAID DE BAGHDAD (283)

وقد نشرت سنة 1930 بمجلة هيسبيريس Tome X. Fass: 1. p. 24

(284) محمود علي مكي.

(285) لم أستطع الاطلاع على ما كتبه المحقق عن كتاب الفصوص، في مقالته المنشورة بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد: مجلد 9، 10، سنة 1961، 1962.

(286) يقصد مخطوطة الفصوص بالخزانة العامة (النسخة الكتانية).

(287) المقتبس: تحقيق محمود علي مكي (مقدمة التحقيق) ص: 58، هامش 2.

على الفصوص، فإن غزارة مادة الكتاب وتشعب فصوصه، يجعلنا نفترض أن التمثل الذي يسمح به اطلاع باحث محقق يبحث عن نواذر المخطوطات، لن يكون عميقا، إذا ما نحن نظرنا إلى كثرة أوراق المخطوطة، وطبيعة مادتها العلمية، وفرة وتنوعا.

(4) أبو علي القالي وأثره في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس: وتكتسي هذه الدراسة أهميتها بالنسبة للفصوص، من وقوف صاحبها - في القسم الذي خصصه لدراسة أثر كتاب الأملالي في حركة التأليف - على مخطوطة الفصوص في الخزانة العامة، ومحاولته المقارنة بين المادة العلمية للأملالي والمادة العلمية للورقات التي اطلع عليها، وإن كان الدارس قد انساق وراء الأخبار القديمة المتناقلة التي قدحت في الفصوص، متبنيا (288) نفس الموقف المهاجم الذي وقفه بعض علماء الأندلس من صاعد وفصوصه.

نخلص من هذه القراءة المتنوعة في المصادر والمراجع التي تعرضت لصاعد وفصوصه، إلى أن النظر إلى المعلومات التي تنقلها هذه المصادر من زوايا متعددة، قبل الاستعانة بكتاب الفصوص، يمكن الباحث من استثمار هذه المعلومات القليلة، قصد اختراق الحاجز المفتعل الذي جعل من صاعد وفصوصه ثنائيا شبه أسطوري، يقترن في الذهن، حتى عند بعض المتخصصين من الباحثين بحادثة الخنبشار، وقول ابن العريف: قد غاص في النهر كتاب الفصوص.

(288) أبو علي القالي ص: 274. وانظر أيضا ص: 275 حيث يشير الدارس إلى كتاب ابن القزاز في الرد على صاعد في مناكير كتابه المسمى بالفصوص.

- المدخل الثاني -

مشروع سيرة

أولاً : صاعد الإنسان :

تقديم :

قد يكون الحديث عن الهوية، والأصل والنسب، في بعض الدراسات أو المقدمات، نوعاً من التكرار، إذا تعلق الأمر بعلم من الأعلام الذين لا يحتاجون إلى أن يعرف بهم. إلا أن نفس الحديث يصبح ملحاً عندما تقل أخبار الشخصية المعرف بها قلة تجعل الباحثين أنفسهم معرضين لزلة الخلط بينها وبين شخصية تحمل نفس الاسم. (1)

I - الهوية والجذور :

لا تبدو المصادر التي ترجمت لصاعد سمحة، عندما يتعلق الأمر بالمعلومات الخاصة باسمه وأصله ونسبه. ورغم قلة هذه المعلومات عموماً، تبدو بعض هذه المصادر أضن من أخواتها بهذه المعلومات. فالمصادر التي تشير إليه، غالباً ما تكتفي بالإشارة إلى كنيته واسمه، مع تقييد الإشارة أحياناً بذكر الصفة العلمية التي اشتهر بها. ولا تذهب المصادر التي ترجمت له ترجمة مقصودة لذاتها، بعيداً في التعريف به، فأسمح هذه المصادر لا يتجاوز ذكر اسم جده.

(1) انظر نموذجاً لهذا الخلط في دمية القصر 170/1 حيث يخلط المحقق بين صاعد بن عيسى الكاتب الحلبي وصاعد صاحب الفصوص.

وعندما نعود إلى ديباجة كتاب الفصوص نفسه نجد العبارة الآتية: «... قال أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي...» (2) وتقتصر معظم المصادر التي عاصر أصحابها صاعداً أو اتصلوا بمن عاصره، أو نحا مؤلفوها منحىً موثقاً، على إيراد هذه التسمية التي وردت في الفصوص، فصديقه ابن الكتاني (3) وتلميذه ابن حيان، (4) والحميدي (5) تلميذ تلميذه ابن حزم، يكتفون عند الحديث عنه بتعريفه بأبي العلاء صاعد بن الحسن، دون ذكر اسم جده. وعلى هذا التعريف اقتصر الضبي، (6) والمراكشي، (7) والقفطي، (8) والذهبي، (9) وابن حجر، (10) وحاجي خليفة، (11) وابن العماد. (12) وبينما وقفت هذه المصادر السابقة عند اسم أبيه، نلاحظ ورود اسم جده في مصادر أخرى أندلسية ومشرقية، تميز بعضها بغنى المعلومات التي نقلت عن صاعد وبصحتها. وأقدم هذه المصادر التي تشير إلى اسم جده، الذخيرة لابن بسام، حيث عرف المؤلف صاعداً بقوله: «هو صاعد بن الحسن بن عيسى...» (13) وأكد صحة هذا النسب ابن خير الإشبيلي الذي اتصل بصاعد عن طريق روايته الفصوص عن ابن عتاب، عن ابن حيان، عن صاعد. فابن

(2) الفصوص ص: 12.

(3) التشبيهات ص: 100 وغيرها.

(4) المقتبس: 14/3.

(5) جذوة المقتبس ص: 223.

(6) بغية الملتبس ص: 319.

(7) المعجب ص: 30.

(8) إنباه الرواة: 85/2.

(9) ميزان الاعتدال: 287/2.

(10) لسان الميزان: 160/3.

(11) كشف الظنون 1271/2.

(12) شذرات الذهب 206/3.

(13) الذخيرة 8/1/4.

خير يشير عند ذكره كتاب الفصوص إلى أن هذا المصنف من تأليف (أبي العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى...) (14) ووردت هذه الإشارة إلى جده عند ابن بشكوال، وياقوت، وابن خلكان، والصفدي، وابن كثير، والفيروز آبادي، والمقري، والخوانساري.

وخلافا لهذا، ورد اسم الحسين عوض الحسن عند ذكر أبيه في بعض المصادر أو بعض صفحاتها. والراجح أن ذلك تصحيف لكلمة الحسن.

أما كنيته (أبو العلاء) فقد اتفقت كل المصادر التي ترجمت له على إيرادها. ووردت الإشارة إلى نسبه في ربيعة الذي أشار إليه صاعد في الفصوص، في الجذوة، والذخيرة، وفهرسة ابن خير، والصلة، وبغية الملتمس، والمعجب، وإنباه الرواة، ومعجم الأدباء، ووفيات الأعيان، والوافي بالوفيات، وميزان الاعتدال، والبلغة، وشذرات الذهب؛ وانفرد ابن بسام بالنص على أن (الربيعي) نسبة إلى ربيعة الفرس دون باقي الربائع: (هو صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي تربة، والطبري أصلا، والربيعي نسبا، ينتمي في ربيعة الفرس). (15)

وإذا كان كتاب الفصوص قد تضمن الإشارة إلى نسب صاعد دون أصله، فإن الاهتمام بذكر هذا الأصل في المصادر يبدو قليلا، وأول عبارة تضمنت الإشارة إلى أصله، وردت عند الحميدي مقيدة بفعل الظن: (وأظن أصله من ديار الموصل). (16) ورغم كون هذه النسبة إلى ديار الموصل قد قيدت بالظن، مالت المصادر

14) الفهرست 326.

15) الذخيرة 8/1/4.

16) جذوة المقتبس 223.

القليلة التي أعادت ذكر هذا الأصل إلى جعل الخبر قطعياً. فالقفطي مثلاً يقول في ترجمته لصاعد: (17) (صاعد بن الحسن الربيعي اللغوي، أبو العلاء، من بلاد الموصل). ونفس الجزم (18) بأصله الموصلي يرد عند ياقوت والفيروز آبادي والمقري والخوانساري، وهو جزم يفتقر إلى القدم الذي يقويه. فهذه المصادر الخمسة التي جزمت بكون أصله من الموصل تعود إلى زمن متأخر عن تاريخ تأليف كل المصادر السابقة التي ترجمت لصاعد، دون أن تذكر أصله الموصلي. ويضعف هذا الجزم أيضاً أن الحميدي الذي كان أول من ذكر هذا الأصل، لم يصغ العبارة الصياغة التي تجعل مضمونها خبراً مقطوعاً بصحته. ويفوق هذا الخبر ضعفاً، الخبر الذي يذكر فيه ابن الأثير (19) أن صاعداً رحل من الموصل إلى الأندلس.

وخلافاً لما ورد عند الحميدي ومن سايه من المتأخرين من جهة، ولسكوت معظم المصادر عن ذكر هذا الأصل، انفرد ابن بسام بوصفه بالطبري. (20) وإذا كانت هذه الإشارة على غرابتها تفيد انتساب صاعد إلى طبرية دون طبرستان، فإن في ذكر هذا الأصل ما يدفعنا إلى التساؤل عن علاقة اسم صاعد بن الحسن الربيعي صاحب الفصوص، باسم شاعر شامي عاش في نفس الفترة الزمنية، بعد رحيله من الشام إلى بغداد، مادحاً نفس الحكام الذين اتصل بهم صاعد البغدادي؛ هذا الشاعر الشامي الذي سكنت عنه المصادر القديمة هو (صاعد بن الحسن الدمشقي) (21) الذي (قدم بغداد ومدح بها الوزير

(17) إنباه الرواة 2/85.

(18) اكتفى صاحب المعجب بنقل عبارة الحميدي: (أن أصله من ديار الموصل).

(19) الكامل في التاريخ 9/113.

(20) الذخيرة 4/1/8.

(21) الوافي بالوفيات 16/230.

أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وزير عضد الدولة). (22)

ويطرد وصفه بصاعد البغدادي في كثير من المصادر. ولعل هذه النسبة تعود إلى ارتباطه ببغداد قبل رحيله إلى الأندلس. ورغم خلو الفصوص من إضافة هذه النسبة إلى اسمه، وخلوه من ذكر أصله الموصل، درجت معظم المصادر على تعريف صاعد بالبغدادي دون الموصل، لدلالة بغداد على الوسط العلمي الذي منح صاعدا مكانته العلمية في الأندلس، كما منحها أبا علي القالي البغدادي قبله. فتسميته بالبغدادي وردت عند صديقه ابن الكتاني الطبيب، كما وردت عند ابن بسام، وابن خیر، وابن بشكوال، وياقوت، وابن خلکان، وابن عذارى، والصفدي، والفيروز آبادي، والمقري، وابن العماد.

أما الحميدي فقد اكتفى عند ترجمته لصاعد بقوله: (ودخل بغداد). وجمع المراكشي بين إيراد هذه العبارة ووصفه صاعدا بالبغدادي. ورغم إقامته بالأندلس، لم أعثر على نعتة بالأندلسي، حسب ما اطلعت عليه، إلا في مصدر واحد هو نهاية الأرب، حيث يقول النويري وهو يتحدث عن وصف الشعراء للورد: (23) فقال أبو العلاء صاعد الأندلسي...).

نخلص مما تقدم إلى أن اسم (أبي العلاء صاعد بن الحسن الربيعي) هو الاسم الذي كان صاحب الفصوص يعرف به نفسه. وإذا ما نحن استأنسنا بما ورد في بعض المصادر، فإن اسمه الكامل سيكون هو: «أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربيعي البغدادي». أما نسبته إلى الموصل فتبدو غير مشهورة،

(22) الوافي بالوفيات 230/16.

(23) نهاية الأرب 189/11.

بالقياس إلى ما تضمنته مختلف المصادر التي ترجمت له. ورغم ذلك نستأنس بنسبه في ربعة الفرس، لنفترض أنه نشأ في المجال البدوي الذي كانت بعض القبائل العربية تتحرك فيه شمال العراق والجزيرة وشرق الشام، وهو الوسط الذي كانت الموصل عاصمة له.

II - المولد والنشأة :

لم تقدم المصادر أية إشارة تتعلق بتاريخ ميلاده ونشأته. ولم تتعد الأخبار المتعلقة بسنه الإشارة إلى أنه مات عن سن عالية سنة 410هـ أو 417هـ، إلا أن سكوت المصادر عن ذكر تاريخ ميلاده، لا يمنعنا من الاستعانة بإشارة وردت عرضاً في قصيدة له، قصد الوصول إلى معرفة تاريخ تقريبي لميلاده.

فمما نقله صاحب الذخيرة من آثار الكاتب الشاعر أبي حفص بن برد، قصيدة يخاطب بها أبا العلاء صاعد بن الحسن اللغوي⁽²⁴⁾ وفي سياق إيراد هذه القصيدة، أتى ابن بسام بالقصيدة التي أجاب بها صاعد صديقه الوزير أبا حفص بن برد. وكان مما تضمنته هذه القصيدة قول صاعد⁽²⁵⁾ (بسيط):

- 1 — لبيك ألفاً أبا حفصٍ إجابةً مَنْ
يُدلي إليك بوٍٍّ غيرِ مأثوبٍ
- 2 — أبعد خمسٍ وسبعين التحقَّتْ بها
حتى قرعت لهذا الدهر ظُنْبُوبي

فالأبيات تشير إشارة صريحة إلى أن صاعداً حين نظم هذه القصيدة كان قد بلغ الخامسة والسبعين. ووضع هذه السنين بين

(24) الذخيرة 1/1/129.

(25) الذخيرة 1/1/130.

تاريخ وفاة صاعد وتاريخ وفاة ابن برد 414هـ يوصلنا إلى النتيجة التقريبية الآتية:

إذا افترضنا صحة الأخبار التي ذهبت إلى أن صاعدا توفي سنة 410هـ، وافترضنا أن هذه القصيدة قد نظمت سنة وفاته، سيكون تاريخ ميلاده بعد 335هـ. أما إذا افترضنا أنه لم يتوف إلا سنة 417هـ كما ذكر تلميذه ابن حزم، فإن تاريخ ميلاده بالنظر إلى أن وفاة ابن برد كانت سنة 414هـ، لن يكون إلا بعد سنة 339هـ. غير أن المعلومات التي أمدنا بها ابن بسام عن تاريخ خروجه الأول من قرطبة، وإشارته الصريحة إلى أنه عجل بالخروج مرة ثانية من قرطبة متوجها إلى صقلية، في أول خلافة المستعين الثانية، أخبار تساعدنا على الوصول إلى تحديد تاريخ تقريبي لميلاده. فابن بسام يذكر أن صاعدا غادر قرطبة المرة الأولى سنة 403هـ أيام خلافة هشام المؤيد، ويذكر أنه عاد إليها عندما تولى سليمان المستعين الخلافة للمرة الثانية طمعا في كرمه، وأنه غادرها بعد ذلك نهائيا بعد يأسه من كرمه. وخلافة سليمان هذا امتدت من سنة 403هـ إلى أن قتل سنة 407هـ. وإذا كان صاعد قد غادر قرطبة معجلا بالرحيل، فإن خروجه منها سيكون سنة 404 أو بعدها بقليل، وبافتراضنا أن القصيدة التي أجاب بها صاعد أبا حفص بن برد لم تقل قبل سنة 404هـ، نصل إلى أن تاريخ ميلاد صاعد محصور بين 329 و330هـ.

أما إذا افترضنا أن تاريخ وفاته هو 417، كما أوردت ذلك بعض المصادر، فإن تاريخ ميلاده قياسا إلى تاريخ وفاة ابن برد سيكون سنة 339هـ أو ما قبلها. والراجح أن ميلاده كان قريبا من سنة 335هـ، بافتراض أن القصيدة قيلت قبل تاريخ وفاة أبي حفص بن برد بسنوات.

أما نشأته فلا تمدنا المصادر عنها بما يمكن أن يكون نواة لصياغة أخبار دقيقة عن طفولته. وما نجده في هذه المصادر هو إشارة القفطي إلى أن صاعدا قرأ في الموصل على مشايخها قبل أن ينتقل إلى بغداد(26). ولا تبدو هذه الإشارة عند القفطي إلا استثماراً للعبارة التي افترض فيها الحميدي أن أصل صاعد من ديار الموصل.

III - صاعد في بغداد : مرحلة الشهرة :

وسواء كان صاعد قد عاش مرحلة من حياته في الموصل، أم في الديار القريبة منها قبل انتقاله إلى بغداد، تفيدنا الأخبار القليلة التي عثرنا عليها في بعض المصادر المشرقية، والأخبار التي وردت في كتاب الفصوص نفسه، أن ارتباط صاعد بالمجالس العلمية في بغداد كان في وقت مبكر من حياته. فالخبر الذي ينقل فيه التوحيدي عن ابن سورين قوله بأن آخر من شوهده(27) «ممن عرف الاصطناع، واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب، واهتز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتتم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهاباً، والتهب في عشق الثناء التهاباً، أبو محمد المهلبي. فإنه قدّم قوماً، ونوّه بهم، ونبه على فضلهم، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين... وأبو العلاء صاعد...». وإذ كان المهلبي هذا الذي وزر لمعز الدولة ابن بويه قد توفي سنة 352هـ فإن ارتباط صاعد بهذا الوسط العلمي سيكون قد تم سنة 352هـ أو قبلها، أي في حدود العشر من عمره. ويؤكد هذا الاتصال المبكر بالمجالس العلمية في قصور كبار الحكام ببغداد، الخبر الذي يشير فيه

(26) إنباه الرواة 85/2.

(27) الإمتاع والمؤانسة 212/3 و213.

صاحب إيضاح المشكل إلى أن صاعدا كان من بين الجالسين مع الوزير المهلبى عندما وفد عليه أبو الطيب المتنبي. (28)

وقد أكد صاعد نفسه في فصوصه أنه دخل مرحلة الشهرة في بغداد سنة 364هـ، وهو ما يزال في حداثة عمره، بالقياس إلى سن شيوخه: «ولما ورد أبو الفتح بن العميد الوزير بغداد... عقد مجلسا لأهل العلم، فاستحضر من ذكر له فضلُه وتقدُّمُه، وأحب أن يعرف علماء بغداد فضله وبراعته. وبعث حاجبه إلى القاضي أبي سعيد السيرافي رحمه الله وأصحابه، وإلى أبي الحسن علي بن عيسى الرمانى رحمه الله، فأتياه في أصحابهما، وكان معنا أبو محمد ولد القاضي أبي سعيد. وأحب الوزير أن يسمع شيئا من أصحاب أبي سعيد، فقال لي القاضي: سل أبا محمد، يعني ولده، عن شيء، فخرجت، إذ لم يكن لي بمجلس السلطان عهد، فاستعفيت من السؤال. فحتم عليّ وقال: إن لم تسأل سُئِلْتُ. وأمر أبا الحسن العطار، وهو وجيه بين أصحابه، أن يسألني. فسألني عن قول علقمة... فلم أجد من الجواب بدا، وقد رمقتني الأبصار تنتظر ما أفوه به. فقلت: نبتدئ بما في البيت من اختلاف الرواية، ثم نرجع إلى تفسيره ومعناه... فتعجب الوزير من ذكرى جميع ذلك على صغر سني». (29) ويبدو أن المكانة التي أصبح يحتلها في بغداد، رغم صغر سنه، كانت من بين الأسباب التي جعلته يرفض الإقامة مع الوزير في الري، رغم تمسكه به بعد أن اصطحبه معه إلى الري إعجابا به وبفصاحته. (30)

(28) نقلا عن خزانة الأدب 385/1.

(29) الفصوص ص: 142 - 42 ب.

(30) الفصوص ص: 143.

ولم يكن غريبا - بعد هذه الشهرة التي اكتسبها صاعد في
حدثاته - وصوله إلى بلاط فناخسرو عضد الدولة الذي كان يكبر
علمه.(31) والراجح أن اتصاله بعضد الدولة، كان كاتصال معاصره
الشاعر السلامي به، عن طريق الوزير الكاتب أبي القاسم عبد
العزیز يوسف الذي وجد فيه عالما قادرا على الإشراف على خزانة
كتبه، كما يتضح من قول صاعد نفسه: «... حتى استظهرت كتب
اللغة المتعاصرة... فأزلفني ذلك إلى الملوك، حتى ولاني الوزير أبو
القاسم عبد العزيز بن يوسف تغمد الله خطاياہ خزانة كتبه...».(32)
وأبو القاسم هذا الذي ولى صاعدا شؤون خزانته من سنة 367هـ
إلى سنة 371هـ كما يذكر ذلك صاعد،(33) كان وزيرا لعضد الدولة
البويهی. وقد وزر هذا الوزير أيضا لصمصام الدولة بن عضد
الدولة، كما وزر لبهاء الدولة. هذا الارتباط بحياة القصور
ومجالسها العلمية في بغداد، يجعلنا نطمئن إلى أن صاعدا الذي
استطاع في حدثاته أن يحظى بإعجاب كبار الحكام في بغداد، وأن
يتوج حياته العلمية فيها بتوليته شؤون خزانة الوزير عبد العزيز
بن يوسف، كان يعيش في بغداد حياة لينة لم يعكر صفوها إلا
الأحداث السياسية التي حدثت بعد وفاة عضد الدولة. وفي كل هذا
ما يجعل ظروف سفره من بغداد إلى قرطبة مختلفة عن ظروف
سفر سلفه أبي علي القالي، الذي كانت رحلته إلى الأندلس رحلة
بحث عن الشهرة والمجد، وهو ما سنحاول توضيحه فيما
بعد.

(31) انظر الفصوص ص: 67 ب. حيث يشير صاعد إلى تهلل وجه عضد الدولة أمام
العلماء بالموصل إعجابا بما أجاب به صاعد مناظره قرموطة الشيرازي. وانظر
ص: 63 ب حيث يذكر صاعد أن عضد الدولة أمره بأن ينقل له بخطه كتب
الأصمعي وأبي زيد من خط الفارسي.

(32) الفصوص ص: 1 ب.

(33) الفصوص ص: 51 ب.

IV - الخروج من بغداد والرحلة إلى الأندلس :

(1) بحث عن الشهرة أم فرار منها؟:

يذكر القفطي أن صاعدا خرج من بغداد إلى الأندلس لما بلغه أن اللغة بها مطلوبة. (34) ومثل هذا التفسير الذي يجعل رحلة صاعد إلى الأندلس رحلة عالم يبحث عن المجد والشهرة، يفرض على الباحث أن يسلم بأن حياة صاعد في بغداد كانت حياة عالم مغمور أثر أن يظل مغمورا أكثر من ثلاثين سنة قبل أن يقرر الرحيل، رحيل البحث عن الشهرة والمجد. لكن الأخبار التي تمدنا بها المصادر المشرقية - رغم قلتها -، والأخبار الصريحة التي أخبر بها صاعد عن نفسه في الفصوص، تؤكد أن صاعدا عاش أكثر من ثلاثين سنة من حياة الشهرة العلمية في بغداد، قبل أن ينتقل إلى الأندلس، وهذا ما يجعلنا نرجح أن رحلته من بغداد، كانت رحلة فرار لا رحلة بحث عن الشهرة. ونستأنس في ترجيحنا هذا، بالأخبار التي تتحدث عن بعض الأحداث والفتن التي عرفت العراق وبغداد بصفة خاصة بعد موت الملك البويهى عضد الدولة. وقد صرح صاعد نفسه في ديباجة الفصوص، بأن خروجه من بغداد كان خروجا مفاجئا وفرار خوف من شر الحادثة التي كانت سببا في فقدانه لكتبه: «ورزئتُ كتبتي في الحادثة التي نشأت بين الوزير وصاحب بغداد، فخرجت عنها ولم تُقلني أرض، حتى رميت بأجلادي إلى ملك من حمير...» (35). والعبارة صريحة الدلالة على أن خروج صاعد من بغداد كان خروج فرار وخوف، بل إن في إشارته إلى أن المنصور أعاضه أهلاً بأهل وإخوانا بإخوان، ووصفه لبلاد المنصور بأنها أرض

(34) إنباه الرواة 85/2.

(35) الفصوص ص: 12.

الدين والكلمة الواحدة، (36) ما يؤكد أن صاعدا ما كان ليخرج من بغداد لو لم ترغمه الفتن على ذلك.

ولا تشير المصادر ولا الفصوص إلى تاريخ خروجه من بغداد، لكننا نستطيع مقارنة هذا التاريخ، من خلال حصر تاريخ الخروج من بغداد بين بعض التواريخ التي ذكرها صاعد، أو ذكرها بعض من أرخ له من القدماء. فالمصادر التي أشارت إلى تاريخ وفوده على المنصور، ذكرت أنه وفد عليه سنة 380هـ، أو في حدود هذه السنة. ويعني هذا أن خروجه من بغداد كان قبل هذا التاريخ. وفي فص تحدث فيه صاعد عن تخطيطه لشيخه أبي علي الفارسي في غيبته، أمام عضد الدولة البويهى، ذكر صاعد أنه خرج من بغداد وشيخه أبو علي مستوحش منه، (37) لما بلغه عنه؛ وإذا كان أبو علي الفارسي قد توفي في ربيع الأول من سنة 377هـ، وكان صاعد تلميذه قد ترك بغداد والشيخ مستوحش منه، فإن تاريخ خروجه من بغداد، يجب أن يكون قبل ربيع الأول من سنة 377هـ. ويذكر صاعد في فص آخر أنه تولى شؤون خزانة كتب الوزير عبد العزيز بن يوسف من سنة 367هـ إلى 371هـ. وبذكر هذا التاريخ، يكون خروجه من بغداد محصورا بين 371هـ و377هـ.

وإذا كان صاعد قد أشار في ديباجة الفصوص إلى أنه رُزى كتبه في الحادثة التي نشأت بين الوزير وصاحب بغداد، وكانت «ال» في كلمة «الوزير» عهدية، فإن الوزير المقصود سيكون هو نفسه الوزير أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف الذي ولاه خزانة كتبه، وقد وزر هذا الكاتب الشاعر للملك صمصام الدولة بن عضد الدولة الذي يشير إليه صاعد في النص السابق بصاحب بغداد. ولعل الحادثة التي يشير إليها هي التي ارتبطت بشغب الأتراك

(36) الفصوص ص: 12.

(37) الفصوص ص: 63.

ببغداد سنة 374هـ، وكانت ستؤدي إلى هلاك الوزير ابن يوسف.

يقول أبو شجاع في ذيل تجارب الأمم ما يفيد (أن الأتراك شغبوا ببغداد، وبرزوا متوجهين إلى شيراز، بعد أن كانت طائفة منهم قد سارت قبلهم ولحقت بفارس. فركب زياد بن شهرაკويه في أثر هؤلاء، ورد أكثرهم؛ وأخذ أبا منصور بن الحسن الناظر، وكان قد خرج هاربا، وولده مع شرف الدولة لم يقبض عليه. فردّ بعد أن جرح، لأنه مانع عن نفسه واعتقل، وكان خال ولد أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف؛ فلما عرف عبد العزيز هربه من الليل، خاف أن يسعى أبو عبد الله بن سعدان به إلى صمصام الدولة ويوغر صدره عليه، وتنسب به إليه، فرأى أن يسبق إلى صمصام الدولة بإظهار إبراء الساحة قبل أن ينتهز عدوه الفرصة، فاستأذن على صمصام الدولة فأذن له. فلما حضر، قبل الأرض بين يديه، وبكى بكاءً شديداً، واعتذر له، وأنه ما عنده خبر بهرب أبي منصور ولا علم...» (38)

وسواء كانت الحادثة المذكورة هي التي يشير إليها صاعد في ديباجة الفصوص أو كانت حادثة غيرها، فإن تاريخ خروجه من بغداد يجب أن يكون قبل وفاة شيخه الفارسي سنة 377هـ وبعد سنة 371هـ. إلا أن ظروف خروجه من بغداد، حسب ما ذكر في كتابه، تظل صريحة الدلالة على أنه قرّناجيا بنفسه من الفتنة. ولعل القفطي (39) كان يقيس رحيل صاعد إلى الأندلس على رحيل أبي علي القالي، لكن مقارنة بسيطة بين الظروف التي رحل فيها كل من الرجلين تجعلنا نقنع بأن صاعدا لم يغادر بغداد إلا ناجيا بنفسه:

(38) نقلا عن الكامل في التاريخ ج 7، ص: 123 (هامش) (الطبعة المنيرية).

(39) ذكر أن صاعدا رحل إلى الأندلس لما بلغه أن اللغة فيها مرغوب فيها.

أ) غادر القالي بغداد بعد أن قضى فيها ثلاثة وعشرين عاما، وسار نحو قرطبة وهو في الأربعين، بعد أن يئس من أن يصبح عالما مشهورا في المشرق، بينما غادرها صاعد بعد أن قضى فيها أكثر من ثلاثين سنة مقربا إلى الملوك والوزراء.

ب) غادر القالي بغداد بعد أن تأدب بها ورأى أنه لاحظ له بالعراق، فقصد بلاد المغرب. (40) بينما غادرها صاعد بعد أن أوصله علمه إلى الملوك، وجعله يتولى شؤون خزانة الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الكاتب الشاعر والسياسي الداهية.

ج) رحل القالي إلى الأندلس بعد أن كان قد هيا نفسه للسفر وأعد الكتب والدواوين التي سيحملها معه. (41) بينما وصل صاعد إلى قرطبة وهو لا يحمل معه إلا ما حفظه في قلبه من مضامين كتبه النفيسة التي رزئها في بغداد. ولو كان صاعد قد تهيأ للسفر ولم يخرج من بغداد مستعجلا، لكان قد حصل من الوراقين - وهو الخبير بالكتب - على مصنفات يحملها معه إلى الأندلس عوض كتبه التي فقدوها.

د) قصد القالي الأندلس بحثا عن الشهرة والمال بعد أن بلغه أن خليفته سيكون مشتري بضاعته التي بارت في بغداد، وبعد أن عرضها فلم تجد لها مشتريا، كما يذكر هو نفسه في مقدمة أماليه، بينما قصد لها صاعد وهو متحسر على مجالس الدرس والأنس التي استمتع بها وأمتع بحضورها مجالس من علماء المشرق، كما يتضح جليا من شكره للمنصور بن أبي عامر الذي أعاضه أهلا بأهل وإخوانا بإخوان. (42)

(40) معجم الأدباء 28/7.

(41) انظر عن هذه الكتب والدواوين (أبو علي القالي) ص: 436 - 486.

(42) الفصوص ص: 12.

هذه المقارنة بين الظروف التي غادر فيها القالي بغداد، والظروف التي غادرها فيها صاعد، مضافة إلى الأسباب التي ذكرها صاعد نفسه، تجعل رحلة صاحب الفصوص مختلفة عن رحلة صاحب الأمالي، إنها رحلة أديب مكنه علمه وذكاءه من أن يجالس المهلبي وابن العميد والوزير ابن يوسف والملك عضد الدولة. وأجبرته الفتن على أن يغادر بغداد، بعد أن بنى بها مجدا لم يكن القالي قبله قد بناه بها عندما غادرها.

(2) السفر، أو المرحلة المصرية :

لا تشير المصادر كما ذكرت، إلى تاريخ خروج صاعد من بغداد، وإن كانت قد أشارت إلى أنه قد وفد على المنصور بن أبي عامر في حدود سنة 380هـ. إلا أننا نفترض استئناسا ببعض الأخبار أنه وصل الأندلس قبل هذا التاريخ. فصاعد يورد في فصوصه خبر المناظرة التي جرت بينه وبين العالم الأندلسي أبي بكر الزبيدي⁽⁴³⁾ وقد أكدت جل المصادر أن الزبيدي كان من بين العلماء الذين اختبروا صاعدا أمام المنصور وناظروه. وإذا كانت المصادر تذكر أن الزبيدي توفي سنة 379هـ فإن اعتبار 380هـ سنة وفود صاعد على المنصور سيكون سببا في جعل الزبيدي بعد موته مناظرا لصاعد. وقد انتبه الحميدي إلى هذا التعارض، فأثر أن يجعل تاريخ وفاة الزبيدي قريبا من سنة 380هـ: (مات الزبيدي بإشبيلية في جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة ، كذا ذكر ابن بشكوال... قال الحميدي: توفي قريبا من ثمانين وثلاثمائة).⁽⁴⁴⁾

(43) الفصوص ص: 25 أ.

(44) معجم الأدباء 180/18.

ومراعاة لتاريخ وفاة الزبيدي، وترجيحا لكون تاريخ خروج صاعد من بغداد قد كان سنة 374هـ، فإن الزمن الذي استغرقته رحلته من بغداد إلى الأندلس سيكون خمس سنوات. وقد تفيد العبارة التي وردت في مقدمة الفصوص، عند حديث صاعد عن فضل المنصور عليه: (... ولم تقلني أرض...) أنه خرج من بغداد قاصدا قرطبة، دون أن يفكر في الإقامة بأرض أخرى؛ إلا أن مفهوم نفس العبارة يوحي بأنه حاول الإقامة في البلاد التي مر بها فلم تطب له، إلى أن ألقى رحله في أرض المنصور. والغريب أن كل المصادر باستثناء فهرسة ابن خير والنفح، تذكر أنه وفد على ابن أبي عامر بالأندلس، دون أن تشير إلى حلوله ببلدة من البلاد الفاصلة بين العراق والأندلس، ولا إلى الطريق الذي سلكه منذ خروجه من بغداد إلى أن وصل إلى قرطبة، رغم أن صاعدا أقام مدة قد تكون خمس سنوات بمصر، قبل أن يستأنف الرحلة إلى الأندلس. وقد اكتفى المقرئ بالإشارة المقتضبة إلى أن صاعدا (قدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة 380هـ). (45) وخلافا لذلك انفرد ابن خير بنقله خبرا مسهبا، يدل دلالة واضحة على أن صاعدا أقام مدة طويلة بمصر، قبل وصوله إلى الأندلس. وقد ورد هذا الخبر عرضا، عند حديث ابن خير عن سند رواية كتاب المداخل في اللغة لأبي عمر الزاهد: (كنت أقرأ المداخل على ابن خشخاش وصاعد اللغوي حاضر... وكان صاعد قرأ المداخل بمصر على الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل... المعروف بابن حنزا، عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطررز... وكان ابن حنزا لا يفارق صاعدا يسامره...). (46)

(45) نفح الطيب 96/4.

(46) فهرسة ابن خير (358 - 359).

وإذا كان الخبر يفيد أن صاعدا قرأ كتاب المداخل في مصر على الوزير ابن حنزابة الأديب المحدث الذي راسل السيرافي والدارقطني، فإن هذه القراءة نفسها لا تهمنا في حد ذاتها الآن، وإنما يهمنا منها دلالتها على أن صاعدا أقام بمصر الزمن الكافي لقراءة المداخل، والاستفادة من علم الوزير ابن حنزابة. أما مسامرة صاعد للوزير فستكون دليلا على أن ابن حنزابة قد تعلق بصاعد وأسماره... وإذا كانت الأسمار مما يرتاح إليه رجال السياسة في مجالسهم الخاصة، فإن من المفروض أن يكون صاعد قد أقام بمصر زمنا كافيا، لإشباع نهم ابن حنزابة إلى السمر. وقد يجوز لنا أن نتساءل عن دلالة إقامة صاعد في مصر، أكانت رغبة من صاعد في الاستقرار بها، أم أن تعلق الوزير به هو الذي جعله يطيل الإقامة بها؟ إننا لا نستطيع أن نجيب إجابة دقيقة عن هذا التساؤل، مادام الاستقرار بالأندلس قد تم بعد الإقامة بمصر؛ ورغم ذلك نستطيع الاطمئنان إلى أن صاعدا عندما خرج من بغداد ناجيا بنفسه، لم يكن يقصد الاستقرار عند المنصور دون غيره من كبار رجال السياسة في عصره، وإن كانت عصا الترحال قد ألقيت في بلاطه.

(3) الوصول إلى الأندلس وقسوة المواجهة :

لعل ابن الخطيب ينفرد بجعله صاعدا من الشعراء الذين رافقوا المنصور في غزواته لبلاد الإفرنج سنة 374هـ: (47) «والذي صح أنه حضر ذلك أبو عبد الله محمد بن الحسين الطبري، أبو القاسم الحسين بن الوليد المعروف بابن العريف، أبو الوضاح بن شهيد عبد الرحمان بن أحمد، أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي... قال المؤرخ: هؤلاء من حفظته منهم».

(47) الإحاطة 2/ 106 و 107.

وإذا كان صاعد كما يذكر ابن الخطيب قد رافق المنصور في هذه الغزوات، فإن تاريخ وصوله إلى الأندلس يجب أن يكون سابقا لسنة 374هـ، وهو استنتاج يضعفه أن كل المصادر التي ترجمت لصاعد تشير إلى أن وفوده على المنصور كان في حدود 380هـ. إلا أن هذا التاريخ الذي تذكره المصادر يظل مقيدا بتاريخ وفاة أبي بكر الزبيدي في جمادى الأولى سنة 379هـ، اعتبارا لكون الزبيدي قد ناظر صاعدا أمام المنصور، عند وفوده عليه، كما تذكر المصادر، وكما يذكر صاعد نفسه في الفصوص.

وإذا كانت المصادر التي تحدثت عن وصول أبي علي القالي إلى الأندلس، قد أشارت إلى الحفاوة التي قوبل بها هذا الوافد المشرقي، وإلى الموكب الفخم الذي رافقه حتى وفوده على الخليفة الناصر، تنفيذا لأمر هذا الخليفة الذي كان ينتظر وصول ضيفه الأديب، فإن المصادر التي تحدثت عن دخول صاعد إلى الأندلس، لا تشير إلى أي استقبال يمكن أن يكون صاعد قد خُص به عند وصوله إليها. ولا يفسر هذا إلا بكونه قد دخل الأندلس دون أن يكون أهلها ينتظرون وصوله، خلافا لوصول القالي الذي كان منتظرا. وسكوت المصادر على الظروف التي وصل فيها صاعد إلى الأندلس، يجعلنا نفترض أنه لم يتصل بالحاجب المنصور إلا بعد أن اتصل ببعض الوزراء وكبار الحكام في الأندلس. وقد ذكر ابن بسام أن صاعدا اتصل أول دخوله الأندلس بالوزير عبد الله بن مسلمة، (48) وكان ابن مسلمة هذا المسؤول عن أرزاق الشعراء ورواتبهم في بلاط المنصور، فلا يستبعد أن يكون اتصال صاعد بهذا الوزير، عند دخوله الأندلس، قد كان من أجل الوصول إلى بلاط الحاجب. إلا أن المنصور - وإن لم يكن قد احتفل بوصول صاعد علنا، لعدم علمه بوصوله - قد خصه

48 (الذخيرة 4 - 10/1).

بحفاوة وعناية بالغتين، عندما وفد عليه، فأكرمه «وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه»، (49) إعجابا بعلمه وظرفه. لكن هذا الإكرام لم يجنب صاعدا شر المواجهة التي واجهه بها أدباء قرطبة، الذين كانوا يعتبرون تلمذتهم لأبي علي القالي، إجازة علمية تغنيهم عن غيره من علماء المشرق، بل وتجعلهم أندادا لهم. كان على صاعد أن يثبت للمنصور وأدباء مجالسه أنه عالم لا ممخرق. وقد نقل ابن بسام عن ابن حيان إشارته إلى هذه المواجهة التي واجه بها علماء قرطبة العالم المشرقي الوافد، فقال: «وقد أجرى ابن حيان ذكره فقال: ولما دخل قرطبة دفعوه بالجملة عن العلم باللغة، وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه، ولذلك ما رضىه أحد من أهلها أيام دخوله إليها، ولا رأوه أهلا للأخذ عنه والاقتراء به». (50) ورغم اختلاف المصادر، في صياغة (51) خبر هذه المواجهة، تنبئ كل الأخبار التي توردها، عن الموقف المعادي الذي وقفه أدباء الأندلس من هذا العالم المشرقي الوافد: «اجتمع عند المنصور بن أبي عامر أعيان الأوان كالزبيدي والعاصمي وابن العريف ومن سواهم، فقال لهم المنصور: هذا الرجل الوافد علينا صاعد، يزعم أنه متقدم في هذه الآداب التي أنتم سرجها الضاحية، وأهلتها السارية، وأحب أن يمتحن ما عنده، فوجه إليه ودخل والمجلس قد احتفل فخل، فرفع المنصور مجلسه وأنسه، وسأله عن أبي سعيد السيرافي فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه. فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره فيها من جواب، واعتذر أن النحو ليس جل بضاعته ولا رأس صناعته، فقال له الزبيدي: فما تحسن أيها الشيخ، قال: حفظ الغريب. قال: فما

(49) جذوة المقتبس ص: 223.

(50) الذخيرة 4 - 9/1.

(51) انظر مثلا ما أورده الحميدي مسندا إلى العاصمي الذي كان من بين من امتحنوا صاعدا عند وفوده على المنصور: الجذوة: ص: 225.

وزن أولق؟ فضحك صاعد وقال: أمثلي يسأل عن هذا؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب. قال الزبيدي: قد سألتك ولا نشك أنك تجهله. فتغير لونه وقال: أفعل. قال الزبيدي: صاحبكم ممخرق...» (52) وقد أرخ صاعد نفسه لهذه المواجهة التي استمرت طويلا، في فصين من فصوصه، أورد فيها نموذجا للتحدي العلمي الذي كان تلامذة القالي يواجهون به صاعدا: «ولما وردت حضرة مولانا المنصور أبي عامر أطال الله بقاءه، وراقه ما افتَرَه من علمي، أحب أن يعرضني على علماء مصره ليعلمهم أن اصطناعه صادف مكانه، وأن إحسانه حل مَعَانَه، فاستحضر أيده الله الزبيدي والعاصمي وأبا عمرو البصير، وغيرهم من جهابذة العلم. ونازعني الكلام أبو بكر الزبيدي إلى أن سألتني عن وزن أيل... ثم سألتني عن تصريفه في وجوه اللغة فقلت...» (53) ويقول صاعد في الفصل الآخر: «وسألتني أبو بكر الزبيدي رحمه الله بحضرة مولانا المنصور أيده الله عن قول الراعي: كدخان مرتجل، وعنده الوزير سلمة وأبو عمرو البصير النحوي وعدة من أهل الفهم، فسبقني أبو عمرو إلى الجواب وقال: المرتجل الذي يجمع رجلا من جراد، فقلت عندي زيادة... ثم قلت للزبيدي ما تذكر في الرجل؟ فذكر ما حضر ذكره، فقلت: عندي زيادات، فقال مولانا أيده الله: ليأخذ كل واحد منكما شيئا من الرق وليكتب ما يعرفه». (54) لقد كانت المقابلة التي قوبل بها صاعد، طبيعية في بيئة يحس علماءها فيها، بأنهم مُغْنَو حَيٍّ لا يُطْرَبُونَ. وقد شهد على هذا التضايق من وفود المشاركة، العبارة التي علق بها ابن رفاعة الأندلسي على خطأ القالي في رواية بيت عبدة بن الطبيب، قائلا: «مع هذا يوفد على

(52) الذخيرة 4 - 14/1 - 15.

(53) الفصوص ص: 125.

(54) الفصوص ص: 42 ب.

أمير المؤمنين، وتتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط الصبيان فيه». (55) لكن يبدو أن مزاج صاعد المائل إلى التحدي وإظهار التفوق، كان سببا في إذكاء نار هذه المواجهة. فإذا كان القالي قد استطاع أن يخفف من حدة عداة علماء الأندلس له، بتواضعه أمامهم، وتجنبه مناظرتهم، واعترافه لهم بأن علمه علم رواية لا دراية، (56) فإن صاعدا - خلافا لما فعله القالي - كان يجعل من المجالس العلمية مناسبة لإظهار نبوغه وسعة علمه وتفوقه على غيره، دون أن يراعي الأثر الذي يخلفه هذا التباهي بسعة العلم في نفوس الحاضرين من العلماء، وفي نفوس خصومه، كما يدل على ذلك تحديه للزبيدي في الخبر المتقدم. وقد نقل صاعد نفسه في فصوصه، ما يفيد أن شيخه كان قد لامه على مبالغته في إظهار العلم والمعرفة مبالغة جعلت الوزير ابن العميد يظهر بمظهر العاجز عن إفحام غلام ناشئ: «... فقال الوزير: أتراني أرى هذا الغلام في الحلم... ثم قال: كم الولادة؟ فقلت: ولادتان... فأطرق مستوحشا من جوابي كأنه أراد أن يعيبنني... وندم على سؤالي. فلما قمنا، لامني أبو سعيد رحمه الله على جوابي له عما سأل وقال: هلا تجاهلت له لتسرّه بقصورك عما سألك». (57)

ويبدو أن لوم السيرافي لصاعد على مبالغته في إظهار علمه، كان خوفا على تلميذه، وتحذيرا له من أن يصبح علمه سببا في إكثار حاسديه، وقد كان الوزير ابن العميد، هذا الذي أغضبه صاعد بالإجابة عن كل ما سأل عنه: «أحسد الناس لمن خط

(55) نفح الطيب 70/4.

(56) انظر ما أورده ابن بسام عن إعجاب القالي بذكاء أهل الأندلس: الذخيرة 1 - 4/1.

(57) الفصوص ص: 42 ب - 143 أ.

بالقلم، أو بلغ باللسان، أو فلج في المناظرة، أو فكه بالنادرة، أو أغرب في جواب...» (58) كما يصفه أبو حيان التوحيدي.

كان صاعد - إذن - عند وصوله إلى قرطبة، يقابل معاداة كبار علماء المنصور له بالتحدي المفحم، مستفيدا من خبرته التي اكتسبها من حضور مجالس المناظرة والجدال. ولم يكن تغربه ولا تفرده أمام علماء الأندلس ليضعفاه أو يرغماه على الاستسلام، فقد ظل صاعد يواجه مكاييد خصومه بالتحدي العلمي، إلى أن استطاع أن يجعل مواجهته لخصومه تحديا لعصر علمي بأكمله، أقصد تحديه لمدرسة أبي علي القالي وتلامذته وأماليه، من خلال استئذانه المنصور في أن يملي الفصوص.

٧ - الحياة الجديدة بالأندلس :

(1) ما بعد الامتحان: كان على صاعد، رغم إكرام المنصور له، أن يتحمل نتائج المكاييد التي كادها له خصومه، قبل أن تتاح له الفرصة التي مكنته من أن يثبت للحاجب أنه فوق التهم التي اتهمه بها خصومه. وقد سنحت هذه الفرصة، عندما أوهم ابن العريف الحاجب المنصور، أن البيتين اللذين قالهما صاعد في وصف وردة لم تستكمل تفتحها مسروقان من مقطوعة لشاعر آخر: «وأدخل على المنصور يوما وردة في غير أيامها، لم تستم فتح كامها، فقال فيها صاعد على الارتجال: فسر بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضرا، فحسده وجرى إلى مناقضته، وقال لابن أبي عامر: إن هذين البيتين لغيره، وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه وهما عندي على ظهر كتاب بخطه. فقال له المنصور: أرنيه، فخرج ابن العريف وركب وجعل يحث حتى أتى مجلس ابن بدر، وكان أحسن أهل وقته بديهة، فوصف له ما

(58) الإمتاع والمؤانسة 1/ 66 - 67.

جرى فقال: فطار ابن العريف بها، (59) وعلقها على ظهر كتاب
بخط مصري، وورى وتحيل بمداد أشقر، ودخل بها على
المنصور، فلما رآها اشتد غيظا على صاعد، قال: غدا أمتحنه، فإن
فضحه الامتحان، لم يبق في موضع لي فيه سلطان. فلما أصبح
وجه عنه بمجلس حفل، وقد أعد طبقا فيه سقائف من ضروب
النواوير... فلما دخل صاعد مثل الطبق بين يديه، فقال له
المنصور: إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا، وإما بالضد عندنا،
لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتي به دعوى، وقد وقعت من ذلك
على حقيقة، وهذا طبق ما توهمت أنه مثل بين يدي ملك قبلي في
شكله، فصفه بجميع ما فيه، فقال صاعد بديهة... فاستغربت له
يومئذ تلك البديهة، وكتبها المنصور بخطه، وكان إلى ناحية سقيفة
فيها جارية تجذف بمجاذف ذهب لم يرها صاعد، فقال له
المنصور: أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية، فقال.... فأمر له
المنصور بألف دينار ومائة ثوب... وأجرى عليه المراتب من ذلك
اليوم ثلاثين دينارا، وألحق في ديوان الندماء...» (60)

والنص صريح الدلالة على أن صاعدا لم يصبح من ندماء
المنصور إلا بعد مدة غير قصيرة، اقتنع المنصور خلالها بأن ما
اتهم به علماء مجالسه صاعدا، كان كذبا. ولعل هذه الحادثة التي
جعلته يلحق بالندماء ذوي الرواتب الجارية، كانت إعلانا عن فشل
خصومه في الكيد له، وملء صدر المنصور عليه، وبداية لمرحلة
جديدة من حياة صاعد في الأندلس مرحلة الشاعر النديم العالم.
وقد ترجم هذا النجاح، بعد أكثر من خمس سنوات من المواجهة
بينه وبين خصومه، ببداية إملاء الفصوص بأمر من الحاجب
المنصور، في ربيع الأول من سنة 385هـ. ويشاء الحظ لصاعد -

(59) أي الأبيات التي كتبها ابن بدر.

(60) الذخيرة 4-1/ 17-18.

إذ يبدو أنه كان محظوظا - أن تقترن هدية أهداها إلى المنصور، بانتصار الحاجب في بعض غزواته في ربيع الثاني (61) من سنة 385هـ، أي بعد البدء في إملاء الفصوص بشهر، وبأسره لعدوه «غرسية» الذي سمي الأيل المقيد الذي أهده صاعد إليه باسمه، وكانت هذه الحادثة سببا في أن المنصور وهو تحت نشوة الانتصار، آمن بصفاء سريرة صاعد وحسن نيته، رغم ما وسمه به خصومه. فقد حكى أن المنصور قال بعد انتصاره: «إنه لم يتفق لصاعد هذا الفأل الغريب إلا لحسن نيته وسريرته وصفاء باطنه». (62) وكان هذا سببا في أن الحاجب رفع قدره «من ذلك اليوم فوق ما كان ...» (63). ويشاء الحظ لصاعد أيضا أن تصبح هذه الحادثة من العجائب التي تتحدث عنها المصادر. (64)

وقد ظلت حياة صاعد طويلة أيام حكم المنصور، حياة الشاعر المقدم، والنديم المصطفى، والعالم المقرب. ولم تكن الدسائس التي استمر الخصوم يحوكونها - رغم ما حكى عنه من نواذر مسلية - لتقلل من حظوته لدى الحاجب. بل إن المنصور كان يجد في تفوق صاعد على خصومه أمامه، مدافعا عن نفسه ومتحديا، مناسبة للتسلي، كما يظهر من قول المنصور للشاعر ابن العريف، عندما تفوق عليه صاعد في وصف قصر الزاهرة: «... مالك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله...» (65).

(2) موت المنصور وبداية النهاية: كان موت المنصور سنة 392هـ، بالنسبة لصاعد، نهاية لحياة استمرت 12 سنة تحت حماية ملك أكرمه وحماه ووقاه شر حاسديه وخصومه. ويبدو أن هذا

(61) يجعل ابن بسام هذا الانتصار في ربيع الأول.

(62) النفج 81/4 - 82.

(63) النفج 81/4 - 82.

(64) انظر مثلا الكامل في التاريخ 9/113.

(65) نفج الطيب 1/582.

الإحساس بقرب نهاية المجد، بعد موت المنصور كان قويا في نفس صاعد. وقد تجلّى عمق هذا التوجس، في اعتذاره للحاجب الجديد عبد الملك المظفر، عن حضور المجالس التي كان يعقدها. وهي مجالس، تكشف - كما يتضح من الأخبار التي تحكيها المصادر - عن أن عبد الملك المظفر كان ميالا إلى المجون مولعا بالشراب،⁽⁶⁶⁾ زاهدا في أهل العلم. ولا نعلم بالتدقيق السبب المباشر الذي جعل صاعدا يعتذر عن حضور هذه المجالس الماجنة، التي تعود حضورها في بغداد، وأيام حكم المنصور. غير أن هذا لا يمنعنا من أن نرجع اعتذاره للمظفر عن حضور مجالسه اللاهية، إلى الأسباب المحتملة الآتية:

أ) شيخوخته: يرجع أن صاعدا كان قد تجاوز الستين عندما تولى المظفر الحجابة، وإذا كانت هذه السن لم تمنعه من الاستمرار في حضور مجالس الحاجب المنصور قرينه الذي توفي وعمره 64 سنة، فإن حضور مجالس الحاجب الجديد الذي لم يكن عند توليه الحجابة قد جاوز الثامنة والعشرين، كان سيجعله ضحكة أمام ملك شاب، يقوى في مجونه ولهوه على ما لا يقوى عليه الشيوخ. ولا نستبعد أن مرض الشيخوخة قد تمكن مبكرا، من صاعد الذي ظل يلهو دون أن يجد في شراب الأندلس ومجالس اللهو بها، ما يعوضه عن خمور بغداد وأديرتها.⁽⁶⁷⁾ وقد تحدثت المصادر عن هذا المرض الذي أصاب صاعدا، وذكرت أنه كان العذر الذي اعتذر به النديم الشيخ عن حضور مجالس عبد الملك المظفر: «... وقال: إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولي الأمور بعده من ولده، وادعى وجعا

⁽⁶⁶⁾ يؤكد هذا أنه قتل وزيره ابن القطاع في مجلس شراب.

⁽⁶⁷⁾ انظر تعريض ابن شهيد به، وبملاهي بغداد التي كان صاعد يفتخر بها في الأندلس، الذخيرة 4 - 26/1 - 27.

لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ به على عصا، ويعتذر به في التخلف عن الحضور...» (68).

ب) حزنه على المنصور الذي آمنه وحماه، وخوفه من أن يتغير عليه الملك الجديد الذي لم يكن حسب ما يحكى عنه، كثير التعلق بالعلماء والشعراء. والراجح أن صاعداً كان يخشى أن يجد كيد خصومه سبيلاً إلى قلب الحاجب الجديد، فيفتك به، «وقد كان عبد الملك كثير التأثر بالوشاية سريع التقلب والغدر»، (69) كما يتضح من تغييره على فتاه طرفة، وأمين بلاطه عبد الملك الجزيري، ووزيريه ووزير أبيه قبله ابن القطاع، وفتكه بهم. (70) وقد أكدت الأخبار التي تضمنتها بعض المصادر أن صاعداً ظل يعاني من بغض حاسديه له، طوال وجوده بالأندلس؛ فمما خاطب به الوزير ابن برد صاعداً قوله ذاكرة حساده: (بسيط)

- 1 - أبا العلاء استمعْ تعريضَ ذي مِقَّةٍ
أهدي لك الودَّ محضاً غير مَقْطُوبٍ
- 2 - أولاك محمداً من بعد تجربة
لا يصلح الحمدُ إلا بعد تجريبٍ
- 3 - تحصيلُ فضلك للحساد معجزةٌ
وكُنْهُ علمك شيءٌ غيرُ محسوبٍ (71)

ج) محاسبة للنفس، نبهها فيه موت ولي نعمته المنصور، فكانت سبباً في توبته وزهده في مجالس اللهو التي شغف بها الحاجب الجديد. وقد عبر صاعداً عن زهده في ما لا يليق

(68) بغية الملتمس ص: 320.

(69) دولة الإسلام في الأندلس ص: 564.

(70) دولة الإسلام في الأندلس ص: 564.

(71) الذخيرة 1 - 129/1.

بالشيب، في قوله لصديقه الوزير أبي حفص بن برد
(بسيط):

يامن يُرَقِّع بِالْأَمَالِ مَا خَرَقَتْ

يَدَا اللَّيَالِي قَبِيحَ صَبْوَةِ الشَّيْبِ (72)

هذه الأسباب، مضافة إلى وفائه لذكرى المنصور، جعلته يمتنع
عن حضور مجالس الأنس مع عبد الملك المظفر. وقد أكد ابن حزم
أن شيخه صاعدا «لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد
ممن ولي الأمور بعده من ولده». (73) غير أن اعتذاره عن حضور
مجالس اللهو والشراب مع المظفر، لم يمنعه من أن يظل شاعره
المادح، يهنئه في الأعياد، (74) ويسارع - خوفا على نفسه - إلى
الدفاع عن جرائمه وتحسينها، كما يتضح من البيتين اللذين قالهما
عند فتك المظفر بوزيره عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع
الذي كان ممن انقطع إليهم صاعد: «وأمر (75) برفع رأس عيسى
بباب الزاهرة... وأعظم الناس قتل عيسى لجلالة قدره، وسار منهم
إلى الزاهرة خلق عظيم ينظرون إلى رأسه... وكان أبو العلاء،
صاعد بن الحسن اللغوي منقطعا إلى عيسى، فكان أول من أنشد
عبد الملك على سبيله من سرعة الانقلاب، شعرا يقول فيه:
(بسيط)

1 - فَتَلَكَ هَامَتُهُ فِي الْجَوِّ نَاطِقَةً

تَحَدَّثَ النَّاسُ مِنْ آيَاتِهَا عِبْرًا

2 - مَكْتُوبَةَ الْوَجْهِ بِالْهِنْدِيِّ يَقْرُؤُهُ

مَنْ لَيْسَ يَقْرَأُ مَكْتُوبًا وَلَا سَطْرًا (76)

(72) الذخيرة 1 - 130/1.

(73) بغية الملتبس صفحة 320.

(74) انظر بانيته في تهنة المظفر بعيد الفطر، جذوة المقتبس ص: 224.

(75) أي عبد الملك المظفر.

(76) ابن حيان عن الذخيرة 128/1/1. وانظر بيتا من القصيدة أورده صاحب البيان
المغرب 35/3.

وأظن أن سرعة الانقلاب التي وصف بها صاعد في الخبر تبدو مناقضة لما عرف عنه من طيب أخلاق، لكنه الخوف الذي أرغم كثيرا من معاصريه على إظهار غير ما يبطنونه في فترة رخصت فيها الأرواح، وأصاب الناس الأذى فيها من المقربين إليهم؛ ومع خوف صاعد هذا لم يتضمن شعره في ابن القطاع الحقد الذي تضمنته أبيات ابن دراج وهو يتحدث عن نفس الحادثة. (77)

ولعل هذا التحول في حياة صاعد، كان بداية لمرحلة رغب فيها صاعد في أن يتخلص من شخصية النديم ليصبح الشاعر المادح، والشيخ العالم المتفرغ لتدريس تلامذته الذين قدر لهم أن يصبحوا من كبار العلماء. ولا نعلم أكان صاعد في هذه المرحلة من حياته قد مال إلى العزلة رغبة فيها، أم هروبا من صخب المجالس، أم أن الناس هم الذين رغبوا عنه. ولكننا نعلم، أيّا كان الجواب، أن تلميذه ابن حيان قرأ عليه الفصوص متفردا في داره سنة 399هـ، وهي السنة التي انتهى فيها ملك المظفر بوفاته أو اغتياله، الذي كان بداية المرحلة التي أرغمت صاعدا على أن يدرك مستسلما أن المجد الذي بناه في بغداد ثم في الأندلس متحديا قد قوض.

(3) أقول نجم :

كان تولي (شنجُول) الحجابة مكان أخيه المتوفى أو المغتال، واستصداره ولاية عهد الخلافة من الخليفة المحجوب هشام المؤيد، تحولا في تاريخ الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس. وكان هذا التحول شؤما أصاب صناعة الأدب، فأرغم المتأدبين على عرض بضاعتهم لدى حكام طارئین أعجموا من فرط بخلهم فصحاء الفصحاء. وإذا كان صاعد قد غادر بغداد هروبا من شر الفتن، فإن القدر يشاء لصاعد مرة ثانية أن يعيش

(77) ديوان ابن دراج ص: 29.

شر الفتنة في بلد كان اغترابه فيه هروباً من الفتن. ولعل أول ما اکتوى به صاعد من شر الفتنة سقوط مجد ولي نعمته الوزير ابن مسلمة الذي كان قد أوصله إلى المنصور، فقد سلم الوزير مدينة الزاهرة معقل بني عامر إلى جيوش الثائر على عبد الرحمان (شنجول) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر، الذي دخل قرطبة في غياب الحاجب عبد الرحمان، ليخلع الخليفة هشاماً المؤيد ويعلن نفسه خليفة، متلقياً بالمهدي سنة 399هـ، ويعلن بعد ذلك موت الخليفة المخلوع هشام، بعد أن قتل حاجبه عبد الرحمان مأسوراً. ولم يكن على صاعد وهو الذي تعود التحدي أن يتجرع مرارة زوال نعمة صديقه الوزير ابن مسلمة، بل كان عليه أيضاً أن يحمي نفسه متقرباً إلى الخليفة الجديد بمذائح تغنى فيها على مضض بالجرائم التي ارتكبتها هذا الخليفة الذي جعل لرؤوس أعدائه ثمناً، ثم غرس من هذه الرؤوس حديقة اشتغلت بها النظارة (وذكرها شعراؤه) (78)؛ وكان مما قاله صاعد في أول هذا المديح (وافر):

جلاء العين مبهجة النفوس حدائق أطلعت ثمر الرؤوس⁽⁷⁹⁾
وشهد صاعد وهو في قرطبة كل أحداث الفتنة الدامية التي عرفتتها سنة 400هـ، شهد تولي سليمان بن الحكم بن عبد الرحمان الناصر الخلافة، وتلقبه بالمستعين، بعد فرار الخليفة المهدي الذي حاول قبل أن يفر بنفسه إفشال خطة سليمان، بإظهاره الخليفة المخلوع هشاماً المؤيد، بعد أن كان قد أخفاه وزعم موته.

وشهد عودة المهدي المخلوع من جديد إلى الخلافة، مسترداً قرطبة بمساعدة النصارى في ذي القعدة سنة 400هـ، بعد فرار

(78) الذخيرة 27/1/2

(79) الذخيرة 27/1/1

سلميان. كما شهد ظهور حاجب جديد للخلافة، هو الفتى العامري واضح، الذي كان قد أعلن ولاءه دون باقي الفتيان العامريين للمهدي بعد مقتل عبد الرحمان (شنجُول). وتنتهي سنة الفتنة هذه (400هـ) بتأمر الفتى واضح مع بعض الفتيان العامريين على الخليفة المهدي، فقد أخرج هؤلاء الفتيان الخليفة هشاماً من محبسه وأجلسوه خليفة من جديد، وأتوا بالمهدي في ذي الحجة من نفس السنة فقتل أمامه؛ وتولى واضح الحجابة للخليفة هشام المؤيد. لكن هذا الخليفة الذي كان منذ حجب المنصور عن الناس، لا يخرج من قصره إلا متخفياً، وجد في هذه الأحداث فرصة مكنته من أن يتخلص من وصاية الحاجب، ويخرج إلى الناس، ويظهر في شوارع قرطبة (80).

وتضطرب الأحوال في عهد هشام المؤيد وحاجبه واضح، ويقتل القائد علي بن وداعة الحاجب واضحاً، ويتولى أمر الشرطة محاولاً بحزمه وشدته القضاء على الفتن التي عرفت بها قرطبة سنة (401هـ).

ولا يتوقع أن تكون أحوال صاعد وهو يعيش وسط هذه الفتن حسنة؛ فبعد الغنى الذي اكتسبه أيام المنصور وخلفه، نجد حاله وقد تجاوز السبعين، تسوء بعد أن عصفت الفتن بكل ما كان يملكه. وتزداد أحواله سوءاً إلى أن يصبح عاجزاً عن أداء الديون التي تراكمت عليه. ورغم ما انتهت إليه أموره والسن التي بلغها، لم يكن صاعد يحبس نفسه على أن يطلب المعونة لدى أغتام أصعدتهم حظوظهم أيام الفتن، فحلوا محل الفضلاء الذين كانوا ملائذ صاعد ومغنيه عن مد اليد. لذا ظل صاعد رغم فقره يتعفف، إلى أن استولى القائد العربي أبو حسن علي بن وداعة على الأمور، فكان أملاً ونوراً لاح لصاعد وهو يرزح تحت ثقل الدين. فكتب إليه

(80) دولة الإسلام في الأندلس 596.

يستغيثه، دون أن يفوته تنبيه القائد إلى أنه ما كان ليطلب عونه لو لم يكن من ذوي الفضل: «وكان صاعد قد طولب في أخريات تلك الدولة، وانتهت به الحال إلى أن أغرم في خبر طويل مائة مثقال. فاستغاث علي بن وداعة أحد الفرسان الأبطال ونبهاء الدولة... وكتب إليه رقعة قال فيها: إني على وهني، وما أخذه الدهر مني، ونحته من قدحي، لأربأ بالفضل أن ينحط إلا في مصابه، ويحل رحله في غير معانه؛ فلم أحوم على أحد طير رجائي، ولا رمقت بألمي إلا من نوه الله باسمه... فسبحان من جعل سنانك عدل لسانك... خبيثة أذاعها الله منك، وذخيرة أبرزها الدهر بك» (81).

ولم يقتصر صاعد على مراسلته، بل صاغ فيه مديحا توسل به، وبالقربة التي تربط ربيعة بسليم، إلى الممدوح مستغيثا به، مستجيرا إياه (82) (وافر):

- 1 - أبا حسنٍ ربيعةٌ من سُلَيْمٍ
سنانٌ زانٌ عاليةَ الرماح
- 2 - وإني عائذٌ بك من هَنَاتٍ
نحتنُ دعائمي نحتَ القـداحِ
- 3 - فكِرَّ على ابن عمك وانتشلُهُ
فليس حمى ابن عمك بالمُبـاحِ
- 4 - فإنَّ الجارَ عندك بين جنبي
عُقابِ الدُّجَنِ كاسرةِ الجَناحِ

وكان مما وصف به القفطي صاعدا أنه كان: «حسن الطريقة في استخراج ما في أيدي الناس من الأموال، جميل التوصل إلى ذلك»، (83) لكن يبدو أن روحه المرححة التي كانت تحرك أريحية

(81) الذخيرة 53/1/4 - 54.

(82) الذخيرة 54/1/4.

(83) إنباه الرواة 86/2.

الفضلاء قد اختفت، لتترك المكان ليأس وسوداوية بدأت تغزو قلبه منذ توفي الحاجب المنصور بن أبي عامر، إلى أن تمكنت منه بحلول الفتنة. فرسالته إلى ابن وداعة ومديحه فيه ذهباً سدى: (84) «فما انتفع بعلي بن وداعة، ولا كانت له فيه شفاعاة». ولا ننفي أن يكون بخل من قصدهم صاعد أيام الفتنة مستغيثاً، قد كان وراء خيبة آماله فيهم. ولم تكن حال صاعد أحسن مع الخليفة هشام المؤيد الذي تجبر بعد أن تخلص من حبابه، فلم يكتف بأن منع عطاءه عن صاعد، بل تجاوز ذلك إلى أن منعه من السفر والخروج من الأندلس، مما جعل خلال الفقر والمكروه تجتمع على العالم المشرقي الشيخ، إلى أن افتضح في أهله وولده (85) «... وتناصرت خلال المكروه فيما بعد على صاعد بارتجاج الفتنة، غلاء سِعْر ورِخَص شِعْر، حتى اختل وعجز عن ستر ولده وأهله. وبخل هشام على ذلك كله بتسريحه والإذن له في الانطلاق عن الأندلس فرقاً من خبث لسانه. فخرج مستخفياً وجاز بشلطيش...». ولعل صاعداً كان يقصد إلى هذا العنت الذي لقيه من الخليفة هشام، عندما لمح في رسالته إلى ابن وداعة، إلى تخوفه من مكايدها له خصومه في قرطبة: «وفي البلد من وترني فاستقاد منه لساني، وظلمني فانتصر لي حماةً كلماتي، فأرسلتها فيه شُعْثاً قَبَاحاً، موروثةً في الأعقاب، خالدة على الأحقاب، أشرَدَ من نعامه، وألْزَمَ له من طوق الحمامة؛ فهو يبغي الغوائل، ويبث لي الحبائل». (86)

فلا يستبعد إذن أن يكون الخليفة هشام قد نقم عليه، بإغراء من الخصوم الذين وجدوا في عصر الفتنة فرصة صالحة للانتقام

(84) الذخيرة (54/1/4).

(85) الذخيرة (55/1/4).

(86) الذخيرة (54/1/4).

من صاعد، بعد أن ذاقوا من سخريته ولسانه الكثير. وانتهت مأساة صاعد أيام هشام المؤيد بفراره من قرطبة مستخفيا في أوائل سنة 403هـ، تاركا بعض أهله وولده، وتوجهه إلى صقلية حيث اتصل بصاحبها. وهناك فارق بعض البؤس، واستعاد بعض النعمة، حسب ما يتضح من أسفاره اللاحقة، لا مما ورد في قول ابن بسام: «فخرج مستخفيا، وجاز بشلطيش على يد أبي زبيد البكري رئيسها سنة ثلاث وأربع مائة. فاتصل بصاحب صقلية، وفارق البؤس، وراجع النعمة» (87).

ولم تطل إقامة صاعد في صقلية على ما يبدو، فقد عاد العالم الشيخ إلى قرطبة، بعد تغلب سليمان المستعين عليها في شوال سنة 403هـ، وقتله للخليفة هشام، وجلوسه من جديد خليفة على الأندلس. وقد ذكر ابن بسام أن صاعدا عاد من صقلية إلى الأندلس ليستخرج «من تخلف بها من أهله وولده» (88)، لكن طمعه في عطاء الخليفة الجديد سليمان المستعين، يوحي بأنه كان متعلقا بقرطبة وفضلائها، وإن كان كثير منهم قد نكبوا.

وقد نقل ابن بسام رسالة لصاعد بعثها إلى الوزير أبي جعفر بن الدب، ليشفع للوزير المنكوب عند الخليفة الجديد سليمان. وقد أشرت من قبل، إلى أن الوزير ابن مسلمة الذي كان مشرفا على رواتب الشعراء والندماء وشؤونهم في بلاط المنصور، هو الذي أوصل صاعدا إلى الحاجب، عندما وصل إلى الأندلس سنة 379هـ قادما من المشرق. فهل كان صاعد يرجو من عودة الوزير المنكوب إلى الوزارة عودة مجده وثرائه في قرطبة؟ لا نستبعد ذلك، فصاعد قد حاول أن ينوه بكل خصال الرئاسة التي اتسم بها الوزير، ليقنع الشفيع بالشفاعة له لدى الخليفة سليمان، كما

(87) الذخيرة (55/1/4).

(88) الذخيرة (55/1/4).

يتضح من الرسالة التي كتبها إلى ابن الدب، يقول ابن بسام: «اتصل أول دخوله للأندلس، بالوزير عبدالله بن مسلمة. فلما نكب استعطف له الوزير أبا جعفر بن الدب ليشفع له عند الخليفة سليمان، وخاطبه في ذلك بعدة رسائل... منها فصل يقول فيه: «لما جمع الله طوائف الفضل عليك، وأدلق بك الألسن، ونُفِضَتْ إليك علائق الرِّحال، لم أجد لابن مسلمة حين عَصَّه الثقافُ، وضاق به الخناقُ، وانقطع به الرجاء، وكبا به الدهر ملجأً غيرك. فعطفك على واله نبَّهه النحسُ من سِنَّة السعد، وأيقظته الآفاتُ من رقدة الغفلة، ورشقته سهامُ الزمان. بصنوف الامتهان، حتى لَقِبَ المنية أمنيَّةً، وسمى الموت فوتاً.... فحنَّانك عليه وعليَّ فيه، وأذكرُ تعلق الآمال به، وتعلق أمله بك، وحاجة الرؤساء إليه، وحاجته إليك» (89).

وإشارة صاعد إلى تعلق آماله بابن مسلمة، وتعلق أمل ابن مسلمة بالوزير الشفيع، يؤكد أنه كان ينتظر من عودة ولي نعمته الأول الوزير ابن مسلمة إلى الرئاسة عودة نعيمه وثرائه، لكنه كان متخوفاً من أن تكون الرسالة التي بعثها إلى ابن الدب متشفعا عاجزة عن إقناعه، لذا نجده يخاطبه في خاتمة الرسالة قائلاً: «فإن خبتُ من طلابك نثرًا، قلت نظاماً (كامل):

- 1 - يَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ الْعَلَمِ الَّذِي
أَوْفَى فَللْحَدِثَانِ عَنْهُ زَلِيلُ
- 2 - أَخَذَ الْعِقَابَ مِنْ ابْنِ مُسْلِمَةَ الَّذِي
حَكَمَ الْقَضَاءُ بِهِ وَغَالَتْ غَوْلُ
- 3 - لَمْ تَبَقْ غَيْرُ حُشَّاشَةٍ إِنْ أُذِرَكَتْ
خَلَصْتُ وَإِنْ أَسْلَمَتْ فَهُوَ قَتِيلُ

- 4 — بيدك بعد الله فكُ إساره
وعليك في استنقاذه التعويلُ
- 5 — فارحم أنينَ أبي بناتٍ لم يُصَبِّ
لدموعهن على الخدود مَثِيلُ
- 6 — فاجعله في عيني يدك فإنها
سورٌ تحوطُ المستجيرَ وغيلُ
- 7 — ما ذنبُه إلا الزمانُ فإنَّه
رخوُ اليدين بمن يُحبُّ ملولُ⁽⁹⁰⁾

ولم يكن تخوف صاعد من أن يرد ابن الدب شفاعته وهماً، فقد كانت هذه الرسائل كما قال ابن بسام «رُقَى لم تنفع، ووسائل لم تنجع».⁽⁹¹⁾

ولم تكن حاله مع الخليفة سليمان المستعين بأحسن منها مع الوزير ابن الدب، فقد «تعرض أيضاً لمديح سليمان، فما نجح معه ولا أفلح؛ وقد كان استطرف أول دولته قَرَّيْمَه رِثْمَان العُلُوقِ، ولم يَقْرِه قَرَضاً، لاستحالته عن فعل الجميلِ جُمْلَة».⁽⁹²⁾ لقد وجد صاعد نفسه وقد خاب ظنه في سليمان مرغماً على أن يرحل من جديد عن قرطبة، إلا أن رحيله هذا لم يكن رحيل فرار، كما فعل أيام هشام، لكنه رحيل أديب يئس، كما يئس من مكث في قرطبة من الأدباء، من نوال خليفة تشهَّى المديح وخاف من صلة المادح، فكانت فترة ولايته فترة احتضار الأدب، في مدينة نبغ فيها أكبر أدباء الأندلس: «لما استوسق الأمرُ بقرطبة لسليمان... تعرض لمدحه من كان ثوى بقرطبة يومئذ من بقية الشعراء العامريين، رجاءً في ثَمَدِ نواله، فصاغوا في مديحه أشعاراً حسنة، استذموا

(90) الذخيرة 11/1/4.

(91) الذخيرة 10/1/4.

(92) الذخيرة 54/1/4.

فيها إلى الدين والمروءة، وأنشدها أكثرهم في مجلس حفله علانية؛ فأصغى وهشَّ ثم غل المديح، فما بلَّ ولا رشَّ. وتم لذلك تقويضُ الجماعة عن حضرة قرطبة، وتخلَّى الكثيرُ منهم عن ولايته، فأمَّحى لذلك ررسمُ الأدب بها، وغلب عليها العجمة، وانقلب أهلها من الإنسانية المتعارفة إلى العامية الصريحة».(93)

رحل صاعد إذن عن قرطبة للمرة الثانية، فكان رحيله عنها شاهداً على تقوض الصرح العلمي والأدبي الشامخ الذي بناه الناصر والحكم والحاجب المنصور، وهو الصرح الذي لم يجد من بين كل رجال السياسة اللاحقين من يستطيع إعادة بنائه.

(3) الهجرة الجديدة والبحث عن المجد الضائع :

(أ) في بلاط مجاهد العامري :

ذكر ابن بسام أن صاعدا عجل الانكفاء إلى صقلية،(94) بعد يأسسه من ثمند سليمان المستعين. والتاريخ يذكر أن سليمان المستعين تولى الخلافة للمرة الثانية من شوال سنة 403هـ، إلى أن بويغ علي بن حمود بالخلافة في محرم سنة 407هـ. والراجح أنه - اعتماداً على إشارة ابن بسام، إلى معاودة صاعد للنعمة - سيكون قد غادر قرطبة سنة (404هـ أو 405هـ). لكن وجهته لم تكن نحو صقلية، كما قال ابن بسام، فبعض الأخبار التي تتضمنها مصادر قريبة من عصر صاعد، تفيد أنه وفد على مجاهد العامري الذي استقل بدانية، ثم على منذر بن يحيى التجيبي، قبل أن تنقطع أخباره. وإذا كنا قد رجحنا أنه غادر قرطبة سنة (404 أو 405هـ)، فإن ذلك يعود إلى موضوع رسالة بعثها إلى مجاهد العامري يهنئه بالانتصار على خيران، الذي استقل بالمرية سنة 405هـ.

(93) الذخيرة 1/1/67.

(94) الذخيرة 4/1/55.

فإذا كان صاعد قد كتب هذه الرسالة، ليتقرب إلى مجاهد تمهيدا للوفود عليه، فإنه سيكون قد مكث في قرطبة إلى ما بعد سنة 405هـ، وهي السنة التي تولى فيها خيران الحكم بالمرية. وإذا كان قد كتب هذه الرسالة وهو بدانية عند مجاهد، فإنه من المحتمل أن يكون قد غادر قرطبة سنة 404هـ إلى دانية، حيث أقام إلى ما بعد تأسيس خيران لإمارته سنة 405هـ. وأيا كان تاريخ الخروج من قرطبة، فإن صاعدا غادرها متجها نحو دانية، لا نحو صقلية. ويبدو أن بلاط مجاهد العامري الذي أصبح بعد استقلاله بدانية غاصا بأهل العلم والأدب أمثال ابن سيده، قد جذب إليه صاعدا، وأغراه باستعادة مجده الضائع. وكما استتقل أدباء قرطبة وفود صاعد على المنصور، استتقل بعض أدباء بلاط مجاهد العامري وفود هذا الضيف المشرقي على أميرهم، فابن خلكان يذكر أن صاعدا «لما دخل مدينة دانية، وحضر مجلس الموفق مجاهد بن عبد الله العامري أمير البلد، كان في المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفق: دعني أعبت بصاعد. فقال له مجاهد: لا تتعرض إليه فإنه سريع الجواب. فأبى إلا مشاكلته. فقال له بشار - وكان أعمى -: يا أبا العلاء. فقال: لبيك، فقال: ما الجرنفل في كلام العرب؟ فعرف أبو العلاء أنه قد وضع هذه الكلمة، وليس لها أصل في اللغة. فقال له بعد أن أطرق ساعة: هو الذي يفعل بنساء العميان، ولا يفعل بغيرهن، ولا يكون الجرنفل جرنفلا حتى لا يتعداهن إلى غيرهن. وهو في ذلك كله يصرح ولا يكتفي. قال: فخلج بشار وانكسر، وضحك من كان حاضرا. فقال له الموفق: قلت لك لا تفعل، فلم تقبل». (95) ولا نعلم بالتدقيق كيف كانت علاقة صاعد بمجاهد وأدباء دانية، ولكننا نطمئن إلى أنه مكث بها إلى ما بعد 408هـ، وهي السنة التي ظهرت فيها إمارة التجيبين في

(95) وفيات الأعيان 2/182.

سرقسطة. ولعل هذه الإقامة الطويلة نسبيا في دانية، كانت فرصة مكنت صاعدا من استئناف إملاء دروسه على الراغبين في الأخذ عنه، من الأدباء والتلاميذ. ففي دانية روى ابن سيده عن صاعد كما سنرى. ولا نعلم أيضا السبب الذي جعل صاحب الفصوص يترك دانية بعد استقراره بها، لكن ما يروى عن مبالغة مجاهد الذي كان من أكثر ملوك الطوائف علما وأدبا في نقد أشعار مادحيه وتصحيح أخطائهم، يمكن أن تكون السبب الذي جعل صاعدا يترك دانية.

(ب) في بلاط منذر بن يحيى التجيبي :

استقر هذا الأمير بسرقسطة سنة 408هـ، وقصده ابن دراج في هذه السنة نفسها، وأقام عنده وعند ابنه من بعده حوالي عشر سنوات، خرج بعدها من سرقسطة ليظهر سنة 419هـ بدانية في بلاط مجاهد العامري. ويهمنا من ابن دراج ونحن نتحدث عن خروج صاعد من دانية، أنه نظم مدحة في منذر بن يحيى هناك فيها بوفود صاعد البغدادي عليه، كما يتضح من الديوان، ومن قول ابن بسام وهو يتحدث عن قصائد ابن دراج: «وله من أخرى في منذر بن يحيى حين قدم عليه صاعد اللغوي: (طويل)

1 - عَلَا فَحَوَى مِيرَاثَ عَادٍ وَتُبَّعَ
بِهَمَّتِهِ الْعُلْيَا وَنَسَبَتِهِ الدُّنْيَا

2 - وَأَهْدَتْ لَهُ بَغْدَادُ دِيوَانَ عِلْمِهَا
هَدِيَّةَ مَنْ وَالَى وَتُحْفَةَ مَنْ حَيَّى (96)

(96) الذخيرة 71/1/1، وانظر ديوان ابن دراج 143.

واعتبارا لكون التاريخ المحتمل لوفاة صاعد هو 417هـ، كما يذكر ابن حزم، وكون ابن دراج قد وصل إلى سرقسطة سنة 408هـ، يجب أن يكون تاريخ وفود صاعد على منذر غير متأخر عن 417هـ، ولا سابق على 408هـ. ومراعاة لكون القطيني الذي رحل إلى صقلية سنة 414هـ (97) قد روى عن صاعد بها قبل أن يستأنف رحلته إلى المشرق، يجب أن يكون تاريخ وفوده على منذر بسرقسطة قبل سنة 414هـ، وبعد سنة 408هـ. وإذا نحن قابلنا هذا التحديد بكون ابن سيدة قد أخذ عن صاعد وهو في دانية مقرر حكم مجاهد العامري، وبكون صاعد قد أملى شعر ابن حجاج وابن سكرة وهو بسرقسطة، أمكن التوصل إلى تاريخ تقريبي لخروج صاعد من دانية وفوده على منذر بسرقسطة.

تشير المصادر إلى أن ابن سيدة توفي سنة 458هـ، وقد بلغ الستين، وهي إشارة تجعل تاريخ ميلاده ضمنيا قريبا من 398هـ، أي قبيل الفتنة القرطبية. فإذا نحن نظرنا إلى نوع الكتب التي صرح ابن سيدة بأنه رواها عن شيخه صاعد وهي: الصفات والأسماء، والغريب المصنف، وإصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ، وكتب المجاز، وافترضنا أن ابن سيدة قد أنهى أخذه عن صاعد وهو في الرابعة عشرة من عمره بعد انتهائه من حفظ القرآن، ودراسة علومه وروايته الموطأ والبخاري ثم كتاب سيبويه، فإن خروج صاعد من دانية سيكون سنة 412هـ، أي بعد انتهاء ابن سيدة من الأخذ عنه، وبعد سنة 410هـ التي أشار إليها بعض المؤرخين باعتبارها تاريخ وفاة صاعد بصقلية.

(97) الذيل والتكملة القسم الخامس - السفر 2 - صفحة 518.

خرج صاعد إذن من دانية سنة 412هـ، قاصدا منذر بن يحيى أمير سرقسطة؛ ويبدو أنه قصد هذا الأمير تلبية لرغبته. وكان هذا الأمير الذي حصل بعض العلم معروفا بعنايته بالعلماء والشعراء. ويؤكد هذا الاحتمال أن ابن دراج جعل من وفود صاعد على منذر، مناسبة لتهنئته بأن ضم إلى مجالسه خير ديوان علم أهدته بغداد إلى الأندلس. (98)

ولا نعلم بدقة، المدة التي قضاها صاعد بسرقسطة، لكن خبرا قيما ينقله ابن خير، يفيد أن صاعدا كان يقيم مكرما بهذه الحاضرة، وهو ضيف على ابني غصن خالي الوزير ابن أرزاق، وعلى صديقه ابن الكتاني صاحب التشبيهات، الذي كان صاعد قد عرفه في بلاط العامريين في قرطبة، أيام خدمته للمنصور وابنه المظفر، وقبل أن ينتقل إلى سرقسطة ليستقر بها. ولعل الاطمئنان الذي أحس به صاعد وهو بسرقسطة، هو الذي جعله رغم كبر سنه يعود إلى مرجه، مؤثرا أن يملي على صبيانها والراغبين في الأخذ عنه من الأدباء، شعر ابن حجاج على ما فيه من مجون: «قال أبو بكر المصحفي: وفي شعر ابن حجاج المذكور مجون كثير، وكان يسمعه معنا عليه شيخ من بني مفرج... وإدريس بن اليمان الشاعر، وكان صاعد يطيب فيهم من أجل شيخهم ويقول لي أمامهم: ألا ترى أي صبيان يقرؤون علي شعر ابن حجاج. وكان سماعي له بقراءة ابني غصن خالي الوزير أبي عمر ابن أرزاق؛ وكان صاعد ينزل عليهما، وعلى الشيخ الحكيم أبي عبد الله ابن الكتاني شيخي رحمه الله بمدينة سرقسطة، فصادفتها يقرآن عليه الشعر المذكور فسمعتهم بقراءتهما». (99) والعبرة الأخيرة في النص، تفيد أن أبا بكر المصحفي - الذي كان قد قرأ المداخل على

(98) انظر القصيدة في الديوان ص: 134.

(99) فهرسة ابن خير ص: 406.

ابن خشخاش بحضور صاعد، لأن صغر سنه كان يمنعه من أن يقرأ عليه مباشرة - قد وجد في إقامة صاعد بسرقسطة ما بين 412هـ و414هـ مناسبة للرواية عنه مشافهة في سن التحمل، كما روى عنه والده أبو الوليد المصحفي من قبل.

(ج) غربة النهاية :

تتفق جل المصادر التي ترجمت لصاعد على أنه خرج من الأندلس قاصدا صقلية، حيث كانت وفاته. وانفرد ابن بسام من بين كل المؤرخين، بالإشارة إلى أنه خرج من الأندلس إلى صقلية سنة 403هـ، مستخفيا خوفا من الخليفة هشام المؤيد، وأنه عاد إلى قرطبة في أول خلافة سليمان الثانية، ليصطحب من كان قد تخلف وراءه من أهله وولده. وجعل وفاته ككل المؤرخين بصقلية. وإذا كان صاعد قد قصد صقلية وتوفي بها، فإن حياته بهذه الجزيرة تظل مجهولة، فالمصادر لا تمدنا بالأخبار التي يمكن أن نعرفنا بنوع الحياة التي عاشها صاعد في صقلية، ونستثني من ذلك إشارة عابرة ذكر فيها ابن بسام أن صاعدا فارق البؤس، وراجع النعمة بصقلية في رحلته الأولى إليها، وإشارة ثانية ذكر فيها صاحب الذيل والتكملة أن القطيني «رحل إلى صقلية سنة أربع عشرة وأربع مائة، فأخذ بها عن أبي العلاء صاعد بن الحسن...» (100) ونستأنس بما ورد في هذه الإشارة الثانية عن تلمذة القطيني لصاعد في صقلية، لنرجح أن صاحب الفصوص قد تفرغ في السنين الأربع الأخيرة من حياته بعد رحيله إلى صقلية،

(100) الذيل والتكملة - القسم الخامس - 518/2.

إلى إملاء مرويّاته على من يحل بهذه الجزيرة من الأندلسيين، قبل إتمام الرحلة إلى المشرق.

وإذا كانت جل المصادر قد اتفقت على أن وفاته كانت بصقلية، فإن نفس المصادر قد اختلفت في ذكر تاريخ وفاته. فالحميدي وابن بسام وعبد الواحد المراكشي والقفطي يجعلون وفاته سنة 410هـ، بينما ينقل ابن بشكوال إشارة ابن حزم إلى أن وفاته كانت سنة 417هـ،⁽¹⁰¹⁾ وإلى هذا التاريخ ذهب الضبي وياقوت وابن خلكان والصفدي والذهبي وابن حجر وابن العماد والخوانساري. ورغم ورود سنة 410هـ عند الحميدي وابن بسام، باعتبارها سنة وفاة صاعد، يظل التاريخ الذي ذكره تلميذه ابن حزم، أقرب إلى الصحة، لأن القطيبي لم يرو عن صاعد بصقلية إلا عند رحلته إليها سنة 414هـ، كما ورد في الذيل والتكملة.

مات صاعد خارج الأندلس بعد أن خلد اسمه فيها، ولا نعلم أكان صاعد قد أحس بأن طول مقامه بالأندلس قد أخلق ديباجتيه فاغترب من جديد ليتجدد، أم كان قد فكر في أن يجعل الحلول بصقلية تمهيدا للعودة إلى بغداد؟ لكننا نعلم أنه مات غريبا، بعد أن شرف اسمه مجالس البويهيين والعامريين.

(101) ورد في إنباه الرواة، رواية عن ابن حزم، أن صاعدا توفي سنة تسع عشرة وأربعمائة، والراجح أن تسع عشرة تصحيف لسبع عشرة.

ثانيا : صاعد الأديب :

I - تصحيح وهم :

لم تختلف معظم المصادر التي ذكرت صاعدا في وصفه بأنه كان عالما باللغة والآداب والأخبار، ورغم اعتراف المؤرخين له بفضيلة العلم، اعتبر بعضهم القصة التي تحدثت عن تعجيز العاصمي والزبيدي للوافد المشرقي في بعض مسائل النحو والصرف،⁽¹⁰²⁾ شاهدا على أنه كان مقصرا في هذين الفنين، وكان القفطي ممن آمنوا بأن صاعدا كان مقصرا في النحو غير صاعد؛⁽¹⁰³⁾ ولعل هذا التصور استقر عند بعض المحدثين. وعندما نقف على الخبر الذي يفيد أن صاعدا عجز عن أن يجيب عن مسائل من كتاب سيبويه سألها عنها العاصمي،⁽¹⁰⁴⁾ نجد الخبر لا يذكر المسائل النحوية الغامضة التي قصر فيها، رغم أن الأخبار التي نقلت عنه، تضمنت معلومات لا أهمية لها من حيث دلالتها على شخصية صاعد العلمية.

أما المسألة الصرفية التي ظهر فيها قصور صاعد - حسب ما ترويها المصادر - فهي وزنه «أولق» على «أفعل». وقد نقلت الرواية أن الزبيدي اعتبر صاعدا ممخرقا، لما وزن «أولق» على «أفعل». ومفهوم كلام الزبيدي أن وزن هذه الكلمة هو «فوعل» لأن المادة المعجمية هي «ألق». إلا أن الوزن «أفعل» الذي جعله صاعد مقابلا «لأولق»، لم يكن غريبا عن العلماء في المشرق، ففي مادة (ألق) نجد في اللسان «قال الجوهري: وإن شئت جعلت الأولق أفعل». (105) وفي مادة «ولق» نجد: «والأولق كالأفكل، الجنون،

(102) انظر الخبر في الذخيرة 4 - 14/1.

(103) إنباه الرواة 88/2: «وكان صاعد غير صاعد في النحو مقصرا».

(104) الذخيرة 4 - 14/1.

(105) لسان العرب: مادة ألق.

وقيل: الخفة من النشاط كالجنون، أجاز الفارسي أن يكون أفعل من الولق الذي هو السرعة، وقد ذكر بالهمز... قال ابن بري: قول الجوهري وهو أفعل لأنهم قالوا ألق الرجل، سهو منه وصوا به وهو فوعل، لأن همزته أصلية بدليل ألق ومألوق، وإنما يكون أولق، أفعل، فيمن جعله من ولق يلق إذا أسرع. فأما إذا كان من ألق إذا جن فهو فوعل لا غير». (106) فالوزن «أفعل» الذي جعله صاعد مقابلاً لأولق، لم يكن خطأ ولا تقصيراً عن معرفة فوعل، لكنه كان اختياراً لما أجازته شيخه أبو علي الفارسي ومعاصره الجوهري. وهو اختيار يدل على التطور الذي عرفته المدرسة البغدادية، في النصف الثاني من القرن الرابع، متجاوزة (107) المدرسة الأندلسية التي وقف العلم فيها لدى تلامذة القالي عند المعارف التي نقلها إليهم شيخهم. أما صاعد فقد نقل في فصوصه عن هذا الاختبار في علم الصرف، ما يخالف (108) الخبر الذي نقلته المصادر.

II - صاعد التلميذ :

1) التلمذة الأولى :

لا تمدنا المصادر بأي خبر يمكن أن يساعدنا على معرفة الوسط العلمي الأول الذي استمد منه صاعد معارفه الأولية، ونستثني من ذلك خبراً واحداً يشير فيه القفطي إلى أن صاحب الفصوص قرأ ببلاطه الموصل اللغة على مشايخها، وحفظ منها الكثير، وتفنن في فنون من الأدب. (109) وإذا كان من الصعب الجزم

(106) لسان العرب: مادة ولق.

(107) ألف أبو العلاء المعري، رسالة بأكملها هي رسالة الملائكة، لتتبع مثل هذا الخلاف الصرفي.

(108) انظر الخبر في الفصوص ص: 292 - 295.

(109) إنباه الرواة 2/85.

بأن ارتباط صاعد بالبيئة العلمية في الموصل يعود إلى نشأته بهذا البلد، فإن افتراضنا نشأته في إحدى المناطق القريبة من الموصل سيكون مفسرا للعلاقة التي ربطته بمشايقها بعد انتقاله إليها للتحصيل المنظم. ولم تكن العلوم والآداب في ديار الموصل، بل وفي باقي أقاليم الدولة العربية الإسلامية بالمشرق، بأقل ازدهارا منها في بغداد. فالموصل كانت البيئة العلمية التي أمدت بلاط بني حمدان بكثير من العلماء والأدباء؛ ويكفي أن نذكر من الأعلام الذين نبغوا في هذا البلد، بعض من ذكرهم الثعالبي في يتيمة. (110) واستئناسا بما كان رائجا في الموصل من معارف وعلوم، يمكن الاطمئنان إلى أن صاعدا لم يغادر هذا البلد إلى بغداد أو غيرها، إلا بعد أن كان قد حصل في مجالسها العلمية المعارف الأولى التي تعود للتلاميذ والمتأدبون تحصيلها، وأقصد دراسة علوم القرآن والحديث واللغة والقصص والأخبار، ورواية أشعار القدماء، فضلا عن رواية أشعار المحدثين. وسيتبين من خلال دراستنا المقتضية للفصوص، أن قسما غير قليل من المادة العلمية التي كونت الفصوص، يعود إلى ما حصله صاعد في هذه البيئة العلمية المائلة إلى التبدي.

(2) مجالس العلم في بغداد :

لم تذكر المصادر السبب الذي جعل صاعدا ينتقل إلى بغداد، ولا تاريخ دخوله إليها؛ وبينما تظل إشارة عز الدين بن الأثير إلى أنه رحل إلى الأندلس قادما من الموصل، افتراضا يؤكد جهل هذا المؤرخ لأخبار صاعد، تظل عبارة: «ودخل بغداد» التي ترد في المصادر الأخرى، عاجزة عن أن تكون دليلا على إحاطة باقي

(110) انظر يتيمة الدهر 2/117.

المؤرخين بالأخبار الدقيقة المتعلقة بالمراحل الأولى لحياة صاعد في المشرق.

وإذا كانت أسماء المراكز العلمية التي يشير صاعد في فصوصه إلى أخذه بها، تمنعنا من أن نجزم بكونه وصل إلى بغداد قادما من الموصل، دون أن يعرج على أي بلد آخر، فإن ما يصرح به صاعد نفسه في ديباجة الفصوص، يفيد أنه حل ببغداد ليتلمذ على شيوخ العلم بها، وهو ما يزال في سن التحصيل: «وإني غيسان صباي» (111).

ولا تنفي هذه المعارف التي يشير صاعد إلى أنه حصلها في بغداد، كونه قد حصل بعضها في الموصل، فدراسته في بغداد كانت دراسة تعمق وتخصص واستكمال تحصيل. وقد أشار ياقوت إلى ما عرف عن بغداد من أن من يطيل الإقامة بها يزداد سعة في عقله، (112) وأظن أن الزيادة في العقل التي كان المنتقل إلى بغداد يشعر بها، لم تكن إلا تعبيراً عن الكفاءة التي توافرت لعلماء بغداد وشيوخها في عصور ازدهارها. إن صاعدا يذكر في ديباجة الفصوص أنه لزم القاضي أبا سعيد السيرافي، وأبا علي الفارسي، حتى استظهر كتب اللغة المتعاصرة الأمهات الثلاث: الغريب المصنف، وإصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ؛ واستظهر كتب الأصمعي، وأبي زيد، وابن الأعرابي، ودواوين الجاهلية (113)...

فهل كان تحصيله في بغداد مقصوراً على ما ذكره في الديباجة. إن المصادر الكثيرة التي ينقل عنها صاعد في فصوصه، تؤكد أن ما حصله كان غزيراً. وغزارة ما حصله تجعلنا نقنع بأن دراسة المصنفات القليلة التي يشير إليها في مقدمة كتابه، ليست إلا

(111) الفصوص ص: 1 ب.

(112) معجم البلدان: مادة موصل.

(113) انظر الفصوص ص: 1 ب.

دراسة تخصص وتعمق وتهيؤ لغزو مجالس الأنس والدرس في قصور بغداد.

إن شخصية صاعد العلمية، التي يكشف عنها كتابه الفصوص، وتكشف عنها رسائله وأشعاره، تفيد أن مجالس بغداد العلمية والأدبية المتنوعة بعدها وتخصصها، قد ساهمت في تكوين صاعد العالم الأديب. وما المشاركة التي عرف بها كثير من علماء بغداد كالسيرافي مثلاً، إلا نموذج للغاية العلمية التي سعى إليها جل العلماء الذين قصدوا مجالس الدرس في هذه الحاضرة العلمية.

(3) التحصيل خارج بغداد :

لم تكن مجالس الدرس ببغداد رغم شهرة شيوخها وعلمائها، لتمنع صاعداً من السفر إلى غيرها من المراكز العلمية قصد الأخذ عن غير شيوخ بغداد من العلماء والأدباء. ورغم أن المصادر التي ترجمت له، لا تشير مطلقاً، إلى أية سفرة من سفراته، عدا رحلته إلى الأندلس ورحلته إلى صقلية، يمدنا صاعد نفسه من خلال أسانيده، ومن خلال ذكر المكان الذي سمع به عن الشيخ، بما يؤكد أنه كان يسافر كثيراً طلباً للعلم، أو مصاحبة لبعض الحكام. ومن المراكز العلمية غير القليلة التي سمع بها صاعد، أذكر:

(أ) البصرة: وقد روى بها عن أبي الحسن الأزدي، كما يتضح من قوله: «حدثني أبو الحسن بالبصرة، قال...» (114) ووردت الإشارة إلى سماعه بها أيضاً، عن ابن سابط: «وأنشدني ابن سابط بالبصرة قال...» (115).

114) الفصوص ص: 88 ب.

115) الفصوص ص: 104 أ.

(ب) **الموصل:** يورد صاعد في الفصوص شعرا أنشده إياه بالموصل أبو عثمان الخالدي: «أنشدني أبو عثمان الخالدي بالموصل لبعضهم...» (116) ويورد في فص آخر ما أنشده أبو الحسن السميّسّاطي بالموصل أيضا: «أنشدني أبو الحسن السميّسّاطي بالموصل للجمل المصري...» (117)

(ج) **واسط:** ترد الإشارة إلى سماعه بها في قوله: «حدثني أبو يعقوب الأهوازي الضرير بواسط، قال...» (118)

(د) **الرقّة:** يشير إلى سماعه بها في قوله: «أنشدني أبو المقداد الكلبي بالرقّة لنهشل...» (119)

(هـ) **الأبلة:** يشير إلى سماعه بها من أبي العباس بن نصير المحدث: «وحدثنا أبو العباس بن نصير المحدث، بالأبلة قال...» (120)

(و) **الأهواز:** وقد وردت الإشارة إلى سماعه بها في قوله: «وحدثني الخصيبي بالأهواز، قال...» (121)

(ز) **دمشق:** وردت الإشارة الصريحة إلى سماعه بها في قوله: «حدثني علي بن حمزة العلوي بدمشق قال...» (122)

(ح) **زبالة:** وهي منزل بالبادية على طريق مكة من الكوفة، وقد أشار صاعد إلى سماعه بها عن شيخ من خفاجة: «أنشدني شيخ من خفاجة على ماء زبالة، يقال له أبو جندب، وكان من فصحاء العرب وفرسانهم، واستنشدته شيئا أخذه عنه، فأنشدني...» (123)

116 (الفصوص ص: 67 أ.)

117 (الفصوص ص: 91 ب.)

118 (الفصوص ص: 78 أ.)

119 (الفصوص ص: 77 أ.)

120 (الفصوص ص: 78 أ.)

121 (الفصوص ص: 32 أ.)

122 (الفصوص ص: 60 ب.)

123 (الفصوص ص: 92 ب.)

ط) **ففيد**: وهي بلدة في نصف الطريق بين مكة والكوفة، وقد سمع بها صاعد ما أخبره به أبو ماعز القرمطي: «قال لي أبو ماعز بففيد: سمعنا...» (124)

ي) **اليمن (الجريب، زبيد)**: وردت الإشارة إلى سماعه باليمن، دون تحديد البلدة، وإن كان قد وصف الذي حدثه بأنه صاحب الجريب والخوقع والكلائح: «وسمعت باليمن الآخر، أبا حميضة شرحبيل بن سلامان الإباضي صاحب الجريب والخوقع والكلائح عن فرعان...» (125) كما وردت الإشارة الصريحة إلى سماعه بزبيد، في قوله: «أنشدني يوسف بن الضحاك في مسجد الأشعرين بزبيد، وكان قاضيا، لعلية بنت المهدي...» (126) وورد ذكر زبيد مرة ثانية في قوله، في فص آخر: «قال صاعد: قال همام بن غالب الضرير بزبيد... قال لي أبو بكر بن دريد...» (127)

والمقارنة البسيطة بين مواقع هذه المراكز العلمية والمنازل التي سمع بها صاعد، تفيد أنه كان يتحرك طلبا للعلم والرواية، بين الشام والعراق واليمن وشرق فارس، وشمال الجزيرة، غير مبال ببعد المسافة بين هذه المناطق. وقد يكون ورود ذكر زبالة وفيد الواقعتين في طريق مكة من الكوفة، شاهدا على أنه سمع بهما وهو في طريقه إلى الحج، لأن المصادر لم تشر إلى ما يتعلق بأدائه فريضة الحج. إلا أن وصفه للشيخ الخفاجي الذي سمع منه بزبالة بأنه كان من فصحاء العرب، (128) وإشارته إلى أن أبا ماعز الذي لقيه بففيد كان من القرامطة - والقرامطة كانوا بدوا، - ومنهم

124) الفصوص ص: 92 ب.

125) الفصوص ص: 177 أ.

126) الفصوص ص: 16 ب.

127) الفصوص ص: 31 ب.

128) الفصوص ص: 92 ب.

اكتسب الأزهري فصاحته، يجعلاننا نعتقد أن سماعه بزبالة وفيد، كان بحثاً عن مرويات الأعراب البداءة. ولم يكن هذا غريباً في عصر تعود فيه العلماء أن يخرجوا إلى البوادي للبحث عن اللغة الفصيحة السليمة. (129) وقد صرح صاعد نفسه في الفصوص بما يفيد أنه كان يعتبر مرويات الأعراب البداءة أقوى مما يرويه علماء الحواضر: «وأنشدني (130) أيضاً له، (131) وكنا قد قرأناه على أبي سعيد رحمه الله فيما رواه عن أبي عبيدة لعبيد بن أيوب، ورواية شرحبيل أثر في نفسي، لأن العرب أعرف بأشعار العرب من الحاضرة...» (132) وعندما يورد صاعد ما في معنى «خال مال» من الاستعمالات اللغوية غير المشهورة، يحتجّ لما أورده بأنه سمعه من الأعراب الفصحاء: «... وإنه لزر مال وحبل مال.... هذا سماعي من أبي الشيخ العقلي، وكان من فصحاء عقيل...» (133)

وترجيحه لرواية شرحبيل على رواية شيخه أبي سعيد السيرافي ترجيحاً لرواية الأعرابي على الحضري، يؤكد أن خروجه إلى اليمن - وسماعه من شرحبيل كان باليمن - كان طلباً للفصاحة عند البدو الصرحاء، بعيداً عن الحواضر التي أفسد الاختلاط بين الأجناس فيها اللسان العربي، وأشاع فيها اللحن والعجمة. وإذا كانت أسانيد صاعد في فصوصه، قد جعلتنا نتأكد من أن تحصيل صاعد لم يكن مقصوراً على الأخذ والسماع ببغداد وحدها، فإن تحديد التاريخ الدقيق لسماعه ممن روى عنهم خارج بغداد، يظل غير متأت. فإشارته مثلاً إلى أنه روى شعر فرعان (129) انظر مثلاً الأخبار المتعلقة بخروج أبي الطيب إلى البادية، وأسر القرامطة للأزهري.

(130) المقصود شرحبيل.

(131) المقصود فرعان.

(132) الفصوص ص: 77 ب.

(133) الفصوص ص: 125 أ.

عن شرحبيل، بعد أن كان قرأه على أبي سعيد السيرافي ببغداد منسوباً إلى عبيد بن أيوب، يفيد أنه لم يخرج من بغداد إلى البادية - في أضعف الاحتمالات - إلا بعد أن استكمل تحصيله ببغداد. أما عن تاريخ أو تواريخ عودته إلى الموصل التي سمع بها قبل رحلته إلى بغداد، فلا نعرف إلا التاريخ الذي رافق فيه الملك البويهى عضد الدولة أبا شجاع فناخسرو، إلى هذه البلاد عندما ضمها إلى ملكه في ذي القعدة سنة 367هـ، وأقام بها مطيلاً الإقامة حتى ذي القعدة سنة 368هـ. وقد أشار صاعد ضمنياً إلى هذا التاريخ التقريبي، أي ما بين ذي القعدة 367هـ وذي القعدة 368هـ، في سياق حديثه عن المناظرة التي جرت بينه وبين قرموطة الشيرازي بحضرة عضد الدولة: «وكننت بحضرة أبي شجاع فناخسرو بالموصل، وكان معي قرموطة الذي تقدم ذكره... فقال لي أبو شجاع: كم تذكر من لغة في المهذار...» (134)

أما روايته بدمشق، (135) عن علي بن حمزة، صديق أبي الطيب المتنبى المتوفى سنة 375هـ، فتظل حافزاً - إذا ما ثبت أنها مبكرة - على التساؤل مرة أخرى عن علاقة صاعد بالشاعر صاعد الدمشقي الذي وفد على الوزير ابن يوسف مادحا، كما ورد عند الصفدي، (136) وذلك بعد أن كنا تساءلنا عن علاقة صاعد الدمشقي هذا، بنسبة «الطبري» التي وردت في ترجمة ابن بسام لصاعد صاحب الفصوص.

ونخلص من هذا إلى أن تلمذة صاعد لشيوخ العلم، لم تكن مقصورة على شيوخ بغداد وعلمائها، فشيوخ باقي الحواضر الإسلامية وشعراؤها وأعراب البادية، قد ساهموا كلهم في رسم

(134) الفصوص ص: 67 ب.

(135) الفصوص ص: 60 ب.

(136) الوافي بالوفيات 230/16.

صورة الشخصية العلمية لصاعد، قبل أن ينتقل إلى الأندلس ويؤلف الفصوص.

(4) تحصيل المناظرات :

وهو تحصيل خاص يتم في مجالس المناظرة أو من أجل مجالس المناظرة، وأقصد المناظرات الخاصة التي كانت تجري أمام كبار الحكام من الملوك والوزراء. فالتنافس الذي كان يحدث بين المتناظرين في هذه المجالس، كان يرغب العالم الراغب في التفوق على خصمه، على أن يظهر من معارفه وعلمه، ما انفرد أو كاد بتحصيله لعزته. وعند ظهور هذه المعارف العزيزة، في هذه المجالس الخاصة، يستفيد الحاضرون من العلماء، مما يظهره أصحابه من العلم المضنون به مضطرين. وقد أورد صاعد نفسه في فصوصه خبر المجلس الذي اختبره فيه الوزير أبو الفتح ابن العميد، واضطره إلى أن يظهر من العلم ما أجبر ممتحنه على التسليم له بفضل العلم. (137) كما أورد خبر المجلس الذي تفوق فيه أمام عضد الدولة البويهى على قرموطة الشيرازي، مظهرًا من العلم ما جعل الملك البويهى يفتخر به. (138) ومثل هذا التفوق على الخصوم في هذه المجالس كان يفرض على العالم أن يهيئ نفسه لهذه المناظرات المحتملة، بأن يحصل من العلم ما كان العلماء قبله قد استطاعوا به التفوق على مناظريهم. فالأخبار تذكر عن الأصمعي في حكاية مشهورة، أنه أثبت في أحد المجالس سعة علمه، بأن قام إلى فرس وسمى كل عضو من أعضائها؛ وصاعد يورد في الفصوص ما يفيد أنه اعتمد على نفس المحفوظ اللغوي الذي مكن الأصمعي قبله من التفوق، ليتفوق على مناظره في

(137) الفصوص ص: 42 ب. - 143 أ.

(138) الفصوص ص: 67 ب - 68 أ.

مجلس من المجالس، يحضره عضد الدولة أبو شجاع: «وكاثرني في الحفظ ذات يوم بحضرة فناخسرو أبي شجاع ببغداد، رجل يعرف بقرموطة، وكان حفظة للغة؛ وكان بين يديه في النوبة فرس، فقلت: أحفظنا للغة من قام إلى هذا الفرس فجعل أصبعه على كل عضو منه ومفصل، فسماه من أسفله إلى أعلاه. وسمته ذلك، فجباً عنه. فأمرني أبو شجاع بتسميته، ففعلت ذلك، فازددت عنده حظوة في منزلة، وزيادة في رزق». (139) والشبه واضح، بين القصة التي حكيت عن الأصمعي، وما حكاها صاعد عن نفسه، ولهذا الشبه، اعتبر الحافظ ابن حجر هذه الحكاية من المناكير التي أتى بها صاعد في كتابه الفصوص: «ومن مناكير ما أتى فيه أنه قال: كابرني في الحفظ... قلت: وهذه الحكاية مشهورة للأصمعي...» (140) وحكم الحافظ هذا، يعود إلى أنه كان يعتقد أن صاعدا انتحل الحكاية ونسب الحادثة إلى نفسه؛ والراجح أن صاعدا لم يقصد إلى انتحال هذه الحكاية، إذ مما يمكن أن يفسر به هذا التشابه، أن صاحب الفصوص كان قد هيا نفسه من قبل لمثل هذا المجلس العلمي الذي جلسه الأصمعي، بأن حفظ نفس المعجم الذي مكن الأصمعي من أن يبرهن على غزارة علمه.

وعندما سنحت الفرصة لصاعد، في مجلس عضد الدولة، بوجود الفرس، دفع منافسه قرموطة الذي كان يكاثره في الحفظ، إلى التنافس في تسمية أعضاء الفرس، وهو يعلم من قبل أنه سيتفوق عليه باستظهار نفس المعجم الذي كان قد حصله وحفظه، وهو يقرأ خبر الأصمعي. وليس يمنع اقتران خبر ما، بعالم ما، العالم المتأخر من أن يعيد خلق المناسبة التي تمكنه - رغبة في إظهار تفوقه وقصور منافسه - من الاستفادة من نفس

(139) الفصوص ص: 11 ب.

(140) الفصوص ص: 11 ب، ولسان الميزان 161/3.

المحفوظ اللغوي الذي مكن العالم السابق من التفوق. فإعادة استظهار معجم لغوي ما، ليس انتحالا، وإنما هو إظهار لكثرة المحفوظ، والمحفوظ اللغوي محصل مسموع غير مبتكر. وما كان صاعد الذي زاده تفوقه على قرموطة، حظوة لدى الملك ورزقا، ليتفوق لو لم يك قد وجه نفسه من قبل نحو تحصيل معارف لا تظهر فائدتها، ولا تجفى ثمراتها، إلا في مجالس المناظرة، أمام أولي الأمر، حيث لا ينفع العالم إلا سعة محفوظه. وقد أخبر صاعد عن نفسه في الفصوص، بعدة حكايات تؤكد أنه كان يجر منافسه إلى استظهار المحفوظ، في موضوعات كان قد تهيأ لها من قبل؛ وكان هذا التحصيل الخاص بالمناظرات سبيله إلى التفوق على خصومه من علماء الأندلس. ففي سياق الحديث مرةً عن وزن «أيل» أمام الزبيدي، يصوغ صاعد العبارة صياغة ينتهي فيها الكلام بشرح الأيّل بالقيم على المال، وهو الشرح الذي أوحى إلى خصمه الزبيدي بأن يسأله - لاختباره وتعجيزه - عما كان هو - أي صاعد - يهدف إلى أن يسأل عنه: «ولما وردتُ حضرة مولانا المنصور أبي عامر... أحبّ أن يعرضني على علماء مصره، ليعلمهم أن اصطناعه صادف مكانه... فاستحضر الزبيدي والعاصمي وأبا عمرو البصير وغيرهم من جهابذة العلم. ونازعني الكلام أبو بكر الزبيدي، إلى أن سألني عن وزن أَيْل فقلت: وزنه فَعْل... ثم سألني عن تصريفه في وجوه اللغة، فقلت: الأيل من الوحش... ويقال فلان أيل مال على وزن سيد، إذا كان حسن الإيالة وهي السياسة. ثم قال أبو بكر: إن أبا علي إسماعيل بن القاسم البغدادى رحمه الله، ذكر في هذا عدة أسماء - يعني في القيم على المال - فما الذي تحفظ فيه؟ فعددت له ثمانية عشر اسماً. فأقبل أبو بكر على مولانا المنصور أبقاه الله فقال: يامولانا لم أعلم أنني رأيت الذي رأيت، وإن أبا علي نفّض كتب المستنصر

رضي الله عنه، على تأليفه، فلم يورد في هذا المعنى إلا سبعة أسماء أو ثمانية، وقد عد هذا علي ثمانية عشر اسماً، إن هذا لحفظ عظيم». (141)

وينقل صاعد في فصوصه ما يفيد أنه كان يستفيد مما مكنه من التفوق في مجالس العلم ببغداد، للتفوق في مجالس المناظرة بالأندلس، كما يتضح من خبر المناظرة التي جرت بينه وبين خصمه أبي بكر الزبيدي أمام المنصور بن أبي عامر: «... ثم قلت للزبيدي: ما تذكر في الرجل؟ فذكر ما حضر ذكره. فقلت: عندي زيادات. فقال مولانا أيده الله: ليأخذ كل واحد منكما شيئاً من الرق، وليكتب ما يعرفه. فأخذت الرق وكتبت هذا الفصل كله... غير الحكاية (142) التي دارت لي بحضرة ابن العميد ببغداد، وهي تأتي في هذا الفصل إن شاء الله». (143)

وكما حصل صاعد من العلم ما هياه للتفوق في مجالس المناظرة، حصل من نفس المجالس علماً أفاده من غيره من العلماء الذين كانوا يحضرون هذه المجالس، بل إن بعض ما استفاده من العلم في هذه المجالس، كان مما أغنى كتابه الفصوص، وزاده طرافة: «وكنت يوماً عند أبي الفضل بن العميد بالري، فدخل إليه حاجبه يعرفه أن أبا علي بن البيع تولى في هذا اليوم النظر في العرافة، والحسبة، والتفتيش، والربع، والمصادرة، والإشراف على دار الضرب. فضحك من ذلك، وقال: أترى يعزلنا عن الوزارة ويولي مكاننا؟ وأطرق ساعة ثم قال: هل فيكم من يجمع ولاياته كلها في بيت واحد؟ قلنا: وكيف يمكن ذلك؟ قال: نعم، أقول (متقارب):
تَوَلَّى الْعِيَارِيفَ وَالْحِسْفَتِيشَ وَرُبْعَشْمُصَادَ وَشَرْفُضْرَبَ

(141) الفصوص ص: 125.

(142) انظر الحكاية في الفصوص ص: 42 ب - 43 أ.

(143) الفصوص ص: 41 ب.

وأخذنا طيب يومنا على ذلك، وَلَحْنٌ وَغُنْيٌ به في العود، على طريق الهزء والنادرة». (144)

إن مجالس المناظرات التي جعلته يزداد حظوة ورزقا، بفضل ما كان حصله من العلم، جعلته أيضا يزداد علما ومعرفة وهو يسمع ما يصدر في نفس المجالس عن غيره من شيوخ العلم المتنافسين، مستظهري ومجادلين.

(5) تحصيل المضمون به على غير أهله :

ذكر صاعد في مقدمة الفصوص أن ما حصله من المعارف كان سببا في وصوله إلى قصور الملوك، وتوليه شؤون خزانة الوزير عبد العزيز بن يوسف. (145) وقد ذكر في أحد الفصوص، وهو يتحدث عن كتبه التي فقدوها في المشرق عند نشوب الحادثة بين الوزير وصاحب بغداد، أنه تولى الإشراف على هذه الخزانة أربع سنوات: «وذلك عند ولايتي خزانة كتب الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف في أيام أبي شجاع فناخسرو، وذلك من سنة سبع وستين إلى سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة». (146) وما يعيننا من خبر ولايته شؤون هذه الخزانة، ارتباطها بمجموعة من المعارف، لم تكن متداولة بين الناس، ومصنفات قيمة خطتها أيدي مؤلفيها أنفسهم. هذه المعارف وهذه المصنفات النادرة، كانت جوهر المادة العلمية التي تحدى بها صاعد تلامذة القالي العالم المشرقي الوافد من نفس البيئة العلمية التي وفد منها صاعد. ولا نعلم أكان وصول صاعد إلى هذه الخزانة قد حدث دون أن يكون عالما بما حوته من النفائس، أم أنه سعى إلى الوصول إليها بعد

144 (الفصوص ص: 103 أ.

145 (الفصوص ص: 12 أ.

146 (الفصوص ص: 51 ب.

علمه بعزة ما فيها من المصنفات. وأيا كان الجواب، يظل تولي صاعد شؤون هذه الخزنة العلمية، شاهدا على مرحلة تجاوز فيها صاحب الفصوص تحصيل ما هو متداول بين العلماء، إلى تحصيل ما كان كبار شيوخ العلم قبله قد خصوا به أنفسهم، أو خصوا به كبار الحكام. وقد افتخر صاعد غير ما مرة بأنه نقل من هذه الخزنة، وحفظ من مصنفاتها كنوزا كانت قد حفظت في دار الخليفة المقتدر قبل أن تنهب. وما يميز هذه الكنوز، كونها خطت بخطوط كبار علماء القرن الثاني والثالث الذين ظلوا حجة كل من يحتاج ويحتج من علماء القرن الرابع. ومما زاد هذه المصنفات التي خطتها أيدي مؤلفيها أهمية - لدى صاعد - أنها حوت من العلم مضمونا به على غير أهله، كان أصحابه يؤثرون به أنفسهم: «... حتى ولاني الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف تغمد الله خطاياه خزنة كتبه، فأصبت فيها خطوط العلماء وأصولهم التي استأثروا بها لأنفسهم دون الناس، إذ لا بد لكل عالم من أثيرة مجموعة لخاصته، غير ما يذيعه للطلبة... ووجدت في كتب الخلافة التي خرجت في نهب دار المقتدر بخط الأصمعي، والفراء، وأبي زيد، وابن السكيت، وابن الأعرابي، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأبوي العباس: المبرد وثلعب وغيرهم، عيونا من علم العرب لم تصنف في شيء من الكتب، ضنا بها، واختصاما بحسنها، فنقلت منها بخطي موفيا على ثلاثة آلاف ورقة، وحفظت أكثرها اغتباطا بها وإعجابا ببديعتها» (147) ولم يخف صاعد أسفه على ضياع ما كان نقله من هذه النفائس، إذ لم يغنه محفوظه الغزير منها، عما كان قد نقله منها: «فهذا الذي صح لي من الجزء الواحد من خط الأصمعي، ثم حيل بيني وبينه. ونقلت من خطه بعد ذلك شيئا كثيرا، وقد نقلت من خط الفراء، وسيبويه،

(147) الفصوص ص: 12.

والأخفش، والمفضل بن سلمة، وثعلب، والمبرد، وابن الأنباري، وابن دريد، وقطرب، وابن السكيت، والمشاهير من أصحابهم... أشياء تقع في نحو من أربعة آلاف ورقة رزئتها. ولو سلمت لي، لأخرجت للناس بدائع لم تطرق سمعا قط، وذلك عند ولايتي خزانة كتب الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف». (148)

والملاحظ أن أمثال هذه المصنفات والمعارف النادرة كانت قد أصبحت تسترعي اهتمام المحصلين والعلماء في القرن الرابع الهجري، وتدعوهم إلى التباهي بتحصيلها؛ وقد أكثر الثعالبي معاصر صاعد في يتيمة من التنبيه إلى ما وقع إليه مما ليس في يد غيره من العلماء. (149)

ويبدو أن الوزير عبد العزيز بن يوسف الذي ولى صاعدا على خزانته كان شغوفا - وهو الكاتب الشاعر - بضم النفائس التي توجد في خزائن غيره من الأعيان، إلى خزانته؛ وكان صاعد ينبه في فصوصه إلى ما حمل من هذه الخزائن إلى خزانة الوزير، عندما ينقل منه: «ونقلت من خط ابن سعدان في قبيل ضبة من كتب الخلافة...». (150) بل يبدو أن صاعدا هو الذي كان يتولى انتقاء الكتب النفيسة التي تستحق أن تنقل إلى خزانة الوزير: «وجدت في الكتب التي نقلتها من خزانة القاضي أبي الحسن محمد بن صالح الهاشمي رحمه الله، إلى خزانة الوزير، كتابا بخط ابن المعتز كتبه إلى أبي العباس ثعلب: باسم الله الرحمان الرحيم ياسيدي ورئيسي وأستاذي....» (151)

(148) الفصوص ص: 51 ب .

(149) انظر يتيمة الدهر 2 - 118 - 119 و 200/3.

(150) الفصوص ص: 144 أ.

(151) الفصوص ص: 197 أ.

لم يكن غريبا إذن، أن يكون صاعد قد استطاع تحدي العلماء في مجالس قرطبة، بعد أن حصل من العلم المضمنون به على عامة العلماء - وهو على خزانة الوزير - ما جعله يواجه مناظريه بما لم يكن لهم به علم، وإن كان هذا العلم الغزير قد جعله في الأندلس يتهم بالكذب والوضع.

وإذا كان صاعد قد تمكن في المشرق من تجاوز تحصيل العلوم المتداولة بين العلماء إلى تحصيل ما عز وندر، مما جعل شخصيته العلمية تكتمل قبل أن يترك بغداد، فإن هذا الاكتمال لم يمنعه من أن يجعل رحلته نحو الأندلس نفسها فرصة للأخذ عن عالم كبير نزل عنده وهو في طريقه إلى قرطبة، أقصد الوزير العالم ابن حنابة، الذي أقرأ صاعدا كتاب المداخل لأبي عمر الزاهد كما يذكر ابن خير في فهرسته. (152)

(6) الشيوخ :

نقصد بالشيوخ هنا، كل الذين أخذ عنهم صاعد، سواء كان أخذه عنهم أخذ تلمذة وملازمة، أو أخذاً عن القرين. ويتضح من وفرة أسماء الأعلام الذين يسند إليهم صاعد في فصوصه، أنه كان طيلة المرحلة التي عاشها بالمشرق وهو عالم مرموق، ينتقل بين مجالس العلم في بغداد وبين الحواضر والبوادي بحثاً عن الشوارد والنوادر والطرف والملح، دون تفريق بين ما كان نظماً وما كان نثراً مرسلاً. ولا تذكر المصادر التي ترجمت له من شيوخه إلا أبا سعيد السيرافي، وأبا علي الفارسي، ثم القطيعي والخطابي. ولعل الحافظ ابن حجر انفرد بالإشارة إلى بعض شيوخه، معتمداً على بعض أسانيد صاعد في كتابه الفصوص: «وجدت في هذا الكتاب عن أبي بكر بن إبراهيم بن شاذان، وأبي

(152) فهرسة ابن خير: ص: 130.

بكر بن مالك القطيعي وأبي عمر بن محمد الأزرق، والحسين بن المنذر الأصبهاني قاضي حصن مهدي، وأبي الفتح المراغي، وأبي جعفر محمد بن عيسى الترجماني المقرئ بالكرك وغيرهم» (153) ويبدو من كثرة الأعلام الذين حدثوا صاعداً أو أقرأوه، وأنشدوه، ومن تنوع المادة العلمية التي كان ينقلها عنهم أنه كان ككثير من علماء القرن الرابع يميل إلى اكتساب معارف موسوعية ترفعه إلى درجة العالم المشارك. فهو يروي عن المقرئين، والمحدثين، وفقهاء المذاهب، وعلماء العقائد، والصوفية، واللغويين، والنحاة، والمتأدبين، والشعراء، وفصحاء البادية. ولوفرة شيوخه الذين قاربوا المائة شيخ أقتصر في حديثي عنهم، على من كان لهم أثر قوي في توجيه ثقافته، وعلى من بلغوا من الشهرة ما يلزمنا بالإشارة إليهم.

أ) شيوخ التلمذة الأولى: السيرافي والفارسي :

يذكر القفطي أن صاعداً قرأ اللغة في بلاده الموصل على مشايخها. ورغم غياب أسماء هؤلاء المشايخ، نفترض أن الأهمية العلمية للموصل في القرن الرابع قد جعلته يكتسب معارف أساسية هامة، قبل أن ينتقل إلى بغداد. إلا أن التوجيه العلمي الذي طبع شخصيته العلمية، كما صرح بذلك هو نفسه، ارتبط بدراسته على شيخين من أكبر شيوخ العلم في القرن الرابع، هما القاضي أبو سعيد السيرافي النحوي المتوفى سنة 368هـ، وأبو علي الفارسي المتوفى سنة 377هـ. وقد تجلّى تأثير هذين الشيخين الكبيرين العلمي، في صاعد وتأثره بهما، في تعمده أن يجعل انتسابه العلمي إلى هذين العالمين، دون غيرهما من العلماء الذين

(153) لسان الميزان 3/160؛ وورد في الفصوص (البرجمالي) عوض (الترجماني).

تتلمذ عليهم. ففي ديباجة الفصوص يرد صاعد أهم المعارف التي اكتسبها - وهي المعارف التي كان علماء عصره يتباهون بتحصيلها - إلى ما أخذه عنهما: «وإني غيسان صباي وحميا حدثتي، لزمت القاضي أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، وأبا علي الحسن بن أحمد النحوي، حتى استظهرت كتب اللغة المتعاصرة الأمهات الثلاث: الغريب المصنف، والإصلاح، والألفاظ».(154) ورغم إمكان حمل هذا الانتساب العلمي إلى السيرافي والفارسي على كونه تنبيها إلى أهمية المادة العلمية التي سيتضمنها مصنفه الفصوص، تظل الروايات المتعددة التي يرويها عن شيخيه هذين في مؤلفه الكبير، شاهدا على أنه أفاد منهما علما واسعا. ولا يبدو ذلك كثيرا بالقياس إلى الزمن الذي قضاه في صحبتهما، فهو يشير إلى أنه لزمهما وهو ما يزال في سن صغيرة.

ويشير صاعد إلى ما يفيد ضمنا أن ملازمته الطويلة للسيرافي، قد جعلته يجد من وقت شيخه، ما سمح له بأن يقوي رواية السماع برواية العرض والقراءة. فهو يذكر في فص من فصوصه ما يؤكد أنه قرأ على شيخه أبي سعيد ما كان قد سمعه منه من شعر لثعلبة «وقرأ علينا أبو سعيد رحمه الله وقرأنا أيضا عليه لثعلبة بن عمير الحنفي...».(155) وإذا كان صاعد قد نبه في ديباجة الفصوص إلى أن أخذه عن السيرافي والفارسي هو الذي أوصله إلى الملوك، فإنه في أحد الفصوص يصرح بما جعلنا نطمئن إلى أن السيرافي هو الذي مكنه من أن يصبح من العلماء الذين يحضرون مجالس كبار الحكام؛(156) ففي المجلس الذي

(154) الفصوص ص: 1 ب - 12 أ.

(155) الفصوص ص: 109 أ.

(156) الفصوص ص: 42 ب - 43 أ، حيث يشير صاعد إلى إعجاب ابن العميد به، وإلى افتخار السيرافي بأنه هو الذي علمه ورباه.

عقده ابن العميد ببغداد للقاء شيوخها، اصطحب السيرافي تلميذه صاعدا معه إلى هذا المجلس، ومكنه من إظهار علمه بأن جعله يجيب عن أسئلة سئله، مفتخرا به أمام ابن العميد الذي أعجب بالغلام التلميذ صاعد، وإن كان السيرافي قد لام تلميذه على عدم تجاهله أمام الوزير. ويبدو من خلال هذا اللوم أن أبا سعيد كان مضطرا بعد اطمئنانه إلى غزارة علم تلميذه، إلى أن يعلمه آداب مجالسة الملوك التي تفرض على العالم أن يتظاهر أمامهم ببعض الجهل، بعد أن يظهر لهم علمه. ولعل إعجاب السيرافي بتلميذه النجيب كان سببا في خصه إياه ببعض العلم المضنون به، فصاعد يبني أحد الفصوص على التعاليق العلمية الخاصة التي كتبها السيرافي لنفسه لا لتلامذته: «وقرأت على أبي سعيد رحمه الله في إحدى تعاليقه لنفسه: ذكر ابن الكلبي... إلخ» (157).

وكما أفاد السيرافي صاعدا، أفاده شيخه الثاني أبو علي الفارسي. ويفهم مما ورد في أحد الفصوص أن أبا علي أصبح في مرحلة ما، يأنس من تلميذه القدرة على الأخذ عنه بواسطة كتبه، دون حاجة إلى السماع: «هذا ما أملى علينا أبو علي رحمه الله... فكتبت جميع ذلك من خطه، وعرضته عليه قراءة، فأجازه لي» (158). وهذه الإجازة التي شهد بها أبو علي لصاعد، باستيعابه ما ورد في الكتاب الذي استعاره التلميذ من الشيخ، تدل على أن أبا علي كان قد سمح لتلميذه بأن تكون تلمذته له تلمذة مستمرة، تنوب فيها قراءة مخطوطة الشيخ عن السماع منه، عندما ينفض مجلس الدرس. ويظهر أن صاعدا رغم علمه بالمنافسة التي كانت بين أبي سعيد وأبي علي، كان يفضل الاستفادة منهما جميعا، دون أن يختص بأحدهما دون الثاني، كما يتضح من الخبر الذي يورده صاعد

(157) الفصوص ص: 65 ب.

(158) الفصوص ص: 181.

نفسه في أحد الفصوص: «وكننت يوما عند شيخنا أبي علي رحمه الله، وعنده في أصحابه أبو محمد بن حمود الزبيدي الأندلسي؛ وكان أبو محمد من أصحاب أبي سعيد القاضي السيرافي رحمه الله وجيها في أهل العلم، فلما مات أبو سعيد انتقل إلى أبي علي الفارسي، وابتدأ بقراءة كتاب سيبويه عليه حتى أكمله، فقرأ على أبي علي (رجز):

يالك عينا خذلت مصاعه

وفيهما (رجز):

ابن يزيد وَهُوَ ذُو بَرَاعَةٍ

فأخذ الشيخ يتولى إنشاد الأبيات فأنشد (رجز):

ابن يزيد وَهُوَ ذُو بَرَاعَةٍ

فقال أبو محمد رحمه الله: أيها الشيخ، أليس الواجب أن يكون (رجز):

أين يزيد وهو ذو بَرَاعَةٍ

حتى يجيء كاشفا قناعه

كأنه يستغيث به، كما يقول الإنسان عند المكروه: أين فلان وفلان، مناديا أنصاره. فأنف الشيخ من اعتراضه عليه في إنشاده، ونكره ذلك. ثم أقبل علي فقال لي: يا أبا العلاء، كيف تحفظ هذا؟ قلت: ما حفظته إلا كما أنشد الشيخ، وقد نقلته هكذا من خط أبي موسى الحامض. وقد كنت قرأت هكذا على أبي سعيد أيضا، غير أنني لم أقل له قرأت كذا على أبي سعيد، لئلا ينكر استشهادي بأبي سعيد، إذ هو نظيره، وكانت بينهما منافسة. فقال: الحمد لله، ما كذبنا ولا كذبنا، وهكذا سمعته من فلُق في ابن دريد. قال صاعد: وهو صادق في ذلك، لم يرو أحد إلا: ابن يزيد...» (159)

(159) الفصوص ص: 171.

ولعل هذه اللباقة التي جعلت التلميذ يتجنب إغضاب شيخه الفارسي بالاستشهاد بشيخه الآخر السيرافي، بالقياس إلى ما واجه به الزبيدي أبا علي، كانت مما استطاع به صاعد أن يكسب ود العلماء الذين روى عنهم، والحكام الذين قربوه في المشرق وفي الأندلس، رغم المكاييد التي كادها له بعض علمائها.

وإذ كان الفارسي قد ظل حيا إلى سنة 377هـ، فإننا نفترض أن صاعدا ظل يتلمذ له، إلى أن اضطرتته الحادثة التي أشار إليها في مقدمة الفصوص إلى الخروج من بغداد. وقد أرخ هو نفسه لأحد الأمالي المتأخرة التي سمعها من شيخه أبي علي: «أملى علينا أبو علي الفارسي النحوي رحمه الله ببغداد، وهو في داره على الشط... سنة إحدى وسبعين وثلاث مائة فقال: اعلم أن من خفف الهمزة في قول الله عز وجل أحسن أثاثا ورثيا...» (160).

فلا نستغرب إذن بعد معرفتنا طبيعة هذه العلاقة التي ربطت صاعدا بشيخه السيرافي والفارسي مدة طويلة، أن تكون كثير من الفصوص في مصنفه مبنية على ما رواه عن شيخه هذين.

(ب) شيوخ مشهورون :

المقصود بالشهرة هنا الشهرة العلمية للشيخ، التي تجعل الرواية عنه مسندا علميا لكل من يأخذ عنه من التلاميذ. ولعل من حظ صاحب الفصوص، أن القرن الرابع الهجري عرف ازدهارا علميا كبيرا، جعل عدد شيوخ العلم بالمشرق أكثر من أن يؤخذ عنهم كلهم؛ ويكفي صاعدا أن يكون أدرك أو عاصر أمثال أبي الطيب المتنبي، وابن فارس، وابن النديم، والعسكري، وأبي العلاء المعري، وأبي الفضل بن العميد، وابنه أبي الفتح، والصاحب بن

(160) الفصوص ص: 55 ب.

عباد، وأبي حيان التوحيدي، والقاضي عبد الجبار، والرماني، والخطابي، والقطيعي والخالديين، وأبي الفرج الأصبهاني، وابن سينا، ويحيى بن عدي، والأزهري، والجوهري، وغيرهم من أعلام القرن الرابع، ليكون قد انتسب إلى أكثر عصور الثقافة العربية ازدهارا.

ومن بين لأعلام الذين حظي صاعد بالتلمذة لهم :

- **الرماني:** أبو الحسن علي بن عيسى الرماني الإخشيدي الوراق، تلميذ ابن السراج وابن دريد المتوفى سنة 384هـ. كان إماما في العربية والأدب في طبقة أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي.(161) وقد ذكر صاعد في فص أورد فيه قصة تضمنت أرجوزة من 52 بيتا، أن الرماني حدثه هو وأصحابه ببغداد في داره: «حدثنا أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي ببغداد في داره في درب ابن محجل قال...».(162)

- **الأمدي:** الحسن بن بشر بن يحيى أبو القاسم المتوفى سنة 370هـ. كان شاعرا عالما راوية. أخذ عن الأخفش، والزجاج، وأبي موسى الحامض، وابن السراج، وابن دريد، ونفطويه؛ ألف كتاب الرباب وغيره.(163) ولعل ما رواه صاعد عن الأمدي، من كتاب الرباب الذي ذكره الأمدي نفسه في كتابه المؤتلف والمختلف، فصاعد يروي عنه ما أنشده من شعر أبي فرعون العدوي، من عديّ الرّباب: «أنشدنا أبو القاسم الأمدي لأبي فرعون المكدي...».(164)

(161) ألف في إعجاز القرآن وشرح أصول ابن السراج وكتاب سيبويه...

(162) الفصوص ص: 139 - 39 ب.

(163) من مؤلفاته: المؤتلف والمختلف والموازنة وشرح ديوان المسيب بن علس والأمال (بغية الوعاة 500/1) وذكر في المؤتلف والمختلف 19 أن له «شعر الرباب» وفي 135 ذكر أن له «كتاب الرباب».

(164) الفصوص ص: 164.

- أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين مؤلف كتاب الأغاني المشهور. كان من أعيان بغداد وأفراد مصنفها، وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء. (165) من مؤلفاته: كتاب الأغاني، وكتاب القيان والإماء الشواعر، والديارات، وأخبار جحظة البرمكي. قال عنه ابن الجوزي: «وكان عالما بأيام الناس والسير... روى عنه الدارقطني، وكان يتشيع، ومثله لا يوثق بروايته، يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه. ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر...». (166) وما يصفه به ابن الجوزي، يبدو منسجما مع ما عرف عن ندماء الوزير المهلبى من عبث ومجون؛ فالأصفهاني كان من المقربين إلى هذا الوزير، فقد كان هو وأبو العلاء صاعد من بين الحاضرين مع الوزير عندما وفد عليه أبو الطيب المتنبى، ورفض مدحه ترفعا عن عبثه ومجونه ومجون أصحابه. وإذا كان أبو الفرج قد توفي سنة 356هـ، فإن صاعدا سيكون قد روى عنه قبل هذه السنة وهو ما يزال شابا. ولعل ما رواه عنه يعود إلى ما سمعه منه في مجالس الوزير المهلبى: «أنشدنا أبو الفرج الأصبهاني قال: أنشدنا أبو الحسن الأخفش...». (167)

وإذا ما أمكن الاطمئنان إلى أن علاقة صاعد به قد مكنته من تحصيل أخبار وافرة وقصص متنوعة، فإن هذه العلاقة نفسها قد تكون من أسباب اهتمام صاعد بالطرف والملح والمجونيات التي بنى عليها بعض فصوصه، وإن كنا نذهب إلى أن مجون أبي الفرج وتلميذه جميعا، ينسجم مع ما عرف عن كثير من أدباء

(165) يتيمة الدهر 109/3.

(166) المنتظم 40/7 - 41.

(167) الفصوص ص: 87.

القرن الرابع وحكامه مطلقاً، من ميل إلى المزاح والهزل والعبث
الماجن، رغبة في التسلي، وفرارا من صرامة الجد. (168)

- **التنوخى:** المحسن بن علي بن محمد، أبو علي القاضي
المتوفى سنة 384هـ، ألف كتاب الفرج بعد الشدة. وقد روى عنه
صاعد قصة الطفيلي الذي كان يترصد خروج جاره، ليتبعه إلى
كل مدعاة صنيع يدعى إليها. «حدثني أبو علي التنوخى
قال...». (169)

وقد اعتبر الحافظ بن حجر أسانيد صاعد في ما رواه عن
التنوخى من عجائبه التي يستدل بها على مجاز فاته. (170)

- **أبو عثمان الخالدي:** سعيد بن هاشم الشاعر المتوفى سنة
371هـ. ألف مع أخيه كتاب الحماسة. أخذ عنه صاعد بالموصل،
وأنشد له مرات عديدة (171) في الفصوص: «وأنشدني أبو عثمان
الخالدي بالموصل لبعضهم...». (172)

- **أبو بكر الخالدي:** محمد بن هشام الشاعر المتوفى سنة
380هـ، أخو أبي عثمان الخالدي ومشاركه في تأليف الحماسة.
روى عنه صاعد في أحد الفصوص بيتين لجحظة البرمكي:
«وأنشدني أبو بكر أخوه (173) لجحظة...». (174)

- **ابن البقال:** أبو الحسن علي بن محمد، كان أديبا من شعراء
بغداد ومجوديهها، حسن الدين، رصين العقل كثير الخبر ممتع

(168) انظر مثلا جمع التوحيدي بين الجد والهزل في كتاب الإمتاع والمؤانسة.

(169) الفصوص ص: 152.

(170) لسان الميزان 3/161.

(171) انظر مثلا الصفحات: 167 - 90 ب - 91 ب ... من الفصوص.

(172) الفصوص ص: 167.

(173) يقصد أبا عثمان الخالدي.

(174) الفصوص ص: 167.

المجالس. خدم في صفه الوزير ابن الجراح أيام الخليفة المقتدر. وكان ابن البقال هذا مع صاعد، من بين العلماء الذين اصطحبهم الوزير أبو الفتح ابن العميد إلى الري، بعد رحيله عن بغداد. (175) ويبدو من حديث صاعد عنه وثنائه عليه، أنه كان يجله إجلال الشيوخ. وقد روى عنه خبر عزل الوزير ابن الجراح: «وحدثني أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن البقال، وكان أديبا من شعراء بغداد ومجوديتها... قال: كنت متصرفا أيام حدثني في خدمة الوزير أبي الحسن علي بن عيسى أيام المقتدر...» (176)

- **أبو الفتح المراغي:** محمد بن جعفر الهمذاني معلم عز الدولة البويهية، سكن بغداد، وروى بها عن أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة. وحدث عنه القاضي أبو الحسن محمد بن أحمد القاسم المحاملي، وذكر أنه سمع عنه سنة 371هـ. كان حافظا بليغا عالما بالنحو واللغة والأخبار. ألف كتاب البهجة على غرار الكامل للمبرد، وكتاب الاستدراك لما أغفله الخليل. توفي (177) سنة 376هـ أو 371هـ. روى عنه صاعد في أحد الفصوص شعرا لجامع بن مرخية الكلابي، أنشدناه أبو الفتح المراغي...» (178) وروى عنه في فص ثان خبرا عن النعمان بن المنذر: «حدثنا أبو الفتح المراغي قال: حدثنا ابن دريد...» (179)

- **أبو الحسن السميساطي:** علي بن محمد العدوي، أصله من سميساط في أرمينية؛ من أعيان القرن الرابع. أدب أبا ثعلب بن ناصر الدولة وأخاه ونادمهما. كان شاعرا مليح الحفظ كثير

(175) الفصوص ص: 43.

(176) الفصوص ص: 88.

(177) انظر المنتظم 134/7 وبغية الوعاة 70/1.

(178) الفصوص ص: 134.

(179) الفصوص ص: 165.

الرواية. ذكر ابن النديم أنه كان يحيا في زمانه. (180) سمع منه صاعد بالموصل كما يدل على ذلك قوله: «أنشدني أبو الحسن السميساطي بالموصل للجمل المصري يصف كأسا نقش فيه صفة كسرى وقيصر فقال...» (181) ويبدو من إشارة صاعد إلى سماعه منفردا عنه: «أنشدني»، أن الرواية عنه كانت رواية عن القرن.

- أبو عبد الله البصري: الملقب بجعل، الحسين بن علي بن إبراهيم المعروف بالكاغدي، المتوفى سنة 399هـ. كان فقيها متكما له مجموعة في الفقه والكلام. (182) وقد تعرض صاعد لما سمعه منه في صلب فص بناه على تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، الآية، ونقل عنه رأيا كلاميا في الخلق يدل على علمه ومكانته بين المتكلمين، «وسمعتُ أبا عبد الله البصري الملقب بجعل، قال: اجتهد المدققون من المتكلمين في دين الإسلام إلى عصرنا هذا أن يدلوا بدليل على إعادة الخلق بعد فناءه، فيكون الدليل سالما من اعتراض معارض أو نسخ مناقض، فلم تسلم لهم إلا حجة الله تعالى في قوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. فدل على الإعادة بالنشأة، فجعله المتكلمون إماما في الاحتجاج على من أنكر الإعادة، فلم يقدر أحد على نقضه...» (183) رغم أن ثقافة صاعد الكلامية كانت تظهر مستحيية من خلال جدله ومغالطاته الهازلة، تظل أسماء بعض شيوخ علم الكلام، الذين أخذ عنهم، شاهدا على أنه حصل في

(180) الفهرست ص: 266.

(181) الفصوص ص: 81 ب.

(182) الفهرست ص: 261.

(183) الفصوص ص: 81 ب.

المشرق رصيذا من هذا العلم، فضل ألا يستفيد منه في الأندلس، لأسباب فكرية، فرضتها عليه البيئة الأندلسية.

- **الداركي:** عبد العزيز بن عبد الله بن محمد أبو القاسم الداركي الأصفهاني، أحد كبار فقهاء الشافعية، أخذ عنه الأسفرائيني وعمامة شيوخ بغداد، وانتهى إليه التدريس بها توفي سنة 375هـ. نسبه التوحيدي في سياق مهاجمته للمعتزلة، إلى اللواط، وأثنى عليه ابن الجوزي رغم تشدده فقال: «وكان أمينا وانتهت رئاسة أصحاب الشافعي إليه، وكان يدرس في مسجد دعلج... وله حلقة في جامع المدينة للفتوى والنظر. روى عنه الأزهري والخلال والأزجي والعتيقي والتنوخي. وكان ثقة». (184) وقد روى عنه صاعد بيتين للإمام الشافعي، وأشار إلى أن سماعه منه كان ببغداد: «وأنشدنا الفقيه أبو القاسم الداركي الأصبهاني ببغداد للشافعي رحمه الله: ... ثم قال لي...». (185)

- **ابن شاذان:** محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان، أبو بكر الرازي المذكر الواعظ الصوفي: «جمع من كلام التصوف وأكثر، ثم انتسب إلى محمد بن أيوب بن يحيى الضريس البجلي، ومحمد بن أيوب لم يعقب ولدا ذكرا. قال الحاكم أبو عبد الله: فلقيته فذكرت ذلك فانزعج وترك ذلك النسب. ثم رأيت يحدث بالمسانيد، وما كان يحدث بها قبل ذلك، وتوفي في جمادى الآخرة من هذه السنة». (186) ووصفه صاحب العبر بأنه كان صاحب مناكير وغرائب، لاسيما في حكايات الصوفية. وقد أشار صاعد إلى أن سماعه منه، كان بنهر طابق، إحدى محلات بغداد، وبنى على ما رواه عنه فصوصا متعددة. ولعل كثرة روايته عنه في

(184) المنتظم ص: 129/7.

(185) الفصوص ص: 103.

(186) سنة 376، انظر المنتظم 134/7.

الفصوص، تعود إلى تعلقه بالغرائب والحكايات التي كان يحكيها، فصاعد لم يرو عنه في كتابه إلا الأخبار ذات النفس القصصي: «حدثنا أبو بكر محمد بن شاذان... قال: حدثني علي بن سليمان الأخفش... قال جلس معن بن زائدة....» (187)

- الخطابي: الإمام أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، ألف معالم السنن وشرح البخاري، ذكره صديقه أبو منصور الثعالبي وأورد بعض أشعاره، وأثنى عليه فقال: «كان يشبه في عصرنا بأبي عبيد القاسم بن سلام في عصره علما وأدبا وزهدا وورعا وتديسا وتأليفا، إلا أنه كان يقول شعرا حسنا وكان أبو عبيد مفحما؛ ولأبي سليمان كتب من تأليفه وأشهرها وأسيرها كتاب في غريب الحديث، وهو غاية في الحسن والبلاغة...» (188) وقد ذكرت بعض المصادر التي ترجمت لصاعد أبا سليمان الخطابي هذا ضمن شيوخ صاعد الأربعة الذين عدت أسماءهم، (189) إلا أن الفصوص خلا من الإشارة إليه مطلقا.

- القطيعي: أحمد بن جعفر، أبو بكر، سكن قطيعة الدقيق فنسب إليها. كان كثير الحديث ثقة، أثنى عليه ابن الجوزي وعدله، ورد على من جرحوه، (190) ونسب إلى أبي الحسن بن الفرات أنه قال: «تغير ابن مالك في آخر عمره فكان لا يعرف شيئا مما قرئ عليه». (191) توفي سنة 368هـ. وقد أشارت جل المصادر إلى أن صاعدا تلمذ له. وقد بنى صاعد أحد فصوص كتابه على حديث

(187) الفصوص ص: 16. وانظر حكايات أخرى في الصفحات: 110 - 116 - 76 ب - 104 ب.

(188) يتيمة الدهر 4/ 334 - 335.

(189) وهم السيرافي والفارسي والقطيعي والخطابي.

(190) المنتظم 7/ 93.

(191) المنتظم 7/ 93.

نبوي شريف سمعه من هذا المحدث الكبير. وختم كتابه بحديث نبوي آخر رواه عنه أيضا.

وفي هذا ما يجعلنا نعتقد أن صاعدا كان في صغره يحضر دروسه لرواية ما كان يحدث به من أحاديث شريفة: «حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي... عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: الرحم شجنة...» (192) ولم يرد الحافظ ابن حجر، وهو يشير إلى إسناد صاعد (193) إلى القطيعي ما رواه عنه، رغم أن متن الحديث الذي رواه صاعد مخالف لمتني الحديثين الشريفين اللذين نقلهما ابن حجر نفسه في فتح الباري. (194)

- ابن بطة: عبيد الله بن محمد بن محمد العكبري، الفقيه الحنبلي الورع، مؤلف الإبانة الكبيرة والصغيرة والسنن والمناسل، وذم البخل... (195) توفي سنة 387هـ. جرحه الخطيب البغدادي وضعفه ابن الأثير، (196) وبالغ ابن الجوزي في الدفاع عنه رادا على الخطيب. وقد بنى صاعد أحد الفصوص على ما أنشده إياه ابن بطة لبعض الصوفية رواية عن جحظة: «أنشدني ابن بطة...» (197)

- الأمير أبو جعفر محمد بن ورقاء بن نصلة الشيباني : من رؤساء عرب الشام وقوادها، سمع منه صاعد ببغداد سنة 365هـ. كما يتضح من قوله: «حدثني الأمير أبو جعفر محمد بن ورقاء ببغداد سنة خمس وستين وثلاثمائة...» (198) كما بنى فصا آخر على شعر لعبيد بن أيوب العنبري رواه عن ابن ورقاء:

(192) الفصوص ص: 17.

(193) لسان الميزان 3/ 161.

(194) فتح الباري 10/ 417.

(195) طبقات الحنابلة 2/ 144 - 153.

(196) الكامل في التاريخ: وفيات 387.

(197) الفصوص ص: 12 ب.

(198) الفصوص ص: 73 ب.

«... والذي أنشدنا الأمير جعفر محمد بن ورقاء قال: أنشدنا ثعلب،
عن ابن الأعرابي لعبيد بن أيوب...» (199)

- الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف المعروف بالحكار:

الكاتب الشاعر، وزر لعضد الدولة وابنه صمصام الدولة، ثم
بهاء الدولة، توفي سنة 388هـ. وصفه الثعالبي بأنه أحد صدور
المشرق، وفرسان المنطق، وأفراد الكرم... وأعيان الممدحين
المتقدمين في الآداب، والكتابة، والبراعة، والكفاية، وجميع أدوات
الرياسة. (200) ويبدو أن فضل هذا الوزير على صاعد كان كبيرا،
فهو الذي ولاه خزانة الكتب التي افتخر صاعد بقراءتها وأمدته
بمعارف نادرة، ولعل هذا الوزير هو الذي أوصله إلى بلاط عضد
الدولة. وقد بنى صاعد أحد الفصوص على أبيات للوزير أنشده
إياها: «وأنشدني الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف
لنفسه...» (201)

والملاحظ أن هذه الأبيات التي صرح صاعد بنسبتها إلى
الوزير، وردت عند السلفي والقفطي ومن بعدهما منسوبة إلى
صاعد نفسه.

- الوزير ابن حنزابة :

جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، أبو الفضل
المعروف بابن حنزابة. نزل مصر، وتقلد الوزارة لأميرها كافور.
وكان أبوه وزيرا للخليفة المقتدر، حدث عن محمد بن هارون
الحضرمي وطبقته من البغداديين وأملى الحديث بمصر، رحل إليه

(199) الفصوص ص: 74 ب.

(200) يتيمة الدهر 2/ 312.

(201) الفصوص ص: 143 أ.

الدارقطني وروى عنه، توفي سنة 399هـ. وتاريخ سماع صاعد من هذا الوزير يعود إلى الفترة التي نزل فيها بمصر، وهو في طريقه إلى الأندلس، فقد ذكر ابن خیر أن صاعدا كان ملازما للوزير ابن حنزابة ينادمه، وأنه روى عنه كتاب المداخل لأبي عمر الزاهد. (202)

- **ابن الحجاج:** أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج، أحد كبار الشعراء الذين خرجوا من الجد إلى الهزل والمجون؛ قاده مجونه إلى قصور الحكام. وكان من بين شعراء الوزير المهلبى الذين تعرضوا لأبي الطيب ساخرين، عندما رفض مدح الوزير. وكان الشريف الرضى على وقاره، معجبا بابن الحجاج، وقد اختار من شعره ما خلا من المجون الفاحش، توفي سنة 391هـ.

- **ابن سكرة:** أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سكرة الهاشمي البغدادي، صديق ابن الحجاج وشريكه في نزعة الهزل والمجون في الشعر، وصفه الثعالبي بأنه شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع (203) توفي سنة 385هـ.

وكان يقال ببغداد إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جدا. (204)

ولعل صاعدا كان محظوظا بصحبته لهذين الشاعرين الكبيرين في حياته، فقد روى عنهما شعرهما، ودرسه بالأندلس في آخر أيامه بها. ولعل ابن خیر انفرد، حسب ما اطلعت عليه، بالإشارة إلى تلمذة صاعد لابن سكرة، وابن الحجاج. (205)

(202) فهرسة ابن خیر 358 - 359.

(203) يتيمة الدهر 3/3.

(204) نفس المصدر والصفحة.

(205) فهرسة ابن خیر 406.

وعدد من ذكرت من العلماء قليل، بالقياس إلى مجموع الشيوخ الذين روى عنهم صاعد في الفصوص، أو أشار بعض تلامذته إلى أخذه عنهم، كأبي الحسن علي بن حيدرة، والقاضي أبي بكر محمد بن الأزرق، وقرموطة الشيرازي، ويوسف بن الضحاك، والحسين بن المنذر الأصبهاني، وأبي الحسين علي بن مهدي الفارسي، والشاعر الموصلي همام بن غالب الضرير، وأبي الحسن الفرضي، والقاضي أبي تمام الهاشمي، وأبي حفص محمد بن عيسى البرجمالي المقرئ، والقاضي أبي حامد الخراساني، والقاضي ابن أبي الحصين، وعلي بن حمزة، وأبي الحسن الضبعي، وشرحبيل بن سلامان الأباضي، وأبي الحسن علي بن المرزبان شيخ أبي حامد الأسفرائيني، وأبي يعقوب الأهوازي الضرير، وأبي الحسن الأزدي، وأبي عامر النجدي، وأبي أيوب المقرئ. فضلا عن اقتصر صاعد على الإشارة إليهم بعبارة بعض الكوفيين، (206) أو بعض الصوفية، (207) أو بعض أصحابنا، (208) أو بعبارة غير واحد. (209)

ونظرة سريعة إلى العلوم والمعارف التي تخصص فيها شيوخ صاعد، تجعلنا نطمئن إلى أن صاعدا التلميذ، قبل أن ينتقل إلى الأندلس، حصل معارف واسعة متنوعة المشارب توافرت له بتلمذته للمقرئين، والمفسرين، والمحدثين، وفقهاء المذاهب، والمتكلمين، واللغويين والنحاة، ورواة الشعر من أهل الحاضرة وفصحاء الأعراب، وشعراء عصره من أهل الجد والهزل، فضلا عن آداب معاشره الملوك التي اكتسبها من ملازمته لمجالس الأمراء،

(206) الفصوص 188.

(207) الفصوص 63 ب.

(208) الفصوص 36 ب و 161.

(209) الفصوص 7 ب.

والوزراء وكبار الحكام منذ حادثته. لذا لا نستغرب أن يكون صاعد قد تحدى بكتابه الفصوص تلامذة القالي ومدرسته، وأن يكون قد أصبح وهو الخبير بمجالسة الملوك من أصفياء المنصور بن أبي عامر.

III - صاعد الشاعر :

(1) في المشرق: لا تمدنا المصادر بما يمكن أن يفيد في تعرف حياة صاعد الشعرية بالمشرق؛ ورغم كونه قد عرفنا من خلال الفصوص ببعض ما يتعلق بحياته العلمية في بغداد وغيرها من الحواضر المشرقية، ظل كتابه خاليا من الأخبار التي تتعلق بحياته الشعرية، نستثني من ذلك خبرين:

أولهما : الخبر الذي ذكر فيه صاعد أن الداركي أنشده بيتين للإمام الشافعي، ثم طلب منه أن يختصرهما في بيت واحد، اختبارا لقدرته على النظم ففعل: «وأنشدنا الفقيه أبو القاسم الداركي الأصبهاني ببغداد للشافعي رحمه الله... ثم قال لي: يمكن أن تجمع البيتين في بيت؟ قلت: نعم. قال: كيف؟ فقلت: (طويل)

عليّ ثيابٌ فوق قيمتها الفلُسُ
وفيهن نفس دون قيمتها الإنسُ(210)

وثانيهما: الخبر الذي يذكر فيه صاعد أن أبا علي الفارسي أبدى تعجبه من قدرة تلميذه على نظم الشعر الجيد، ورغبته في الاستمتاع بسماع أشعاره: «قال صاعد بن الحسن: كان أبو علي النحوي رحمه الله يقول لي: كلما عملت شعرا تجوّد فيه، فاعرضه علي وأمتعني به، فإنني أتعجب ممن يقدر على نظم الكلام الحسن،

(210) الفصوص 103.

وتخير الألفاظ والمعاني، ورُمّته من صغري، فلم يسنح لي فيه شيء أرضاه، وحُرّمته. قلت له: أيها الشيخ، فهل نظمت شيئاً قط؟ قال: استرّعني ما ستر الله، فعلمت أنه نظم، ولكنه لا يرضى به...» (211).

والخبران لا يحملان أية دلالة على أن صاعداً كان محترفاً صناعة الشعر في المشرق، كما احترفها أبو الطيب وغيره من حذاق الشعراء؛ بل إن الازدهار الذي عرفه الشعر في المشرق في القرن الرابع، يفرض علينا الاقتناع بأن شاعرية صاعد، باعتباره عالماً، لم تكن تؤهله لأن ينافس غيره من الشعراء المتفرغين لصناعة الشعر. فمنذ استنقل ابن قتيبة أشعار العلماء في القرن الثالث، رسخ في التصور النقدي - وكشف الاختبار عن ذلك - أن العالم المتبحر إذا نظم الشعر يكون شعره بارداً. وأحسن ما كان يوصف به شعر العالم، إذا ما برع صاحبه في نظمه، أنه شعر حسن لا جيد. وفي اليتيمة نماذج كثيرة لأشعار علماء، وصفها الثعالبي بالحسن دون الجودة. وظل هذا التصور النقدي سائداً، حتى عصر ابن رشيق القيرواني الذي فرق في عمدته بين أشعار من يقول الشعر تظرفاً، ومن يقوله تكسباً، ونبه إلى أن غير المحترفين لا يحاسبون على صناعتهم. (212) إن كتاب الشعراء وحذاقهم في القرن الثاني والثالث والرابع، لم يعرفوا إلا بكونهم شعراء، ورغم أن بعضهم قد ألف في غير الشعر، ظلت شهرتهم مرتبطة بأشعارهم. وإذا كان أبو العلاء المعري شاعراً، ارتبط اسمه في الأذهان بكونه عالماً، فإن الوجه العلمي لهذا الشاعر لم يبرز إلا بعد أن أعلن أنه طلق الشعر ليتفرغ إلى التأليف فيما هو

(211) الفصوص ص: 125 ب.

(212) العمدة 2/ 109 - 110.

صدق، لإيمانه بأن الجودة الشعرية والصدق لا يجتمعان. (213) ولم يكن العصر الذي عرف أبا الطيب، وأبا فراس، وابن نباتة السعدي، والشريف الرضي، والصنوبري وابن الحجاج، وابن سكرة، والزاهي، والسري الرفاء والنامي، والخالدين وغيرهم من كبار شعراء اليتيمة الذين نقل صاعد أشعارهم في فصوصه إعجاباً بهم، يسمح لأمثاله من كبار العلماء بأن ينبغوا في صناعة الشعر، أو يغزوا بأشعارهم ملوكاً ممدحين نقاداً كانوا يملكون القدرة على التمييز بين الشاعر والمتشاعر؛ بل إن بعض الشعراء المحترفين أنفسهم، أصبحوا يعانون في القرن الرابع من الفقر، بعد أن رخص الشعراء المجيدون أمثال أبي الطيب المتنبي أشعارهم، كما صرح بذلك هو نفسه في قوله: (وافر)

أرى المتشاعرين غروا بذي ومن ذا يحمد الداء العضالاً
هذه البيئة الشعرية المزدهرة التي عاش فيها صاعد وهو بالمشرق، إن كانت قد سمحت له بأن يختزن محفوظاً شعرياً جيداً سمعه من أشعار معاصريه، كانت في الحين نفسه سبباً منعه من أن يحترف صناعة الشعر في المشرق، رغم أنه كان يمتلك القدرة على النظم. وقد عبر هو نفسه، رغم المكانة الشعرية التي امتلكها في الأندلس، عن تحرجه من أن يتناول على الشاعر المشرقي المحترف، فقد «أنشد المنصور يوماً قصيدة أبي نواس (أجارة بيتينا أبوك غيور...) فعرض عليه أن يعارضه، فأبى صاعد من ذلك إجلالاً لأبي نواس، فعزم عليه المنصور، فأنشده متمثلاً: (مجزوء الكامل)

1 - إِنْـي لَمْـسْتَحْيِ عُمَلاً
كَ مِنْ أَرْتَجَالِ الْقَوْلِ فِيهِ

(213) خطبة سقط الزند.

2 — مَنْ لَيْسَ يُدْرِكُ بِالرَّوْيِ

يَةً، كَيْفَ يُدْرِكُ بِالْبَيْدِ» (214)

فصورة الاكتمال الشعري التي رسمها الشاعر المشرقي للشعر، جلعت صاعدا في الأندلس يحسّ بنفس التهيّب الذي منعه في المشرق من احتراف الشعر، عندما أُجبر على معارضة رائية أبي نواس، رغم أنه كان قد أصبح في الأندلس شاعرا يتحدّى بشعره أعلاما كانوا في أغلبهم علماء شعراء، (215) لا ينظرون إلى الشعر إلا باعتباره زينة مكملة للعلم.

2) في الأندلس : صاعد شاعر قرطبة :

يبدو أن صاعدا الذي تهيب احتراف الشعر في المشرق، مكتفيا بمكانته العلمية في المجالس، قد وجد الساحة الشعرية بالأندلس خالية، أو شبه خالية، فباض وصفري. والحديث عن الفراغ الشعري في الأندلس، عند وصول صاعد إليها ليس مبالغة، فقرطبة لم تعرف قبل وصول ابن دراج شاعرا ينافس أبا الطيب مكانته؛ وابن دراج نفسه الذي سيصبح من أكبر شعراء الأندلس، بدأ حياته الشعرية عند وفوده على المنصور بن أبي عامر بمعارضة قصيدة لأبي العلاء صاعد، (216) وهي معارضة تؤكد أن أبا العلاء صاعدا، لم يكن قد أصبح من الشعراء الذين تعارض أشعارهم.

ورغم أن الاختبار العلمي الذي خضع له صاعد عند وفوده على المنصور، يثبت أنه أتى إلى قرطبة ليعرض بضاعته العلمية، يتضح من دلالة معارضة ابن دراج الذي وفد على المنصور سنة

(214) الذخيرة 22/1/4.

(215) نستثنى منهم ابن دراج القسطلّي الشاعر الذي تفرغ للشعر، واستطاع بمعارضته لرائية أبي نواس التي تهيب صاعد معارضتها، أن يصبح من أكبر شعراء الأندلس.

(216) جذوة المقتبس 103.

382هـ له، أنه كان قد أصبح أحد شعراء المنصور في وقت مبكر. وتؤكد الأشعار التي نظمها في المنصور، وابنه عبد الملك المظفر، والخليفة المهدي، والقائد ابن وداعة، والأشعار المفقودة التي ذكر ابن بسام أنه استجدى بها الخليفة سليمان المستعين بعد سنة 403هـ (217) أنه ظل ينظم الشعر حتى آخر أيامه بالأندلس.

3 - شعره :

أ) لا تشير المصادر إلى أن صاعدا ترك ديوان شعر، ومع كون النماذج التي نقلتها هذه المصادر من شعره قد قاربت الأربعين نموذجا، يبدو أن كثيرا من أشعاره التي نظمها في الأندلس لم تصل إلينا، لسكوت المؤرخين عنها مطلقا، أو لاقتصارهم على إيراد منتقيات مما استحسّنوه من قصائده، أو ناسب الخبر التاريخي الذي ينقلونه. وقد تجاوز مجموع أبياته التي تفرقت في المصادر مائة وسبعين بيتا.

ب) يغلب على ما وصل إلينا من شعره القصر، فمن بين مجموع ما وصل إلينا نجد ثماني قطع فقط تتجاوز ثمانية أبيات، دون أن تتعدى خمسة عشر بيتا؛ وإذا كانت قلة الأبيات في هذه النماذج تعود إلى غياب ما لم يثبته المؤرخون من أصول هذه الأشعار، فإن قلتها بالقياس إلى كثرة مقطوعاته التي بنيت على أقل من ستة أبيات، تجعلنا نفترض أنه كان أميل إلى نظم المقطوعات منه إلى نظم المطولات، شأنه شأن كثير من معاصريه من شعراء الدرجة الثانية في المشرق. فقد كان كثير منهم يكتفون لإشباع ميلهم إلى النظم، وإظهار حذقهم بالأبيات الشعرية القليلة، يقال في المناسبة العارضة. وقد شهد كتاب اليتيمة بأن كثيرا من الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي إنما عرفوا بمقطعاتهم. ولعل

(217) الذخيرة 55/1/4.

صاعداً كان يرغب في المناسبة الجادة على إطالة منظومته، إلا أن القطع القصار تظل المعبر الحقيقي عن نزعتة الشعرية.

ج) أما موضوعات ما وصل إلينا من مقطوعاته ومطولاته القليلة، فقد كانت ترجمة لحياة الشاعر النديم التي عاشها في الأندلس، وتعبيراً عن التحول الذي عرفته هذه الحياة، منذ وصل إلى الأندلس معزراً، إلى أن خرج منها يائساً، فمعظم مقطوعاته كانت وصفاً. والموضوع الذي استنفد أوصافه كان وصف الأزهار والنواوير: فقد وصف صاعد الورد، (218) كما وصف الخيري، (219) والبنفسج، (220) والنرجس، (221) والآس، (222) والترنجان. (223)

وقد يكون اهتمام صاعد بوصف الأزهار والنواوير راجعاً إلى اهتمام الأندلسيين به، لكننا لا نشك في أنه قد وجد في ما حفظه في المشرق، من شعر الصنوبري شاعر النوريات الأول، مادة مكنته من منافسة الأندلسيين في وصف جمال الزهور. وإذا كان وصف النواوير صورة غير مباشرة لمجالس الأنس التي كان صاعد يجلسها مع المنصور، فإن هذه المجالس كانت وراء وصف أواني الشراب، بل ووصف المجالس نفسها؛ فمما اختاره له صاحب التشبيهات بيتان في وصف كأس بلور فيه شراب أصفر يقول فيهما: (طويل)

1 — جَلَوْتُ لَنَا قَشْرًا مِنَ الصَّبْحِ مَتْرَعًا

مِنَ الشَّمْسِ يَعْشَى دُونَهَا الْمُتَوَسِّمُ

(218) النخيرة 17/1/4، وبدائع البدائ 299، والبيان 20/3.

(219) النخيرة 24/1/4، والبيان المغرب 20/3.

(220) البيان المغرب 20/3.

(221) البيان المغرب 19/3.

(222) البيان المغرب 19/3.

(223) النخيرة 21/1/4، وبدائع البدائ 302.

2 — فَأَعِينُنَا سَكْرَى لَفَرَطٍ شَعَاعِهِ

وشارِبُهَا مِنْ شِدَّةِ السُّكْرِ مُفَحَّمٌ (224)

وفي وصف إبريق مُلئٍ منه كأس، وبقيت في فمه قطرة لم تسقط، يورد صاحب الذخيرة قوله: (بسيط)

1 — وَقَهْوَةٍ فِي فَمِ الْإِبْرِيقِ صَافِيَةٍ

كَدَمْعٍ مَنْجُوعَةٍ بِالْإِلْفِ مِعْبَارٍ

2 — كَأَنَّ إِبْرِيقَنَا وَالرَّاحُ فِي فَمِهِ

طَيْرٌ تَنَاولَ يَاقُوتَا بِمَنْقَارٍ (225)

ورغم أن بعض المعاني المادحة المقتضبة كانت تمازج بعض أوصافه الصريحة للأزهار، كقوله في الترجمان: (بسيط)

1 — لَمْ أَذِرْ قَبْلَ تَرْجَمَانٍ عَلِمْتَ بِهِ

أَنَّ الزَّمْرَدَ قَضْبَانٌ وَأُورَاقُ

2 — كَأَنَّمَا الْحَاجِبُ الْمَيْمُونُ عَلَّمَهُ

فَعَلَّ الْجَمِيلُ فَطَابَتْ مِنْهُ أَخْلَاقُ (226)

تظل بقايا القصائد التي قالها في وصف انتصارات ممدوحه نموذجاً لإحسانه في بناء مقاطع الوصف المادح تقرباً إلى الممدوح. ومن خير أوصافه المادحة، أبيات قصيدته التي قالها في وصف الحديقة التي غرسها المهدي من رؤوس أعدائه: (وافر)

جَلَاءُ الْعَيْنِ مِبْهَجَةُ النُّفُوسِ حَدَائِقُ أَطْلَعَتْ ثَمَرَ الرُّؤُوسِ (227)

(224) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص: 100.

(225) الذخيرة 25/1/4، وبدائع البدائع ص: 302. وانظر في وصفه المجلس في يوم بارد التشبيهات ص: 173.

(226) البيان المغرب 19/3.

(227) الذخيرة 27/1/2.

ولا يقل عن هذه حسنا قوله في معركة، لعلها التي خاضها عبد الملك المظفر بأمر من أبيه الحاجب المنصور، ضد جيوش زيري بن عطية بعد أن عبر إليهم البحر: (كامل)

عَزُوْ كَوْلَغِ الذَّنْبِ عَنْ ظَمًا فِي بَارِدِ حَصِرٍ مِنَ التَّعَبِ⁽²²⁸⁾
ومن مدائحه في المنصور التي رآها صالحة لأن تكون فصا من الفصوص، دالية أثبتها قائلا: «قال صاعد بن الحسن: ونلقي دلونا في الدلاء، وللمرتاد رزقه، وللناقد اختياره؛ قلتُ في مولانا المنصور أيده الله من قصيدة أولها: (رمل)

- 1 — قَدْ وَجَدْنَا الدَّمَعَ أَشْفَى لِلْكَمْدِ
وَرَأَيْنَا الْغَيَّ أَذْنَى لِلرَّشْدِ
- 2 — وَالَّذِي أَعْطَى أَبَا عَامِرٍ الْـ
مُلْكَ وَالِدَيْنِ وَنَصَرَ الْمُضْطَهْدِ
- 3 — مَا رَأَتْ عَيْنَايَ شَمْسًا قَبْلَهُ
طَلَعَتْ فِي الْأَفْقِ مِنْ وَجْهِ أَسَدِ
- 4 — يَجْمَعُ الدُّنْيَا بِكَفِّي رَأْيَهُ
جَمْعَكَ الْأَلْفَ فِي عَقْدِ الْعَدَدِ
- 5 — يَسْأَلُ الْعَانِي أَنْ يَسْأَلَهُ
فَإِذَا أَوْلَاهُ مَعْرُوفًا جَحَدُ⁽²²⁹⁾

وكما شهدت المدائح التي قالها في المنصور على فترة العز التي قضاها صاعد في بلاط المنصور، شهدت المدائح التي قالها في الممدوحين اللاحقين، على تغير أحواله في الأندلس وانتهائه إلى الفقر الصريح. فالمدائح التي صاغها لولي نعمته المنصور،

(228) التشبيهات ص: 218.

(229) الفصوص ص: 127 ب.

عندما أكمل بناء قصر الزاهرة، تحمل آثار الانشراح والسكينة التي كانت تملأ قلبه وهو تحت رعاية المنصور. ولعل البائية التي قالها في هذا الملك، كانت من الشعر الجيد، بالقياس إلى ما حسن من شعره، فقد كشف فيها عن نفس شعري لا يمكن تجاهله. وأظن أنه وهو ينظم هذه القصيدة، كان يتمثل ببناء قصيدة أبي النجم البائية التي أوردها في الفصوص، (230) ومعاني هائية البحري وهو يصف بركة المتوكل: (بسيط)

1 — يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ مِنْ يَمَنِ
وَالْمُبْتَنِّي نَسَباً غَيْرَ الَّذِي انْتَسَبَا (231)

2 — يَغْزَوَةٌ فِي قُلُوبِ الشُّرَكَ رَاتِعَةٌ
بَيِّنَ الْمَنَآيَا تَنَاقِي السُّمَرِ وَالْقُضْبَا

وعبر صاعد في مدحة ثانية، خلد بها أعظم انتصارات المنصور (232) عن نفس ملحمي لا يخلو من قوة: (كامل)

1 — جَدَّدْتُ شُكْرِي لِلَّهِوَى الْمُتَجَدِّدِ
وَعَهْدْتُ عِنْدَكَ مِنْهُ مَا لَمْ يُعْهَدِ

2 — فَتَحَ الْفُؤَا إِمْحَنَتْ، وَتَجَمَّعُوا
إِمْفَرَّقِي، وَتَأَلَّفُوا إِمْبَدَّدِ (233)

وبموت المنصور، وتولي ابنه عبد الملك المظفر، تغير نفس مديح صاعد المنشرح، وأصبح مشوبا ببعض ما انكشف عن حالة توجس ويأس، يبدو أن صاعدا عانى منها بعد موت ولي نعمته. فالبائية التي أرسلها إلى عبد الملك المظفر يهنئه بعيد الفطر، كانت

(230) الفصوص ص: 1101.

(231) البيان المغرب 2/ 277.

(232) هو الانتصار الذي حققه في غزوة جربيرة سنة 390هـ.

(233) أعمال الأعلام ص: 510.

في الحين نفسه إعلانا عن عزم صاعد على ترك مجالس اللهو والأنس. وكان المرض عذر صاعد إلى ممدوحه المظفر. (234) ولم يخف البيتان المادحان اللذان قالهما صاعد، عندما قتل المظفر وزيره ابن القطاع - وكان صديقا لصاعد - التوجس (235) الذي أصبح يملأ قلبه، رغم أن المناسبة كانت مدحا: (بسيط)

1 — فَبِتْلَكَ هَامَتُهُ فِي الْجَوِّ نَاطِقَةً
تُحَدِّثُ النَّاسَ مِنْ آيَاتِهَا عِبَرًا (236)

2 — مَكْتُوبَةُ الْوَجْهِ بِالْهِنْدِيِّ يَقْرَؤُهُ
مَنْ لَيْسَ يَقْرَأُ مَكْتُوبًا وَلَا سَطْرًا

وتحوّل مديحه في الفترة الأخيرة من حياته في الأندلس، من صورة المديح الشاكر للنعم، إلى صورة المديح المستجدي لما يستر من الرزق؛ ومن ذلك ما قاله في الخليفة سليمان المستعين، وما قاله في القائد علي بن وداعة. فالقصيدة الحائية التي مدح بها هذا القائد، تكشف عن تذلل وتصاغر، ما كانا ليصدرا عنه لو كان المنصور ما يزال حيا. (237) ولعل مدائحه قد عادت إلى انشراحها وتهللها في آخر أيامه بالأندلس، عندما اتصل بمجاهد العامري، ومنذر بن يحيى التجيبي، بعد مغادرته قرطبة إلى دانية وسرقسطة. لكننا لا نملك من مدائح هذه المرحلة من حياته بالأندلس، إلا بقايا قصيدة مدح، جعلها جزءا من رسالة شكر كتبها إلى مجاهد، يشكره على ما وصله به من مال، ويصف انتصاره على خيران العامري، وفيها يقول: (متقارب)

(234) انظر جذوة المقتبس ص: 224.

(235) يبدو هذا التوجس في جعله هامة صديقه المقتول الوزير ابن القطاع عبرة.

(236) الذخيرة 1 - 128/1.

(237) الذخيرة 4 - 54/1.

أَتَتِكَ الْخَرِيْطَةُ وَالْمَرْكَبُ كَمَا اقْتَرَنَ السَّعْدُ وَالْكَوْكَبُ (238)
ورغم بعض السرور الذي عبر عنه اندفاع المتقارب في هذه
الأبيات، يحس القارئ بأن ورود المال لم يستطع أن يمحو كل
الحزن الذي كان قد بدأ يملأ قلبه منذ وفاة المنصور.
أما غزله، فلم يشغل في ما وصلنا من شعره، إلا أبياتا قليلة،
منها أبيات نسيب (239) تقليدي استهل به معارضته لرائية أبي
نواس؛ إلا أن ما وصل إلينا من غزله يوحي بأن صاعدا لم يكن
يملك نفسا غزليا مرهفا، فقوله في وصف لحظة فراق، لا يخلو من
برودة: (وافر)

- 1 — فَرَدَّتْ أَعْيُنَ الرُّقَبَاءِ حَيْرَى
بِالْحَاظِ كَالْحَاظِ الْمَرْوَعِ (240)
- 2 — وَلَمْ يَكُ فِي إِذْ رَحَلُوا سِوَى أَنْ
أَغَارِلُهُمْ بِأَطْرَافِ الدُّمُوعِ
وأرق من هذين البيتين قوله في لحظة الفراق أيضا: (منسرح)
- 1 — قُلْتُ لَهُ وَالرَّقِيبُ يُعْجِلُهُ
مُؤَوِّدَعًا لِلْفِرَاقِ: أَتَيْنَ أَنَا
- 2 — فَمَدَّ كَفًّا إِلَى تَرَائِبِهِ
وَقَالَ: سِرْ وَارِعًا، فَأَنْتَ هُنَا

أما نسيبه في القصيدة التي عارض بها رائية أبي نواس، فقد
كان استثمارا لمحفوظه من الشعر البدوي، كما يتضح من
استلهامه صورة البقرة المسبوعة، أو التي أصاب الصياد صغيرها؛
وهي صورة كثيرة التردد في الشعر القديم. (241) إلا أن التكلف باد

(238) الذخيرة 4 - 1/23.

(239) الذخيرة 4 - 1/12.

(240) الذخيرة 4 - 1/23.

(241) انظر مثلا قول لبيد:

أَفْتَلَّكَ أُمٌّ وَحِشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصَّوَارِ قِوَامُهَا

على صياغة الصورة التي شبه فيها صاعد أشلاء الحشف بلحم
الجزور المقسمة: (طويل)

- 1 — وَبَاتَتْ كَمَا بَاتَتْ مَهَاهُ حَمِيلَةً
لَهَا جُودَرُ عِنْدَ الصَّرَاةِ عَقِيرُ
- 2 — وَقَدْ أَكَلَتْ أَشْـلَاؤُهُ فَكَأَنَّهَا
مُقَسَّمَةٌ عِنْدَ الْقِدَاحِ جَزُورُ
- 3 — كَمَا بَغَمَتْ مِنْ شَجَبِيوْهَا أُمُّ وَاحِدٍ
أُتِيحَ لَهَا مِثْلُ الرُّجَاجِ طَرِيرُ
- 4 — لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى صَغَتْ شَمْسُ يَوْمِهَا
وَفِي أَبْهَرِيْهَا رَنَّةٌ وَزَفِيرُ
- 5 — تَسُوفُ تَرَاهُ عَنْ مَشَقِّ إِهَابِهِ
كَأَنَّ أَسَابِي الدِّمَاءِ عَتِيرُ (242)

د) ورغم قلة ما بأيدينا من شعر صاعد، نستطيع استئناسا
بهذا القليل الذي وصلنا، أن نتعرف بعض خصائص أسلوب هذا
العالم الشاعر في توظيف العناصر الشعرية الأولية الدقيقة.
ونكتفي في هذا المدخل بالحديث المقتضب عن توزيع الأوزان
والقوافي في شعره، من خلال ما وصل إلينا من نماذج، فهو يركب
الطويل، والبسيط، والوافر، والكامل، والرمل، والمنسرح، والخفيف،
والمجتث، والمتقارب؛ إلا أن أضرب الكامل والبسيط والوافر
والطويل كانت الأبحر الغالبة على ما تبقى من أشعاره.

ويبدو من خلال ورود الكامل والبسيط والوافر والطويل في
مدحه ومقطوعاته الواصفة، أنه لم يكن يراعي العلاقة بين بنية
الوزن الإيقاعية، وموضوع الشعر، ويفسر ذلك بميله إلى الأوزان
الطويلة لذاتها. أما هذا الميل نفسه إلى ما امتد وطال من الأوزان،

فيعود إلى تشبعه بإيقاع هذه الأوزان، من خلال ما اختزنه ذاكرته من محفوظ شعري قديم.

ويظهر تأثير هذا المحفوظ أيضا، في اختياره لقوافيه؛ فصاعد، رغم نشأته في عصر كان الشعراء فيه يفاخرون بالقدرة على النظم على كل القوافي، إظهارا لسعة المحفوظ اللغوي، لم يخرج عن القوافي التي نظم عليها القدماء. ففي النماذج التي نقلتها المصادر، نجد صاعدا يركب الميم رويا، والعين، والباء، والتاء، والdal، واللام، والصاد، والسين، والفاء، والقاف، والنون، والراء، والحاء. إلا أن توزيع هذه القوافي نفسها، كان خاضعا لقيمتها الصوتية؛ فمعظم ما بأيدينا من شعره بني على ما أسماه القدماء بالقوافي الذلل، وهي قواف أكثر منها القدماء لإطرابها السمع. وكانت الباء والdal، أغلب هذه القوافي على شعره. ورغم القيمة الموسيقية للنون واللام، رويا، لم يكثر في شعره؛ ولعل قلتهما هذه، تعود إلى ضياع لامياته ونونياته، والملاحظ أن نصف هذه القوافي ورد مردفا. أما مجاري هذه القوافي، فقد غلب عليها الكسر والضم، ولم يقيد صاعد الروي إلا مرتين.

من خلال هذا الوصف السريع للأوزان والقوافي في ما لم يضع من شعره، يتبين أن محفوظ هذا العالم من أشعار القدماء، قد جعله ينحو في اختيار الأوزان والقوافي منحى قديما، أبعد عن الأوزان القصيرة والقوافي المتكلفة التي كثرت في أشعار المولدين والمحدثين.

هـ) ورغم عناية القدماء النسبية بأخبار صاعد، لم تلق أشعاره من لدن النقاد العناية التي يمكن أن تعرفنا بمنزلته الشعرية لدى النقاد القدامى. فالمصادر التي اهتمت بشعره وشاعريته جد قليلة؛ وقد تكون التشبيهات، والذخيرة، والبذاءع، والنفج، المؤلفات التي نظر أصحابها إلى شعره نظرة نقدية. أما التشبيهات، وبذاءع

البداء، فقد تجلّى اهتمامهما النقدي بشعره في اختيار بعض مقطوعاته، وجعلها نموذجاً يحتذى في باب التشبيهات والبداء البديعة. ولعل الصداقة التي جمعت بين صاعد وابن الكتاني كانت سبباً في تحبيب شعره إلى صديقه. (243) وأما الذخيرة، والنفع، فقد تضمننا أو نقلاً بعض ما يعد تقويماً نقدياً لشاعرية صاعد؛ إلا أن هذا التقويم النقدي قصر على تناول بديهته وارتجاله، ثم التنبيه إلى سرقاته. فسرعة البديهة كانت لدى معاصريه دليلاً على قوة الشاعرية، وتمكن الشاعر من فن النظم. وكان اختبار هذه البديهة يتم بمفاجأة الشاعر، بأن يطلب منه وصف مشهد مفتعل، لم يكن قد تهيأ لوصفه أو وصف مثله. ويظهر أن صاعداً الذي اشتهر بسرعة جوابه وحضور بديهته، كان يملك القدرة على النظم وارتجال الشعر في المناسبات الطارئة وغير المتوقعة. ولم يعترف بقصوره، إلا عندما طلب منه المنصور معارضته رائية أبي نواس. (244) لكن اعترافه بقصوره عن معارضة شعر أحد كبار شعراء المشرق، حتى بالروية، (245) لم يكن ليمنعه من أن يتحدى معاصريه من شعراء الأندلس، بما كان يقوله ارتجالاً وبديهة. فالمقري ينقل عن ابن سعيد خبراً يفيد أن صاعداً تحدى ابن العريف أمام المنصور، بأبيات في وصف قصر الزاهرة، فاقت حسناً البيتين اللذين كان ابن العريف قد هياهما لوصفها؛ وكان مما قاله المنصور لابن العريف وهو يستحسن أبيات صاعد المرتجلة: «مالك فائدة في مناقضة مَنْ هذا ارتجاله...». (246) وكان الرد على إعجاب السامعين بمثل هذه البداء، لا يتم إلا باتهام

(243) كان صاعد نزل ضيفاً على ابن الكتاني في سرقسطة.

(244) الذخيرة 4 - 22/1 - 23.

(245) مما قاله صاعد معتذراً:

إني لاستحيي علاك من ارتجال القول فيه

(246) نفع الطيب 582/1.

الشاعر بالسرقة، ونسبة الشعر إلى غيره. وقد نقلت جل المصادر خبر البيتين اللذين قالهما صاعد في وصف وردة لم تستتم تفتحها، فكانا سببا في اتهامه بالسرقة، وغضب المنصور عليه. ولم يكن أمام صاعد لينفي ما اتهم به، إلا أن يبرهن أمام المنصور على أنه أقدر شعرائه على الارتجال، بوصفه المشهد الذي كان المنصور قد أعده لاختبار شاعريته وبداهته. (247) وإذا كان ابن بسام قد نقل هذا الخبر، ليكشف عن علاقة الحسد بما اتهم به صاعد، فإنه في مكان آخر، (248) لم يتردد من أن يشير إلى ما اعتبره سرقة صريحة، تشكك في أصالة ما كان صاعد يزعم قوله على البديهة. وقد يكون صاعد - فعلا - قد نسب إلى بديهته متعمدا، ما أخذه من أشعار معاصريه في المشرق؛ لكن هذا لا يمنعنا من أن نفسر هذا التشابه، بتسرب ما اختزن في ذاكرته من أشعار معاصريه إلى أبياته، دون أن يكون ذلك مقصودا.

والملاحظ رغم عناية بعض المصادر بشعر صاعد، ورود بعض الخلط بين أشعاره وأشعار غيره. فابن بسام يقول في ترجمته لصاعد: «وصاعد القائل (مجزوء الرمل):

1 — لِي مِنْ سِيَرِ بَنِي الْعَبْثِ —
بَاسِ خِلٍّ وَجَلِيسُ

2 — فَإِذَا جَاءَ السَّتْرُ لَمْ
تَدْرِ مَنْ مِنَّْا الْجَلِيسُ (249)

(247) انظر الخبر في الذخيرة 4 - 17/1 - 19.

(248) الذخيرة 4 - 1/25.

(249) الذخيرة 4 - 1/21.

بينما ورد هذا الشعر الذي نسبته ابن بسام إلى صاعد، مُصَرَّحاً
بنسبته في كتاب الفصوص، إلى الشاعر العباسي كشاجم، (250)
كما ورد في ديوانه نفسه. (251)

وفي ترجمة السلفي، (252) والقفطي، (253) والصفدي، (254)
والمقري (255) لصاعد، نسب إليه الشعر الآتي: (كامل)

- 1 — وَمَهْفَهْفٍ أَبْهَى مِنْ الْقَمَرِ
قَمَرَ الْفُؤَادِ بِفَاتِنِ النَّظَرِ
- 2 — خَالَسْتُهُ تَفَّاحَ وَجْنَتَيْهِ
فَأَخَذْتُهَا مِنْهُ عَلَى غَرَرِ
- 3 — فَأَخَاقِنِي قَوْمٌ فَقُلْتُ لَهُمْ
لَا قَطْعَ فِي ثَمَرٍ وَلَا كَثَرِ

رغم أن صاعدا نسب هذه الأبيات في كتابه الفصوص، إلى
صديقه الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف. (256) وقد نجم
عن هذا الخط، أن بلاشير (257) في دراسته عن صاعد وشعره،
ذهب - وهو يجهل أن هذه الأبيات ليست لصاعد - إلى أنها تشير
إلى جارية عشقها صاحب «الفصوص» بالأندلس.

إن الدراسة المتأنية لأشعار صاعد، قد توصلنا إلى الحكم على
هذا الشعر، بأنه لم يكن يرتفع إلى درجة أشعار معاصريه في
المشرق؛ ورغم ذلك نجد أنفسنا مرغمين على أن نعترف بأن هذه

(250) الفصوص ص: 191.

(251) ديوان كشاجم ص: 287.

(252) معجم السلفي ص: 144 - 145.

(253) إنباه الرواة 2/66.

(254) الوافي بالوفيات 16/230.

(255) النفح 4/76.

(256) الفصوص ص: 111أ.

(257) انظر مقالة بلاشير في مجله هسبريس ج 10، مج: 1، سنة 1930.

الأشعار نفسها، هي التي جعلت صاعدا العالم، يصبح شاعر المنصور في الأندلس.

IV - صاعد الكاتب :

انفرد ابن بسام في ذخيرته بنقل فصول من ثلاثة رسائل لصاعد، إلا أن هذه الرسائل لا يمكن أن تقوم شاهدا على أن صاحب الفصوص كان احترف الترسل، فالرسائل الثلاث كلها كتبت للتبليغ، لا لإظهار البلاغة. أما الرسالة الأولى (258) فقد كتبها على لسان صديقه الوزير عبد الله بن مسلمة، إلى الوزير ابن الدب، ليشفع له عند الخليفة سليمان. وكتب الرسالة الثانية (259) إلى مجاهد العامري صاحب دانية، يصف ظهوره على خيران العامري وأسره لجماعة من الصقلاب، ويشكره على ما وصله به. كما كتب الرسالة الثالثة أيام الفتنة، إلى القائد علي بن وداعة يستغيث به، بعد أن ساءت أحواله وضاق به العيش. وما نلاحظه في هذه الرسائل أن صاعدا يميل بالصياغة إلى التعبير عن القصد المطلوب، أكثر من ميله إلى التأنيق. فالأسجاع في هذه الرسائل قليلة، رغم أن السجع في المشرق كان قد أصبح غاية تطلب، وقصة الرسالة التي بعثها صاحب بن عباد من النوبهار في وسط النهار مشهورة. والجمل لا تخضع لتقطيع إيقاعي منتظم، والقصد والاعتدال في إيراد الجناس والطباق واضح، كما يدل على ذلك قوله في رسالته إلى الوزير ابن الدب: «لما جمع الله طوائف الفضل عليك، وأذلق بك الألسن، وأرهق فيك الخواطر، ورفرف عليك طير الآمال، ونفضت إليك علائق الرحال، لم أجد لابن سلمة حين عضه الثقاف، وضاق به الخناق، وانقطع الرجاء، وكبابه

(258) الذخيرة 4 - 10/1.

(259) الذخيرة 4 - 11/1.

الدهر، ملجأ غيرك؛ فعطفك على واله نبهه النحس من سنة السعد، وأيقظته الآفات من رقدة الغفلة، ورشقته سهام الزمان بصنوف الامتهان، حتى لقب المنية أمنية، وسمى الموت فوتا. ومن لم يكتب له الدهر سجلا، ولا عقد له أمانا، ولا أشهد على نفسه ثقة، فليكن منه على حذر، ومن نبوته على يقين الخبر. وليعلم أن اصطناع المعروف يكافئ المرء في سمعه وبصره، ويلقاه في طريقه، ويحول بينه وبين محاربه، ويجازيه في أهله وولده، ويصحبه في اغترابه عن بلده». (260) ومقابل اعتداله في التصنيع، نجده يميل إلى الإكثار من عطف الجمل بعضها على بعض، كما يتبين في الرسالة السابقة، وفي العبارات الأولى منها بصفة خاصة. ولعل هذا الإلحاح في استعمال واو العطف، كان تعبيرا غير مباشر عن الإلحاح في الطلب نفسه.

٧ - صاعد النديم :

كان الملوك والوزراء، في القرون الأولى، قد جعلوا من «النديم» شخصا مكملا للمجالس التي يحضرها علماء وشعراء، يمنعهم وقارهم من أن يتحولوا إلى مهرجين مضحكين. لكن التنافس من أجل الوصول إلى هذه المجالس، أصبح منذ القرن الثاني الهجري، يدفع بعض الشعراء إلى التخلي عن وقارهم وجدهم، للتحول إلى ندماء متحامقين، يدخلون مجالس الحكام من أبواب غير التي يدخل منها أهل الوقار. وقد افتخر بعض هؤلاء الشعراء بأن تحامقه قد أكسبه من المال، ما لم يكسبه إياه جده وعلمه: (طويل)

وَصَيَّرَ لِي حُمُقِي بَغَالًا وَغِلْمَةً وَكُنْتُ زَمَانَ الْعَقْلِ مُمْتَطِيًا رِجْلِي

ودخل القرن الرابع، ليعلن عن ميلاد نموذج جديد للنديم، نموذج العالم الوقور الذي لا يمنعه وقاره من أن يتحول في نفس

(260) الذخيرة 4 - 10/1.

المجلس إلى عابث ماجن للتسلية والتسلي. وكان الوزير المهلبى ممن شجع على ظهور هذا النوع من الندماء. (261) ولم يكن امتناع أبي الطيب عن مدح المهلبى، إلا نفورا من العبث والمجون اللذين غلبا على مجالسه. (262)

وكان على كبار الشعراء أن يتحامقوا متنكرين لجدهم وعلمهم، ليضمنوا لأنفسهم مكانة في مجالس الحكام؛ يقول ابن لنك، داعيا أهل الجد من العلماء والشعراء إلى ترك الجد واصطناع الحمق والهزل: (كامل)

- 1 — يَاطَا لِبَاً بِأَلْعِلْمِ حَظًّا مُسْعِفَاً
فِي ذَا الزَّمَانِ رَأَيْتَ رَأْيِي مُخَرَّنَقِ
- 2 — أَنْفَاقَ عِلْمٍ فِي زَمَانٍ جَهَالَةٍ
تَرْجُو وَدَهْرٍ عَمَى وَسُخْفٍ مُطَبَّقِ
- 3 — كُنْ سَاعِيَاً وَمُصَافِعَاً وَمُضَارِطَاً
تَنَلِ الرِّغَائِبَ فِي الزَّمَانِ وَتَنَفِّقِ (263)

ويؤكد العكبري أن تحامقه، هو الذي أكسبه رزقه: (بسيط)
وَلَسْتُ مُكْتَسِبًا رِزْقًا يَفْلُسَفَةً وَلَا بِشِعْرِ وَلَكِنْ بِالْمَخَارِقِ (264)
وكان ابن الحجاج وابن سكرة، صديقا صاعد، ممن جعلوا ترك العلم الجاد، واصطناع الهزل، مدخلا إلى مجالس الملوك والوزراء. وقد اعترف ابن الحجاج بأنه ما كان ليترك الشعر الجاد - وهو القادر عليه - لو لم يدرك أن الرزق سبيله الهزل والتماجن: (مخلع البسيط)

(261) انظر الخبر الذي ينقله الثعالبي عن مجون المهلبى والقاضي التنوخي في اليتيمة.

(262) انظر خزنة الأدب 386/1 حيث الإشارة إلى عبث ابن الحجاج وأمثاله بأبي الطيب عندما امتنع عن مدح المهلبى ترفعا عن مجونه وهزله.

(263) يتيمة الدهر 350/2.

(264) يتيمة الدهر 117/3.

- 1 — يَا أَحْمَدَ بْنَ عَمْرٍو
تَعْرِفُ لِلنَّاسِ مِثْلَ شَعْرِي
- 2 — شِعْرٌ يَفِيضُ الْكَثِيفُ مِنْهُ
مِنْ جَانِبَيْ خَاطِرِي وَنَحْرِي
- 3 — لَوْ جَدِ شَعْرِي رَأَيْتُ فِيهِ
كَوَاكِبَ اللَّيْلِ كَيْفَ تَسْرِي
- 4 — وَإِنَّمَا هَزْلُهُ مُجُونٌ
يَمْشِي بِهِ فِي الْمَعَاشِ أَمْرِي (265)

ولم يكن ابن الحجاج مخطئاً، فقد أكسبته شخصية النديم المهرج منصب الخراج والحسبة ببغداد، فضلاً عن المال. ولم ينج صاعد من تأثير هذه النظرية، فعلاقته بالوزير المهلبي، وصداقته لابن الحجاج وابن سكرة، وروايته أشعارهما، مما يجعلنا نعتقد أنه قد استطاع في المشرق، أن يحصل من العلم وغيره، ما أكسبه شخصية «النديم» المحترف. وإشارة ابن خير إلى أنه كان ينادم الوزير ابن حنزابة بمصر لا يفارقه، (266) تدل على أنه كان قد اكتسب في مجالس المهلبي، وابن العميد، وعضد الدولة، ومجالس أصدقائه، كل آداب المنادمة وأسرارها، قبل أن يرحل عن بغداد. وقد شهد له الأندلسيون - رغم عدااء بعضهم له - بالبراعة في المنادمة، فتلميذه ابن حيان يسميه أبا العلاء صاعد بن الحسن البغدادي النديم، (267) وصديقه الوزير أبو حفص بن برد يسلم له بالتفوق والبراعة في كل ما يحبب النديم إلى مجالسيه: (بسيط)
أَنْتَ الَّذِي لَمْ يَعْاشَرْ مِثْلُهُ رَجُلًا فِي الْعِلْمِ وَالظَّرْفِ وَالْأَدَابِ وَالطِّيبِ (268)

(265) بيتيمة الدهر 32/3.

(266) فهرست ابن خير ص: 358 - 359.

(267) نقلاً عن البيان المغرب 18/3.

(268) الذخيرة 1 - 129/1.

إن المكانة التي حظي بها صاعد في بلاط المنصور - رغم مكاييد خصومه - لا تفسر، إلا بكون صاعد وهب من الآداب والصنائع والاستعداد للمنادمة، ما لم يتوافر لغيره من الندماء، ويتبين هذا من خلال تناولنا للأبعاد المتعددة لشخصية صاعد المنادمة.

(1) النديم العالم :

كان الاختبار الذي أفحم فيه صاعد الزبيدي والعاصمي، كافيا لإقناع المنصور بسعة علم ضيفه المشرقي؛ لكن صاعدا أبى إلا أن يثبت لولي نعمته الجديد أنه ضم إلى مجلسه عالما ليس كباقي العلماء، فاستأذنه في تأليف الفصوص، ولم يكن التأليف نفسه سبيل صاعد إلى ترسيخ مكانته في بلاط المنصور، فالقالي قد ألف قبله أماليه. لكن أن يخبر المنصور بأنه سيؤلف له كتابا أرفع من نوادر القالي قدرا وأجل خطرا، لا يدخل فيه خبرا مما أدخله القالي،⁽²⁶⁹⁾ كان التحدي العلمي الذي شكك به صاعد في سعة علم تلامذة القالي، بل وفي سعة علم شيخهم نفسه. أما المال الكثير الذي أثابه به المنصور دفعة⁽²⁷⁰⁾ واحدة، فقد كان شهادة شهد بها هذا الملك لصاعد، بأنه عالم مجالسه الأول.

(2) النديم المسامر :

كان أدب الظرف الذي روج له الوشاء وغيره، نوعا من الخطاب، يتوسط بين جفاء التزمت وخلاعة المجون؛ وكانت براعة الظرفاء في الحديث والمجالسة، مما قربهم إلى الملوك والوزراء وكبار الحكام. ويبدو أن صاعدا كان - وهو يحضر مجالس المهلبى، وابن العميد، وعضد الدولة في المشرق - قد خبر فن

(269) الذخيرة 4 - 15/1.

(270) الصلة ص: 238.

المجالسة والحديث. ولم يكن الأديب يدرك هذه الخبرة، إلا بعد أن يصبح هو نفسه متذوقا لما يمتع به الظرفاء. وقد عبر صاعد عن هذه المتعة في إirاده قول كشاجم واصفا صديقا له كان من الجلساء الظرفاء: (مجزوء الرمل)

- 1 — لِي مِنْ سِرِّبَنِي الْعَبَّاسِ خُلٌّ وَجَلِيسُ
- 2 — شَهِدَ الْمَجْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ الْعَلْقُ النَّفِيسُ
- 3 — فَإِذَا جَالَسْتُهُ لَمْ تَدْرِ مَنْ مِّنَّا الْجَلِيسُ (271)

وقد اعترفت جل المصادر القديمة لصاعد بالبراعة في فن المجالسة، فالحميدي في القرن الخامس الهجري يصفه بأنه كان «طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعا». (272) ويرد نفس الوصف عند ابن بشكوال، (273) والضبي، (274) والمراكشي، (275) والقفطي، (276) ووصفه الصفدي بأنه كان طيب العشرة حلو المفاكهة. (277) وما قصة الأيل الذي أهده (278) صاعد إلى المنصور، إلا دليل على لطافة ظرفه، وخبرته بمعاشرة الملوك. وكانت مسامراته ثمارا جناها المنصور، وشغف بها، وكان من ألد ما جناه من هذه الثمار كتاب الهجفجف بن غدقان بن يثربى مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف، ثم كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء؛ وقد استطاع صاعد بإجادته بناء حكاية الجواس وابنة عمه، أن يجعل المنصور متعلقا بهذا الكتاب، مع علمه بأنه كان من نسج

(271) الفصوص 91أ.

(272) جذوة المقتبس ص: 223.

(273) الصلة ص: 237.

(274) بغية الملتمس ص: 319.

(275) المعجب ص: 31.

(276) إنباه الرواة ص: 86.

(277) الوافي بالوفيات 16/227.

(278) نقلت جل المصادر خبر هذه الحادثة، انظر مثلا جذوة ص: 226، والمعجب 37.

خيال مؤلفه: «وكان يصنف كتباً في أخبار العشاق، ويسمي أسماء غريبة لا أصل لها، وينسب إليها كلاماً منظوماً منثوراً، يرصعها من قوله وقول غيره، فمنها كتاب الهجفجف وكتاب الجواس؛ وكان المنصور مغرماً بكتاب الجواس، يُقرأ عليه كل ليلة شيء منه». (279) وقد أكد المراكشي الذي قرأ الكتاب بعد أكثر من قرنين، أن كتاب الجواس كان ممتعاً: «وهو كتاب مليح جداً، انخرم أيام الفتن بالأندلس، فنقصت منه أوراق لم توجد بعد». (280)

إننا نعرف صاعداً الشاعر من خلال أشعاره، وسنعرف صاعداً العالم الراوية من خلال كتاب الفصوص الذي كان لنا شرف إخراجه إلى القارئ، بعد أن أصبح اسمه شبه أسطورة؛ فلعل الأيام تجود بإظهار كتابي الهجفجف والجواس، لنتعرف صاعداً النديم المسامر، في عصر كشفت فيه المناهج الحديثة عن أن مثل هذا الأدب رصيد ثقافي لا يجب تجاهله.

(3) النديم المغني والعالم الموسيقار :

نعثر في الذخيرة على خبرين يفيدان أن صاعداً كان عالماً بالنغم والألحان؛ الخبر الأول يتعلق بالمجلس الذي امتحن فيه المنصور صاعداً، ومن بين ما نقله ابن بسام في هذا الخبر «قال صاعد: وبضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وفك المعمى، وعلم الموسيقى». (281)

والخبر الثاني يفيد أنه كان يخفي علمه بالموسيقى عن المنصور، وعلى عامة الناس: «ودخل صاعد يوماً على المنصور؛ فلما وصل إليه، وجد عوداً بين يديه. فقال له المنصور: قد تواتر

(279) إنباه الرواة 2/86.

(280) المعجب ص: 33.

(281) الذخيرة 4/15.

الخبر، وتحدث عنك البشر أنك فرد في علم الموسيقى. وقد أردت غير مرة الانبساط معك سرا في ذلك. فشق الأمر على صاعد هنالك، ولم يجد من محيد عن أخذ العود؛ فتناوله، وجس أوتاره، وسوى تسوية أطربت ابن أبي عامر، ثم اندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر...» (282).

وما يثير الانتباه في هذين الخبرين أمران:

- أولهما: التعارض بين تصريحه أمام المنصور بأن علم الموسيقى من معارفه، وإخفاء معرفته به عنه.

- وثانيهما: خفاء دلالة هذا الإخفاء نفسه.

أما التعارض فيظل قائما، إذا ما كان تاريخ المجلس الذي امتحن فيه العلماء صاعدا أسبق من تاريخ المجلس الذي طلب فيه المنصور من ضيفه المشرقي أن يغنيه سرا؛ إلا أن نفس التعارض يختفي، إذا ما افترضنا أن المجلس الذي غنى فيه صاعد للمنصور، كان أسبق من مجلس الامتحان. وإذا لم يحدد المؤرخون تاريخ مجلس الامتحان، فإن الافتراض الثاني يظل مقبولا.

أما دلالة الإخفاء نفسه، فتدعو إلى بعض التأمل. إن المكانة التي اكتسبها زرياب في الأندلس، عند حلوله بها، تفيد أن الأندلسيين لم يكونوا يعادون السماع، ومعرفة صاعد بصناعة الألحان وتآلف الأوزان، لم تكن ظاهرة غريبة؛ ففي المشرق، كان بعض العلماء والشعراء، بل وحتى الخلفاء والقواد، ممن يجيد هذه الصناعة. وكتاب شيخه أبي الفرج نموذج لما يمكن أن يؤلفه عالم شاعر، يجمع بين معرفة الألحان والأشعار والأخبار. لكن ورود مصطلح (موسيقى) عوض «صناعة الألحان»، أو ما يشبهها،

يجعلنا نتساءل عن علاقة هذا العلم الذي حصله، بعلوم الفلسفة أو العلوم العقلية. إن علم الموسيقى ينتمي إلى العلم الرابع من علوم الفلسفة، وهو علم المقادير المشتمل على العلوم الأربعة المسماة بالعلوم، (283) وهي علم الهندسة وعلم الأرتماطيقى، وعلم الموسيقى وعلم الهيئة. هذا المستوى النظري المجرد لعلم الموسيقى يجعلها فوق صناعة الغناء التي تعد صناعة تطبيقية، يمكن أن يساعد الطبع على اكتسابها. إن تأليف ابن المنجم لرسالته في الموسيقى، وتأليف الفارابي لكتاب الموسيقى الكبير في بداية القرن الرابع، يدلان على أن هذا العلم كان متاحاً للراغبين في تحصيله من التلاميذ. وقد يكون صاعد استفاد من هذين المؤلفين، لكن هذا لا يعطينا من التساؤل عن علاقة معرفة صاعد بالموسيقى، بالمجالس العلمية التي كانت تخصص لتدريس علوم الفلسفة. إن إخوان الصفاء الذين عاصروا صاعدا جعلوا دراسة هذا العلم سبيلاً من سبل التهذيب، فهل ارتبط صاعد بهذه الجماعة وهو في المشرق؟ لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال، لكننا نملك نصاً نقله التوحيدي في المقابسات، يفيد أن مجالس تدريس علوم الفلسفة لم تكن غربية عن صاعد «قال يحيى بن عدي في درس البديهي عليه سنة إحدى وستين وثلاثمائة وأنا حاضر... ودخل أبو العلاء صاعد، فانقطع الكلام، وفات أن يبلغ أقصى ما عنده». (284)

لا نستغرب أن يكون صاعد قد اهتم بدراسة الفلسفة، فشيخه في علوم اللغة، أبو سعيد السيرافي كان عالماً بالهندسة والمنطق، (285) ومناظرته لمتى بن يونس المنطقي مشهورة. (286)

(283) مقدمة ابن خلدون (الفصل الثالث عشر) الباب الرابع — «العلوم العقلية وأصنافها».

(284) المقابسات 156 و 157.

(285) الكامل في التاريخ: وفيات سنة 368.

(286) الإمتاع والمؤانسة 109/1.

وإذا ما افترضنا أن صاعدا كان قد حصل فعلا بعض هذه العلوم العقلية، فهل كان إخفاؤه معرفته بعلوم الموسيقى في الأندلس، إخفاء لمعرفته بهذه العلوم، في بيئة كان عامتها ينظرون إلى العلوم العقلية بارتياح؛ وقد تميزت ولاية المنصور للحجابه، بأنها كانت فترة تراجع علوم الفلسفة التي كانت قد ازدهرت بعض الازدهار، بفضل تشجيع الحكم المستنصر على البحث فيها.

لقد أظهر المنصور بن أبي عامر نفورا واضحا من هذه العلوم العقلية - قد يكون حقيقيا، وقد يكون تقربا إلى العوام - تمثل في إحراقه ما حوته خزانة الحكم الثاني من كتب الفلسفة أمام الفقهاء. ولعل العامل الفكري البيئي الذي دفع المنصور إلى إتلاف ما ألف في هذه العلوم، كان هو السبب الذي جعل صاعدا يخفي معرفته بعلم الموسيقى عن المنصور وعن الأندلسيين، خوفا من أن ينسب إلى الاشتغال بعلوم مريبة، لم يكن الاشتغال بها محمودا. ولا نعلم أكانت رغبة المنصور في الانبساط مع صاعد سرا، صيانة لوقاره، أم كانت غير ذلك؟ ولكننا نعلم ما يجعلنا نعتقد أن عبد الملك المظفر كان يطلب من صاعد أن ينظم له أشعارا صالحة للغناء، تغنيها جواريه. (287) إن صاعدا كان قد اعتذر للحاجب الجديد عبد الملك المظفر عن حضور مجالسه. لكن هذه الأشعار الغنائية التي كان ينظمها لقينات المظفر، وهو الشاعر المغني العالم بالموسيقى، تفيد أن هذا الحاجب الجديد، ظل يستفيد من خبرته في الغناء والموسيقى، وإن لم يلزمه بحضور مجالسه.

(4) النديم الماجن :

كان لملازمة صاعد مجالس الوزير المهلب في المشرق، ولصداقته للشاعرين: ابن سكرة، وابن حجاج، أثر في رسم صورة

(287) البيان المغرب 3/ 18.

النديم الهازل الماجن التي عرف بها صاعد في الأندلس، إذ لم يكن يتخرج حتى في المناسبات الجادة من أن يكون هازلا ماجنا، ففي رسالة كتبها إلى الأمير مجاهد يشكره على مال وصله به، يقول: «... ولما أتنني إحدى خرائطك الجزيلة... كاد الفرح يقضي علي... ولولا أنني ثبتت النخيرة... لكنت كأبى مزبد، إذ بعث إليها يحيى بن خالد غلاما، فقال لها: يأمه، وهب لي يحيى (غ). قالت: وما (غ)؟ قال: (لا). وقالت: وما (لا)؟ قال: (م)؛ وطبق الميم على شفتيه، فضرطت. فقال: الحمد لله، ولولا تقطيع الحروف لخريت». (288) ولم تكن محنة الفتنة لتنسيه بعض هزله ومجونه، كما تشهد على ذلك الرسالة السابقة، بل إنه ظل حتى آخر أيامه بالأندلس وهو شيخ تجاوز السبعين يدرس مجون ابن الحجاج لصبيان سرقسطة، كما يذكر تلميذه أبو بكر المصحفي. (289)

ويبدو من خلال ما ورد في المصادر أن هذه الشخصية الهازلة جنت على صاعد العالم، فالحميدي يقول عنه: «... ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزاح، لما حمل إلا على التصديق». (290) وقد وصفه ابن مكتوم بأنه كان مقدما في العلم، كثير الخلاعة؛ وأرجع تشكك الناس في علمه إلى ما اشتهر به من مجون وخلاعة. (291) والمجون الذي نتحدث عنه هنا مجون القول، لا مجون الفعل؛ وهو ما وصفته المصادر القديمة بالمزاح والفكاهة، لكننا نعتقد أن هذا الهزل الماجن الذي عرف به صاعد، جعله يظهر لدى بعض المتأخرين بمظهر الخليع الفاسق، كما يتضح من كلام ابن مكتوم السابق، وفي قول الفيروز آبادي عنه: «وكان خليعا مولعا بالشراب

(288) الذخيرة 12/1/4.

(289) فهرسة ابن خير ص: 406.

(290) جذوة المقتبس ص: 223. وانظر إنباه الرواة 88/2.

(291) نقلا عن بغية الوعاة 7/2. وانظر روضات الجنات 131/4.

واللعب، فلم يؤخذ عنه العلم». (292) وقد يكون صاعد - والله وحده أعلم - قد جرى بعض مجالسيه من الأندلسيين، فشرب كما شربوا، إلا أن هذا الافتراض يظل منفصلاً عن هزله ومجونه أو تماجنه بعبارة أصح. فالأخبار التي نقلتها إلينا المصادر المشرقية، عن أخلاق شعراء تيار الهزل والمجون في القرن الرابع، تفيد أن سلوك هؤلاء الشعراء، لم يكن صورة لأشعارهم المأجنة. فابن الحجاج، الذي تزعم هذا التيار، كان وقوراً، كما شهد بذلك معاصره أبو حيان التوحيدي. (293) وقد تعجب أبو الفتح بن العميد من وقار ابن الحجاج وجده عندما وفد عليه، لأنه كان يتوهمه من خلال شعره غير ذلك. (294) ولم تكن حال صاعد لتختلف عن حال شيخه في الهزل والتماجن ابن الحجاج، فإذا كان هذا الشاعر قد اصطنع الهزل والمجون، ليحصل على معاشه كما يؤكد ذلك قوله: (مخلع البسيط)

- 1 - لَوَجَدَ شِعْرِي رَأَيْتُ فِيهِ
كَوَاكِبَ اللَّيْلِ كَيْفَ تَسْرِي
2 - وَإِنَّمَا هَزْلُهُ مُجُونٌ

يَمْشِي بِهِ فِي الْمَعَايَشِ أَمْرِي (295)

فإن صاعداً أيضاً قد جعل من هزله المسلي للمنصور ومجالسيه وسيلة إلى نيل هبات المنصور. وقد وصفته المصادر بأنه كان فعلاً ظريف السؤال، حاذقاً في استخراج الأموال؛ (296) وما الرقاع التي لبسها صاعد، أو ألبسها غلامه، وهو يتوجه إلى مجلس الحاجب، إلا شاهد على الهزل الذي كان صاعد يصطنعه

(292) البلغة 98.

(293) الإمتاع والمؤانسة 1/137.

(294) الإمتاع والمؤانسة 1/138.

(295) يتيمة الدهر 3/32.

(296) جذوة المقتبس ص: 223.

لاستخراج أموال الحاجب. (297) لقد كان في هزله يعمل بنصيحة شيخه ابن الحجاج، ونصيحة معاصره في بغداد الشاعر الأحنف العكبري الذي قال داعياً إلى اصطناع الهزل: (بسيط)
وَلَسْتُ مُكْتَسِبًا رِزْقًا بِفَلْسَفَةٍ وَلَا بِشِعْرِ وَلَكِنْ بِالْمَخَارِقِ (298)
ولعل كثرة الهزل الذي عيب على صاعد النديم، قد أكسبه من مال المنصور ما لم يكسبه إياه علمه وشعره.

إن المكانة التي حظي بها هذا النديم في بلاط المنصور وفي قلوب أصدقائه، تؤكد أنه تشخيصاً حقيقياً للصورة الشعرية التي رسمها له صديقه الوزير ابن برد وهو يقول له: (بسيط)
أَنْتَ الَّذِي لَمْ يَعْاشِرْ مِثْلَهُ رَجُلًا فِي الْعِلْمِ وَالظَّرْفِ وَالْآدَابِ وَالطِّيبِ (299)

VI - صاعد العالم المصنف :

لا نعرف من الكتب العلمية الجادة التي ألفها صاعد - إذا كان قد ألف كتباً كثيرة - إلا كتاب الفصوص؛ ولارتباط شخصيته العلمية الحقيقية بما تضمنه كتاب الفصوص، نرجى الحديث عن شخصيته العلمية في التصنيف، إلى مبحث لاحق.

VII - صاعد الشيخ :

قد لا نبالغ إذا نحن ربطنا بين تلامذة صاعد، ووصول أخباره وفصوصه إلينا؛ فالهزل وكثرة المزاح اللذان اشتهر بهما، شككا بعض العلماء في صدق ما يقوله، ونفر المحصلين الذين غلب عليهم التزمت من الأخذ عنه، أو رواية أخباره وآثاره. لكن الشهرة العلمية التي اكتسبها بعض تلامذته، أو تلاميذ تلامذته - رغم

(297) جذوة المقتبس ص: 223.

(298) يتيمة الدهر 3/117.

(299) الذخيرة 1/1/129.

قلتهم، بالقياس إلى من تتلمذ للقالى - جعلت بعض أخباره وبعض آثاره تخترق الحواجز الثقافية والتاريخية، لتصل إلينا معرفة بعالم كبير، أراد له سوء طالع أن يبدأ حياته العلمية فى المشرق مشهوراً مغموراً، وأن يموت فى أرض الغرب مشهوراً مغموراً. وكان الرابط بين صاعد الشيخ، ومن تتلمذ عليه من النجباء، متمثلاً فى حضورهم أماليه العامة، أو السماع عنه بمنزله، أو القراءة عليه، أو السماع والقراءة على غيره من الشيوخ وهو حاضر. أما ما أخذه عنه تلامذته ورووه عنه، فقد تجلّى فى روايتهم عنه ما صنفه أو ما رواه عن شيوخه بالمشرق. وسأحاول باقتضاب أن أعرف بعض التعريف بعناصر حلقاته العلمية الثلاث: أقصد تلامذته ومروياته، ومصنفاته.

(1) التلاميذ :

(أ) ابن حيان القرطبي :

أبو مروان بن حيان بن خلف بن حسين المتوفى سنة 469هـ، صاحب المقتبس. أحد من لازم صاعداً من التلاميذ، فقد سمع الفصوص من شيخه وهو يملّيه فى مجالسه بالزاهرة، كما يتضح من قوله: «قد أنشدنا أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي فى كتابه المعروف بالفصوص فى قول هذا الأعرابي الحجازي...» (300) وقرأ عليه منفرداً فى داره سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، كما ذكر هو نفسه. (301) وإلى ابن حيان يعود فضل ذكر تاريخ بداية إملاء الفصوص ونهايته، (302) وذكر كثير من أخبار شيخه التى نقلها ابن بسام، وابن بشكوال، وابن عذاري.

(300) المقتبس 14/3.

(301) الصلة / 238.

(302) الصلة / 238.

ويرجح محمود علي مكي أن مخطوطة الفصوص المحفوظة
بالمغرب من رواية ابن حيان. (303)

ومن التلاميذ الذين روى الفصوص عن ابن حيان أبو
محمد عبد الرحمان بن محمد بن عتاب القرطبي المتوفى
سنة 520هـ. فابن بشكوال يذكر أن ابن حيان أجاز (304) ابن
عتاب في كتاب الفصوص لصاعد؛ وعن ابن عتاب هذا روى
القاضي عياض (305) الفصوص. وروى الفصوص عن ابن حيان
أيضا أبو محمد الركلي، (306) ومهاجر بن محمد بن
حزم، (307) والوزير أبو مروان عبد الملك بن سراج (308)
المتوفى سنة 489هـ، بالإضافة إلى ابنه عمر بن حيان. (309)
وأورد تلميذ ابن حيان أبو عبيد الله عبد الله البكري في
كتبه (معجم ما استعجم) و(التنبيه) و(الآلي) نقولا من
الفصوص قد تدل على روايته لهذا الكتاب عن طريق
شيخه ابن حيان.

(ب) ابن حزم :

علي بن أحمد بن سعيد (أبو محمد) المتوفى سنة 457هـ،
العالم المشارك صاحب المؤلفات المشهورة. وعن ابن حزم نقل
الحميدي بعض أخبار صاعد وأشعاره. (310) ومما صرح ابن حزم
بروايته عن شيخه القصيدة البائية التي أنشدها عبد الملك المظفر

303) المقتبس: مقدمة التحقيق ص: 58.

304) الصلة 348 وانظر فهرسة ابن عطية 81.

305) الغنية ص: 224.

306) معجم الصدفي ص: 16.

307) معجم الصدفي ص: 16.

308) معجم الصدفي ص: 16.

309) معجم الصدفي ص: 16.

310) جذوة المقتبس ص: 223 - 227.

يهنئه بعيد الفطر، وكانت هذه القصيدة أول ما رواه ابن حزم عن شيخه المشرقي: (وأخبرني أبو محمد علي بن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم، أنه سمع أبا العلاء صاعد بن الحسن ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفر، في يوم عيد الفطر سنة ست وتسعين وثلاثمائة. قال أبو محمد: وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر؛ ولما رأي أبي العلاء أستحسنها وأصغي إليها، كتبها لي بخطه، وأنفذها إليّ...). (311) وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى رواية ابن حزم هذا عن صاعد. (312)

ج) ابن سيده المرسى :

أبو الحسن علي بن إسماعيل المتوفى سنة 458هـ، صاحب المحكم، والمخصص. وقد أشارت المصادر إلى تلمذته لصاعد، كما أشار هو نفسه إلى هذه التلمذة في أرجوزته المشهورة. ومما رواه ابن سيده عن شيخه صاعد: كتاب أسماء الوحوش وصفاتها، وكتاب صفات الأرض والسماء، والنبات للأصمعي، والغريب المصنف لأبي عبيد، وإصلاح المنطق ثم تهذيب الألفاظ لابن السكيت، وكتب المجاز عن طريق قرموطة الشيرازي. (313) وبعض المراجع المحدث (314) تشير إلى أن ابن سيده درس علي شيخه صاعد في قرطبة، وهي إشارة تفتقر إلى سندها التاريخي والمنطقي.

فالتاريخ التقريبي لميلاد ابن سيده هو 398هـ، أي قبل بداية الفتنة بسنة، وتاريخ خروج صاعد من قرطبة أيام خلافة

(311) الجذوة ص: 224.

(312) لسان الميزان 163/3.

(313) انظر أرجوزته في كتاب (ابن سيده المرسى) ص: 151، ترجمة الدكتور حسن الوراكي.

(314) نفس المصدر ص: 43، وأبو علي القالي ص: 417.

المستعين الثانية هو 403 و 404هـ، فهل أخذ ابن سيده عن صاعد وهو دون السادسة من عمره. (315) إن الكتب والمعارف التي ذكر ابن سيده في أرجوزته أنه حصلها قبل أن يتلمذ لصاعد تفيد، أن تلمذته لصاحب الفصوص كانت متأخرة. وإذا نحن ربطنا هذا بالمكانة التي سيكتسبها ابن سيده في دانية عند مجاهد العامري، وبوفود شيخه صاعد على هذا الأمير قادما من قرطبة سنة 404هـ، فإن من المحتمل أن يكون ابن سيده قد تلمذ لصاعد في دانية، قبل أن يغادرها الشيخ إلى سرقسطة بعد سنة 408هـ، وهي السنة التي استقل فيها منذر التجيبي بسرقسطة. وإذا نحن جعلنا من الرابعة عشرة، السن التي تلمذ فيها ابن سيده لصاعد، فسيكون قد أخذ عنه بدانية سنة 412هـ. والملاحظ أن ابن سيده لم يصرح في أرجوزته بما يفيد روايته لكتاب الفصوص، لكننا نجد في سياق نقل ابن منظور للأبيات التي قالتها امرأة من العرب، عُنِّنَ عنها زوجها «قال ابن سيده: وهذه الأبيات قرأتها على أبي العلاء صاعد بن الحسن في الكتاب الموسوم بالفصوص»؛ (316) وهي عبارة تفيد أن ابن سيده قد روى بعض كتاب الفصوص، إن لم يكن قد رواه كله.

ويفهم من كلام ابن خير أنه روى جميع ما رواه ابن سيده عن شيخه صاعد من المصنفات: «توالميف الشيخ الأديب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى رحمه الله، وجميع رواياته عن أبيه، وأبي عمر الطلمنكي، وصاعد اللغوي وغيره، روايتي لذلك كله

(315) انظر فهرسة ابن خير حيث قول أبي بكر المصحفي: «كنت أقرأ المداخل على ابن خشخاش وصاعد اللغوي حاضر... وكنت انحط في ذلك الوقت عن القراءة عليه لصغر سني، فكان جدي رحمه الله يشير على ابن خشخاش بأن تكون قراءتي عليه وقت حضور صاعد...» ص: 358.

(316) لسان العرب 3/ 446.

عن أبي الحسن يونس بن محمد بن مغيث، عن القاضي أبي عمر أحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي، عنه» (317) ويفهم من كلامه أيضا أن القاضي أبا عمر أحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي، كان ممن روى مرويات صاعد عن طريق شيخه ابن سيده، وأن أبا الحسن يونس بن محمد بن مغيث كان من الذين رووا هذه المرويات عن طريق القاضي ابن الحذاء التميمي عن ابن سيده عن صاعد.

(د) أبو الوليد هشام بن محمد بن عثمان المعروف بابن المصحفي، المتوفى سنة 440هـ، كان عالما باللغات والآداب، ومن بين من روى عنهم الشيوخ صاعد، (318) وقد روى عنه إصلاح المنطق لابن السكيت. (319)

(هـ) أبو بكر المصحفي: محمد بن هشام، المتوفى سنة 481هـ، كان من المتحققين بالآداب، (320) روى عن صاعد سماعا منه، وعن طريق والده أبي الوليد المصحفي. ومما رواه عن صاعد شعر ابن الحجاج، (321) وابن سكرة. (322)

(و) الخولاني: محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن عثمان بن سعيد بن عبد الله بن غلبون، المتوفى سنة 448هـ، كانت له عناية بتقعيد الحديث وجمعه وروايته. روى عن صاعد. (323) وذكر ابن بشكوال في ترجمته لصاعد، نقلا عن الخولاني نفسه، أن صاعدا أجاز الخولاني هذا في كل ما رواه وألفه : «وذكره

(317) فهرسة ابن خير ص: 450.

(318) الصلة ص: 648.

(319) فهرسة ابن خير ص: 331.

(320) الصلة ص: 656 - 657.

(321) فهرسة ابن خير 406.

(322) فهرسة ابن خير 406.

(323) الصلة ص: 535 - 536.

الخولاني وقال: إنه أجاز له ما رواه وألفه». (324) وكلام الخولاني يفيد ضمناً أنه كان من بين من أجازهم صاعد في الفصوص.

(ز) ابن أبي حبة: محمد بن إبراهيم بن عبد الله الأموي، المتوفى سنة 444هـ. كان متفنناً في العلوم حافظاً للأخبار. ذكر ابن بشكوال (325) أنه روى عن صاعد اللغوي.

(ح) ابن مقلس عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن مقلس القيسي الأندلسي، كان عالماً باللغة شاعراً، رحل إلى مصر وتوفي بها سنة 427هـ. (326) قرأ اللغة، (327) والأدب (328) على صاعد.

(ط) أبو الحسن الأصبحي: علي بن محمد بن علي بن الحسن القرطبي القنسري. روى عن صاعد. (329)

(ي) أبو تمام غالب بن عبد الله بن عامر القيسي المعروف بالقطيني الميورقي ثم الداني، روى عن صاعد بصقلية عند حلوله بها سنة 414هـ وهو في طريقه إلى المشرق. (330)

(ك) إدريس بن اليمان الشاعر: روى عن صاعد وهو بسر قسطة شعر ابن الحجاج. (331)

(324) الصلة ص: 238.

(325) الصلة ص: 533.

(326) الصلة ص: 369 - 370.

(327) الصلة ص: 369.

(328) وفيات الأعيان 3/ 193.

(329) جذوة المقتبس 290 والصلة ص: 412.

(330) الذيل والتكملة (السفر الخامس ق 517/2).

(331) فهرسة ابن خير ص: 406.

(ل) ابنا غضن، خلا الوزير أبي عمر بن أرزاق: كان صاعد ضيفا عليهما بسرقسطة، روى عنه شعر ابن الحجاج. (332)

(م) شيخ من بني مفرج: روى عنه شعر ابن الحجاج، ذكر ذلك أبو بكر المصحفي: «وكان يسمعه معنا عليه شيخ من بني مفرج، أقارب القاضي ابن مفرج». (333)

(ن) صبيان من بني مفرج: ذكر أبو بكر المصحفي أن صاعدا كان يقرئهم بسرقسطة شعر ابن حجاج: (334) «وكان صاعد يطيب فيهم من أجل شيخهم، ويقول لي أمامهم: ألا ترى أي صبيان يقرؤون علي شعر ابن حجاج». (335)

هؤلاء بعض من استطعت الوصول إليهم من تلاميذ صاعد في الأندلس، ولا أشك في أن تلامذته كانوا أكثر ممن ذكرت.

(2) المرويات :

ذكر صاعد في ديباجة الفصوص أنه رزى كتبه النفيسة، في الحادثة التي نشبت بين الوزير ابن يوسف وصمصام الدولة البويهى ملك بغداد؛ ولم يكن يحمل معه من الكتب عندما وصل إلى الأندلس إلا ما اختزنه ذاكرته، لذا فحديث المصادر عما درسه بالأندلس لتلامذته حديث عما أملاه من محفوظه. ومن الكتب التي رواها عنه تلامذته، غير ما تضمنه كتاب الفصوص:

(أ) إصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت: رواه صاعد عن شيخه أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي بأسانيدهما المشهورة، ورواه عنه أبو الوليد المصحفي، (336) وابن سيده

(332) فهرسة ابن خير ص: 406.

(333) فهرسة ابن خير ص: 406.

(334) فهرسة ابن خير ص: 406.

(335) فهرسة ابن خير ص: 406.

(336) فهرسة ابن خير ص: 330 و331.

المرسي، (337) والخولاني. (338) ورواه عن أبي الوليد المصحفي ابنه أبو بكر المصحفي، وعن أبي بكر هذا رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر، وعن ابن معمر روى ابن خير إصلاح المنطق؛ (339) كما رواه أيضا عن ابن سيده المرسي أبو عمر أحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي، وعنه روى أبو الحسن يوسف بن محمد بن مغيث، (341) وعن ابن مغيث رواه ابن خير.

(ب) تهذيب الألفاظ لابن السكيت أيضا: رواه صاعد عن شيخه السيرافي والفارسي. (342) ورواه عنه تلميذه ابن سيده، (343) والخولاني. (344) وعن ابن سيده رواه القاضي ابن الحذاء التميمي. ورواه عن ابن الحذاء أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث. وعن ابن مغيث روى ابن خير تهذيب الألفاظ.

(ج) المداخل في اللغة لأبي عمر الزاهد: رواه عنه ببغداد الوزير ابن حنزابة. وعن ابن حنزابة روى صاعد المداخل بمصر قراءة عليه. (345) وبحضور صاعد قرأ الوزير أبو بكر المصحفي كتاب المداخل على شيخه ابن خشخاش. (346) ورواه عن أبي بكر المصحفي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر، وعن ابن معمر روى ابن خير كتاب المداخل. (347)

(337) أرجوزته.

(338) الصلة ص: 238.

(339) فهرسة ابن خير ص: 330 - 331.

(340) فهرسة ابن خير ص: 450.

(341) فهرسة ابن خير ص: 450.

(342) ديباجة الفصوص.

(343) الأرجوزة.

(344) الصلة 238.

(345) فهرسة ابن خير 359.

(346) فهرسة ابن خير ص: 358.

(347) فهرسة ابن خير ص: 358.

(د) **الغريب المصنف: لأبي عبيد القاسم بن سلام:** رواه صاعد عن شيخه أبي سعيد وأبي علي. وعنه روى ابن سيده المرسى كتاب الغريب المصنف. (348) وعن ابن سيده رواه القاضي ابن الحذاء التميمي. وعن ابن الحذاء رواه أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث، وعنه رواه ابن خیر. (349) كما رواه عن صاعد أيضا الخولاني. (350)

(هـ) **كتب المجاز:** ذكرها ابن سيده هكذا بلفظ الجمع، وأشار إلى أنها مما رواه عن شيخه صاعد الذي رواها عن قرموطة الشيرازي. وقرموطة هذا الذي يروي صاعد عنه عالم وردت الإشارة إليه مرتين في الفصوص، في خبري مناظرتين جرتا بينهما (351) أمام عضد الدولة بالمشرق. وقد وصف صاعد قرموطة هذا بأنه كان حفظة للغة. (352) وعن ابن سيده روى ابن الحذاء التميمي كتب المجاز، ورواها عنه ابن مغيث وعنه ابن خیر. (353)

كما روى كتب المجاز عن صاعد أيضا الخولاني. (354)

(و) **شعر ابن سكرة الهاشمي،** شيخ صاعد وصديقه، روى صاعد عنه شعره ببغداد، ورواه عن صاعد بالأندلس تلميذه أبو بكر المصحفي، وعنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر، وعن ابن معمر هذا روى ابن خیر شعر ابن سكرة. (355)

(348) أرجوزته.

(349) فهرسة ابن خیر ص: 450.

(350) الصلة ص: 238.

(351) الفصوص ص: 12 أ - 67 ب.

(352) الفصوص ص: 12 أ.

(353) فهرسة ابن خیر ص: 450.

(354) الصلة ص: 238.

(355) فهرسة ابن خیر ص: 406.

(ز) شعر ابن الحجاج، شيخ صاعد وصديقه. رواه عنه في بغداد، ورواه عن صاعد (356) بالأندلس أبو بكر المصحفي، والشاعر إدريس بن اليمان، وابنا غصن، وشيخ من بني مفرج بسرقسطة، وصبيان من بني مفرج. ورواه عن أبي بكر المصحفي أبو عبد الله بن معمر، وعن ابن معمر روى ابن خير شعر ابن الحجاج، وقد ذكر أنه في ستة أجزاء. (357)

(ح) كتاب أسماء الوحوش وصفاتها، وكتاب صفات الأرض والسماء والنبات للأصمعي المفهوم من إشارة ابن سيده إلى كتب الصفات والأسماء. وقد روى صاعد كتب الأصمعي عن شيخه السيرافي والفارسي، وعنه روى ابن سيده هذه الكتب التي بدأ أثرها واضحا في المخصص. وعن ابن سيده روى ابن الحذاء التميمي كتب الصفات والأسماء، وعنه رواها أبو الحسن بن مغيث، وعن ابن مغيث روى ابن خير هذه الكتب. (358)

3 مصنفاته :

لا نعرف مما صنفه صاعد إلا أشعاره، وفصوصه، وكتابي الهججف، والجواس. ولم يصل إلينا من هذه المصنفات إلا بعض أشعاره، وكتابه الفصوص. أما كتابا الهججف والجواس، فيبدو أنهما ظلا متداولين حتى عصر الحموي في أقرب الاحتمالات. وأما شعره، فقد نقل بعضه تلميذاه ابن حيان، (359) وابن حزم، (360) وصديقه ابن الكتاني صاحب التشبيهات. وهذا ما يجعلنا نفترض

(356) فهرسة ابن خير ص: 406.

(357) فهرسة ابن خير ص: 406.

(358) فهرسة ابن خير ص: 450.

(359) البيان المغرب 3/ 18.

(360) جذوة المقتبس 223 - 227.

أن ابن حيان، وابن حزم، والخولاني الذي أجازته صاعد في كل ما رواه وألفه، وابن الكتاني، قد رواوا عنه شعره أو بعضه.

ونقلت المصادر عن الفصوص ما يدل على أن هذا الكتاب ظل يروى حتى عصور متأخرة رغم ما اتهم به مصنفه. وإذا كان الخولاني يعتبر من رواة الفصوص، اعتمادا على قوله: «إن صاعدا أجاز له ما رواه وألفه»، (361) وكان ابن سيده قد روى هذا الكتاب أو بعضه، (362) فإن ابن حيان كان شيخ كل العلماء الذين أشارت المصادر إلى روايتهم للفصوص، وعن طريق تلامذته روى بعض علماء الجيل الرابع هذا الكتاب. واعتمادا على ما استطعنا الوصول إليه مما ورد في المصادر، عن روايات الفصوص تحملا وإقراء، نذكر:

أ) روايتي ابن حيان الذي سمع الفصوص مع باقي تلامذة صاعد وهو يملئ في المجالس. ثم قرأه على مؤلفه بمنزله سنة 399هـ. (363) وعن ابن حيان أخذ من تشير إليهم المصادر من رواية الفصوص.

ب) رواية أبي محمد عبد الرحمان بن محمد بن عتاب. ذكر ابن بشكوال أن ابن حيان أجازته في رواية كتاب الفصوص لصاعد. (364) ووردت الإشارة إلى هذه الإجازة أيضا في فهرس ابن عطية. (365) ونقل ابن خير قول شيخه ابن عتاب عن الفصوص: «أخبرني به الشيخ المؤرخ صاحب الشرطة أبو مروان حيان بن خلف بن

(361) الصلة ص: 238.

(362) انظر الصفحة 244.

(363) الصلة ص: 238.

(364) الصلة ص: 348 - 349.

(365) فهرسة ابن عطية 81.

حيان، وكتب لي بذلك بخطه، عن أبي العلاء صاعد مؤلفه رحمه الله». (366)

ج) رواية الوزير أبي مروان عبد الملك بن سراج: فقد سمع الفصوص على شيخه ابن حيان، مع ابنه عمر بن حيان، بقراءة مهاجر بن محمد بن حزم في شعبان سنة 444هـ. (367)

د) رواية أبي محمد الركلي: روى كتاب الفصوص عن ابن حيان. (368)

هـ) رواية عمر بن حيان. وقد سمع الفصوص على أبيه (369) أبي مروان، مع الوزير عبد الملك بن سراج في شعبان سنة 444هـ.

و) رواية مهاجر بن محمد بن حزم. قرأ الفصوص على أبي مروان بن حيان، وعمر بن حيان، وعبد الملك بن سراج يسمعان في شعبان سنة 444هـ. (370)

ز) رواية أبي القاسم بن النخاس. روى الفصوص عن أبي مروان عبد الملك بن سراج، عن أبي مروان بن حيان. (371)

ح) رواية ابن العريف أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، رواه عن أبي القاسم بن النخاس، عن عبد الملك بن سراج، عن أبي مروان بن حيان. (372) ورواه أيضا عن أبي محمد الركلي، عن ابن حيان. (373)

366) فهرسة ابن خير ص: 326.

367) معجم أصحاب الصدفى ص: 16.

368) معجم أصحاب الصدفى ص: 16.

369) معجم أصحاب الصدفى ص: 16.

370) معجم أصحاب الصدفى ص: 16.

371) معجم أصحاب الصدفى ص: 16.

372) معجم أصحاب الصدفى ص: 16.

373) معجم أصحاب الصدفى ص: 16.

(ط) رواية القاضي عياض: روى الفصوص وأجيز فيه عن ابن عتاب، عن أبي مروان بن حيان. (374)

(ي) رواية أبي بكر محمد بن خير الإشبيلي. رواه عن شيخه أبي محمد بن عتاب، عن أبي مروان بن حيان. (375)

لقد بدأ صاعد حياته العلمية بالمشرق، تلميذا نجيبا، لذا لم يكن مستغربا أن تنتقل نجابته إلى أمثال ابن سيده، وابن حزم، والخولاني، وابن حيان من التلاميذ. أما تقدير الأندلسيين الحقيقي لصاعد العالم الأديب، فقد عبر عنه بصدق الوزير أبو حفص بن برد، في قوله مخاطبا أبا العلاء: (بسيط)

- 1 — تَحْصِيلُ فَضْلِكَ لِلْحَسَّاءِ مُعْجَزَةٌ
وَكُنْهُ عِلْمِكَ شَيْءٌ غَيْرُ مَحْسُوبٍ
- 2 — أَمَّا اللُّغَاتُ فَلَا يَعْقُوبُ يَبْلُغُ مَا
وَعَيْتَ مِنْهَا وَلَا أَشْيَاخُ يَعْقُوبُ
- 3 — وَأَنْتَ رَبُّ الْقَوَافِي الشَّارِدَاتِ بِهَا
تُحْذَى وَسَيَقْتَهَا فِي كُلِّ أُسْلُوبٍ
- 4 — إِنَّا نُنَادِيكَ لِلْجُلَى وَأَنْتَ لَهَا
طَبٌّ تَعَالِجُ فِيهَا كُلَّ مَظْلُوبٍ (376)

وإذا كانت شهادة الشعر المادح مما يمكن أن يحمل على المجاملة، فإن في كتاب الفصوص الذي نقدمه، ما يؤكد أن صاعدا كان كما قال ابن برد عالما أديبا.

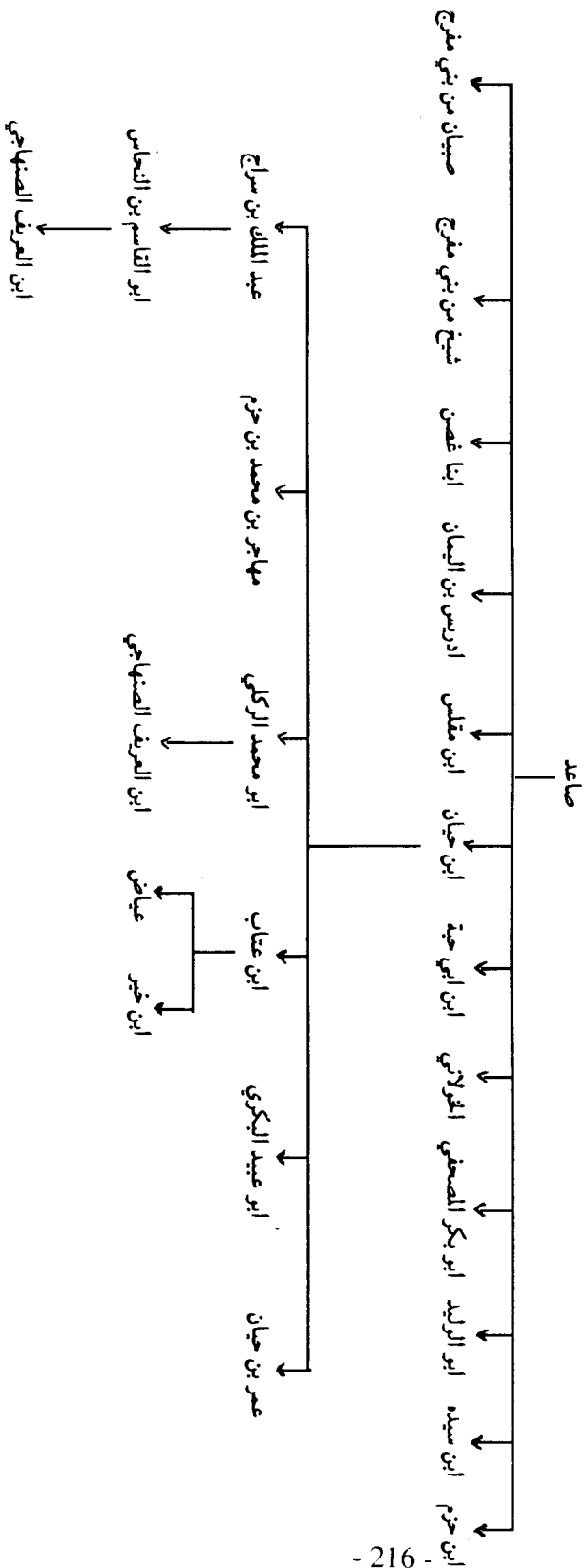
(374) الغنية ص: 224.

(375) فهرسة ابن خير ص: 326.

(376) الذخيرة 1/1/129.

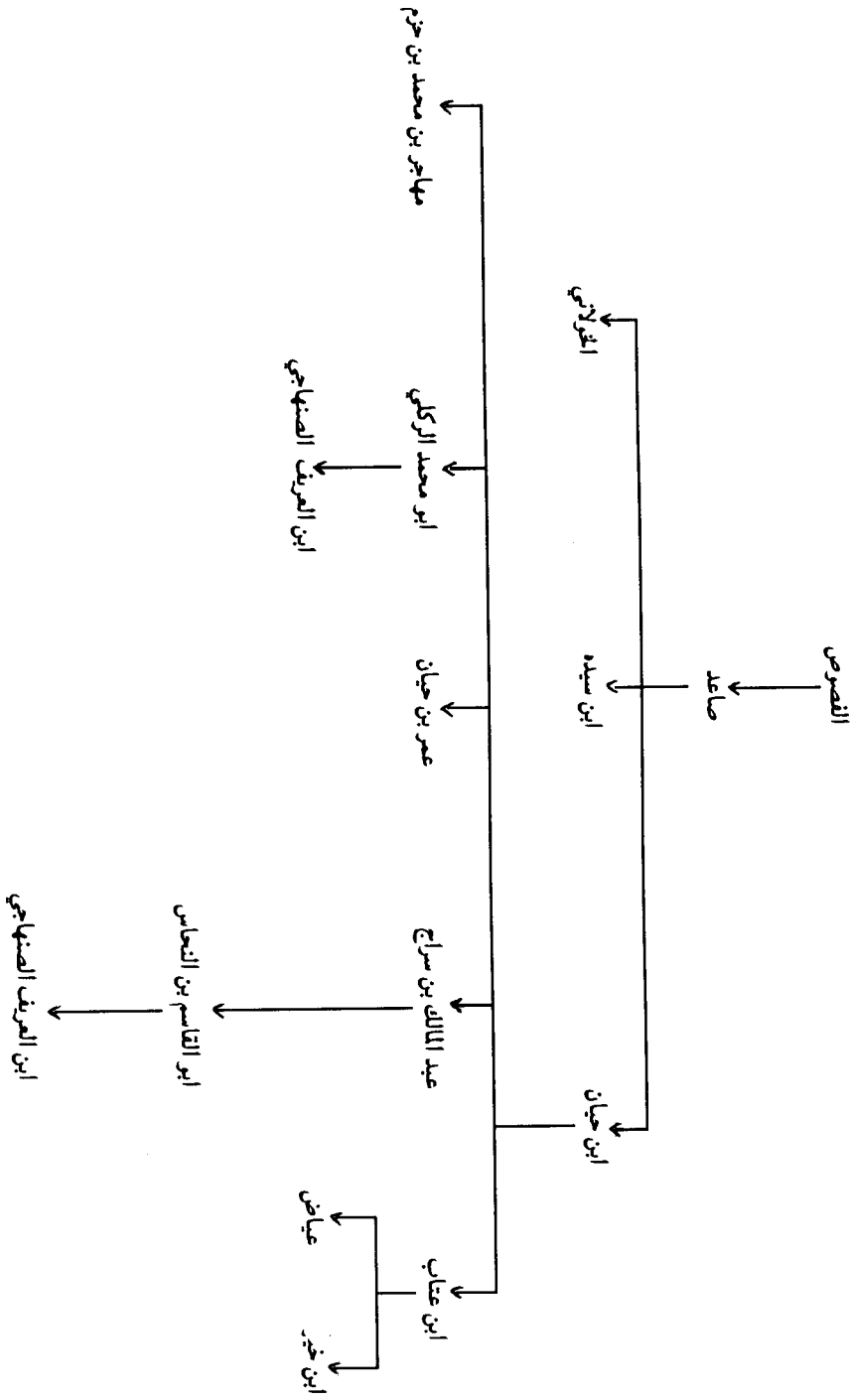
جد اول تسو ضمیمہ

(1) تلامة مساعد وتلامة تلامة :



شعر ابن الجراح ↓ ابن الجراح ↓ صاعد ↓ ابنا قصص ↓ شيع من ↓ بني مفرج ↓ صبيان من ↓ بني مفرج ↓ إدريس بن ↓ اليمان ↓ أبريكر المصفي ↓ ابن معمر ↓ ابن خير	شعر ابن سكرة ↓ ابن سكرة ↓ صاعد ↓ أبريكر المصفي ↓ ابن معمر ↓ ابن خير	كتب الجاز ↓ زمرطة ↓ صاعد ↓ ابن سبده ↓ ابن الحلاء ↓ ابن مغيث ↓ ابن خير	كتب الصفات ↓ والأسماء ↓ الأصمعي ↓ أسانيد ↓ السرياني ↓ صاعد ↓ ابن سبده ↓ ابن الحلاء ↓ ابن مغيث ↓ ابن خير	المداخل في اللغة ↓ أبو عمر الزاهد ↓ ابن حنابلة ↓ ابن خثعمش (يعضد صاعد) ↓ أبريكر المصفي ↓ ابن معمر ↓ ابن خير	الغريب المصنف ↓ أبو عبيد ↓ أسانيد ↓ السرياني ↓ صاعد ↓ ابن سبده ↓ ابن الحلاء ↓ ابن مغيث ↓ ابن خير	تعريب الألفاظ ↓ ابن السكيت ↓ أسانيد ↓ السرياني ↓ صاعد ↓ ابن سبده ↓ ابن الحلاء ↓ ابن مغيث ↓ ابن خير	إصلاح النطق ↓ ابن السكيت ↓ أسانيد ↓ السرياني ↓ صاعد ↓ ابن سبده ↓ أبريكر المصفي ↓ ابن الحلاء ↓ أبريكر المصفي ↓ ابن معمر ↓ ابن خير
---	--	--	--	---	---	---	---

3) روايات الفهرص :



. المدخل الثالث .

كتاب الفصوص في الآداب والأخبار

أولاً : الفصوص بين كتب الأمالي والمجالس والأدب العام :

ذكرت بعض المصادر التي ترجمت لصاعد، أن المنصور بن أبي عامر أذن لصاعد في تأليف الفصوص وإملائه، بعد أن ألزم صاعد نفسه بأن يكون كتابه على غرار كتاب النوادر للقاللي، مع تضمنه لما لم يورده أبو علي القالي. وكان هذا الالتزام بإيراد ما لم يرد في النوادر تحدياً صريحاً للأمالي القالي في ظاهره، إلا أنه في حقيقته كان تحدياً لتلامذته الذين ظلوا يعتقدون أن شيخهم قد أغناهم بمؤلفاته ودروسه عن غيره من علماء المشرق. ورغم ذلك تظل علاقة الفصوص بكتب الأمالي، والمجالس، وكتب الآداب والأخبار علاقة قوية. فرغبته في تجاوز أمالي أبي علي ونوادره - وإن كانت قد فاجأت الأندلسيين بما لم يكونوا يعرفونه - لم تخلق شكلاً جديداً في الكتابة والتصنيف غير معروف عند المتأدبين والمصنفين. إن الوجه الذي يربط الفصوص بكتب الأمالي والمجالس - باعتباره مصنفًا كان صاحبه يمليه ارتجالاً، دون اعتماد على مكتوب - لم يكن إلا وجهاً من عدة أوجه، تربطه بمصنفات أخرى لم تكن أمالي. ويعني هذا أن إلحاق الفصوص بكتب الأمالي وحدها، قد يوهم أن الكتاب لم يكن إلا مرويّات صريحة تملأ في مجالس يؤمها التلاميذ الباحثون عن الدرس الجاد.

إن الفصوص وأمالي القالي قبله كانا ترجمة عملية لنزعة في التأليف، جمعت بين استثمار المعارف الموسوعية المحصلة، والتعبير عن بعض المواقف الفكرية الخاصة، أو الغايات التربوية

المقصودة. وهذه المواقف والغايات الشخصية، هي التي جعلت بعض التصانيف التي صدرت عن هذه النزعة في التأليف، تبدو مختلفة بعضها عن بعض، رغم أنها في جوهرها ليست إلا صياغة جديدة، للمعارف المتنوعة الواسعة التي حصلها المؤلف في بيئته الثقافية. ولوضع كتاب الفصوص في سياقه النوعي، من حيث النظر إلى طريقة التأليف العامة لا الخاصة، أشير باقتضاب إلى مجموعة من المصنفات السابقة واللاحقة للفصوص، ينسب إليها وتنسب إليه، إذا ما نحن أردنا أن نتحدث عن شجرة نسب كتاب الفصوص، وسط مختلف المؤلفات العربية، مع التنبيه مسبقاً على أن بعض الفروق السطحية - كأن يكون المؤلف شرحاً لشعر، أو حديثاً عن طبقة اجتماعية، أو موضوع معين، أو مسامرات خاصة - لا تُغيّر من كون هذه المصنفات تنتمي إلى ما يمكن تسميته بأدب الأُنس والدرس.

(1) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :

قد يكون الجاحظ قصد من تأليفه البيان والتبيين إلى غاية اجتماعية فكرية، هي الرد على الشعوبية؛ وقد يكون قصد غاية تربوية عقدية، هي تعليم ناشئة المعتزلة فن الجدل والخطابة؛ وقد يكون قصد الأمرين معاً، فالكتاب يقدم مادة علمية قيمة، تتعلق بمفهوم البيان العام والخاص، ومفهوم الفصاحة والعي، وعلاقة البلاغة بالخطابة والبيان، وما يرتبط بذلك من قضايا لغوية بلاغية، أو تتعلق بطبيعة الصراع بين الجنس العربي والأعاجم في القرن الثالث. لكن هذه المادة العلمية القيمة، لا تمثل في الكتاب إلا المنطلق الذي ينطلق منه الجاحظ، إلى عالم الشعر والأمثال والأخبار والنوادر والحكايات الطريفة، كاشفاً عن محصول لغوي وأدبي كبير كان قد تشبع به. ولم تكن هذه الآداب تظهر في

الكتاب خاضعة لمنهج في التأليف يجعل القارئ يتوقع ظهورها، فالقارئ يجد نفسه مرغما على الانتقال من خبر إلى خبر، أو مثل، أو بيت شعر، أو أبيات، أو خطبة، أو نادرة... منساقا وراء نزعة استطرادية، أحس بها فاعتبرها إحدى الوسائل التي يتم بها الترويح على القارئ، ودفع الكل والملل عنه.

(2) الحيوان :

ألف الجاحظ كتابه الكبير هذا لينبه إلى أن حكمة الله تتجلى في كل مخلوقاته، ثم جعل من موضوع الحيوان سبيلا إلى الحديث عن هذه الحكمة الإلهية. ورغم أن التأليف في الحيوان بهذه الطريقة كان جديدا في الثقافة العربية، لم يستصعبه الجاحظ. لكن الذي أتعبه في تأليفه كما صرح هو بذلك، الخروج من موضوع الحيوان، إلى إيراد الأخبار، والأشعار، والأمثال، والنوادر: «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أنني لو تكلفت كتابا في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز والتماس، لكان أسهل وأقصر أياما وأسرع فراغا، لأنني كنت لا أفزع فيه إلى تلقت الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال»⁽¹⁾. فالاستطراد إلى هذه المعارف إذن لم يكن أبدا خلا أو ضعفا في منهج التأليف لدى الجاحظ أو غيره. إن تصريح الجاحظ بأن الكتابة في الموضوع الواحد، وإن كان صعبا كالقضايا الكلامية، أهون عليه من الاستطراد إلى البحث عن أخبار، وأشعار، وأمثال، ونوادر متفرقة في الكتب، متباعدة الأشكال، يؤكد

(1) الحيوان 208/4.

أن القدرة على الوصول إلى هذه المعارف المتفرقة المتباعدة وجمعها في مصنف واحد، كانت تعتبر من أعسر طرق التأليف، وأكثرها دلالة على غزارة علوم المؤلف. فتفرق المعارف وتناثرها في الكتاب الواحد - أو الاستطراد الذي تصفه بعض الدراسات بالفوضى العلمية - منهج في الكتابة، قصد إليه كبار المصنفين من الأدباء العلماء، وهم يعلمون أنه بعيد عن التنظيم والتبويب؛ وهي ظاهرة ثقافية فرضت نفسها على المؤلفين والمحصلين، في عصر كان التلميذ الناشئ فيها قادرا على أن يحصل علما بأكمله في يوم وليلة.

إن هذا التنوع العلمي في بيان الجاحظ وحيوانه، الذي يجعل من المؤلفين كتابين في علم الطب، والحيوان، والنبات، والمعادن، وأحوال العرب والأعراب وعاداتهم، وفي علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر، والأمثال، والبلاغة، فضلا عن الفكاكة والمجون، هو الرابط بين مؤلفي الجاحظ وفصوص صاعد، رغم أن مقاصد الجاحظ وهو يؤلف البيان والتبيين والحيوان كانت تختلف عن مرامي صاعد وهو يؤلف الفصوص.

(3) الكامل : لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد :

أحد الكتب الأصول التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته. وهو كتاب قيم وضعه مؤلفه لغاية واحدة صريحة، هي أن يكون مجمعا لأصناف مختلفة من الآداب، والأخبار، والأمثال، والمواعظ والاختيارات، مع شرح ما يقع فيه من كلام غريب، ومعان مستغلة. وقد اكتفى المبرد في خطبة الكتاب، بالتنبيه إلى أن كتابه سيكون جامعا لفنون كثيرة، دون أن يتحدث عن أبوابه وفصوله. (2) وانتقال المبرد في كتابه من فن إلى فن، ظاهرة

(2) انظر خطبة الكامل.

واضحة، لم تخفها محاولته ربط الباب بموضوع عام، كالتشبيه مثلاً في الباب السابع والأربعين. فالمؤلف كان يضطر أحياناً في صلب الباب نفسه، إلى الاستطراد والخروج إلى موضوع جديد، لذا نجده في أحد الأبواب يحاول أن يخفف عن وقع هذا الاستطراد بعبارة «الشيء يذكر بالشيء»، بعد استطراده إلى إيراد شعر لحميد بن ثور وغيره في بكاء الحمامة: «والشيء يذكر بالشيء وإن كان دونه... وفي شعر حميد هذا ما هو أحكم مما ذكرنا، وأوعظ وأحرى أن يتمثل به الأشراف وتسود به الصحف، وهو قوله: (طويل)

أَرَى بَصِيرِي قَدْ رَاتَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسَلَّمَ...
وروي عن النبي ﷺ: «كفى بالسلامة داء». ثم نرجع إلى التشبيه: والعرب تشبه على أربعة أضرب...» (3) وكما علل الجاحظ استطراده وخروجه من موضوع إلى موضوع، بأنه ترويح عن القارئ، جعل المبرد استطراده وخروجه من الجد إلى بعض الهزل أسلوباً يدفع الملل عن القارئ، ويروح عن نفسه: «نذكر في هذا الباب من كل شيء لتكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف، ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل، ليستريح إليه القلب، وتسكن إليه النفس». (4) ورغم حديثه عن الهزل اليسير، يظل وقاره مهيمناً على الكتاب، بل إن اشتغاله بالنحو واللغة جعلاً الكتاب يفتقر إلى تلك الصبغة الأدبية الخالصة التي نجدها في مؤلفات أخرى شبيهة به. إلا أن هذه النزعة اللغوية النحوية المهيمنة على الكتاب، لا تمنعنا من أن نعتبره شديد الصلة بمؤلفي الجاحظ، من حيث النظر إلى رغبة كل المؤلفين الصريحة في جعله كتابه مجمعا لمعارف متنوعة.

(3) الكامل 3/ 127.

(4) الكامل 2/ 285.

(4) **عيون الأخبار لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري :**
وهو كتاب مكمل لمصنفاته الأولى: الشراب، والمعارف، والشعر
والشعراء، ثم تأويل الرؤيا. وقد جعله مؤلفه ديوانا للأخبار،
والأشعار، والطرف، والنوادر المتنوعة. ورغم أن الكتاب بني على
أبواب عشرة يسميها كتباً تتحكم في إيراد هذه المعارف المتنوعة،
يحس القارئ بميل صاحبه إلى التوزيع العلمي الذي شغف به
بعض المؤلفين في عصره، وكما دافع الجاحظ والمبرد عن كثرة
الاستطراد فيما ألفوه، دافع ابن قتيبة عن تنوع المعارف في كتابه،
معتبرا خروجه من الجد إلى بعض الهزل ترويحاً على القارئ من
كد الجد وإتاعاب الحق. (5)

(5) **العقد الفريد:** (6) لابن عبد ربه، أبي عمر شهاب الدين أحمد
بن محمد المتوفى سنة 327هـ. وقد ألف هذا الكتاب في الظاهر،
ليعلم الناظر فيه أن لبلد المغرب على بعده حظاً من المنظوم
والمنثور، (7) إلا أنه كان في جوهره، مجارة لما شاع في المشرق،
من تأليف في أدب المتعة والجد الذي يجعل الكتاب روضة
ومتنزهاً للقارئ الباحث عن الدرس والأنس معا:

«وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جوهره... واختيار الكلام
أصعب من تأليفه». (8) ورغم تنوع المعارف في هذا الكتاب تنوعها
في المؤلفات الشبيهة به، حاول ابن عبد ربه، أن يخضع هذه
المعارف المتنوعة لتبويب وتنظيم يجعل كل باب من الكتاب
مشتملاً على شواهد من الشعر «تجانس الأخبار في معانيها،
وتوافقها في مذاهبها». (9) ومما يميز المؤلف في كتابه هذا، جرأته

(5) عيون الأخبار: خطبة الكتاب.

(6) انظر دراسة عن صاعد وابن عبد ربه في مجلة البحث العلمي (عدد 17).

(7) العقد الفريد 4/1.

(8) العقد الفريد 2/1.

(9) العقد الفريد 4/1.

في التخلي عن الإسناد، ودفاعه عن تخليه هذا متعللاً بكون الكتاب كتاب أخبار ممتعة، لا ينفعها ترك الإسناد، ولا يضرها حذفه: «وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار، طلباً للاستخفاف والإيجاز وهرباً من التثقال والتطويل، لأنها أخبار ممتعة، وحكم، ونوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله...» (10) إن هذا التخلي عن الإسناد رغبة في تجنب التطويل والتثقال، وإبقاء على المتعة الخالصة، يؤكد أن الرابط الجوهرى المشترك في كل هذه المصنفات التي نتحدث عنها، يتمثل في كونها وضعت للإمتاع.

(6) كتاب الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين بن محمد بن أحمد، أحد شيوخ صاعد وأصدقائه. وهو كتاب جار كما يدل على ذلك عنوانه، على مضممار كتب سابقة، ألفت في الغناء. وقد ألفه أبو الفرج، ليحل محل كتاب مستقيم في الأغاني، صنفه أحد وراقي أبي إسحاق الموصلي، ونسبه إلى إسحاق. والرابط بين كتاب الأغاني وكتاب الفصوص، هو غزارة الأشعار والأخبار والطرف والنوادر التي ضمها هذا الكتاب، فضلاً عن مادته العلمية في صناعة الغناء. وقد وصفه صاحب ابن عباد بأنه كتاب مشحون بالمحاسن المنتخبة، والفقر الغريبة، وأنه للزاهد فكاهة، وللعالم مادةً وزيادة، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة، وللبلبل رُجْلَةٌ وشجاعة، وللملك طيبة ولذاذة. (11) وإذا كان ياقوت قد وصف كتاب الأغاني بأنه جم الفوائد، جامع بين الجد البحث والهزل النحت، فإن تنوع هذه المعارف في الكتاب كانت استطراداً قصد إليه أبو الفرج، كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة، ليجعل القارئ أشهى لتصفح فنونه، كما يقول هو نفسه، لكن دون أن يصبح ذلك حشواً: «وربما أتى في خلال هذه الأصوات، وأخبارها،

(10) العقد الفريد 4/1.

(11) تصدير الأغاني ص: 32 (طبعة دار الكتب).

أشعار قيلت في تلك المعاني، وغني بها، وليست من الأغاني المختارة، ولا من هذه الأجناس المرتبة، فلا يوجد من ذكرها معها بد... ولعل بعض من يتصفح ذلك، ينكر تركنا تصنيفه أبوابا على طرائق الغناء، أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم، أو على ما غني به من شعر شاعر، والمانع من ذلك والباعث على ما نَحَوْنَاهُ عِلْلٌ منها... ومنها أن ذلك إن لم يكن كما ذكرنا لم يخل فيها - إذا أتينا بغناء رجل رجل وأخباره وما صنف إسحاق وغيره - من أن نأتي بكل ما أتى به المصنفون والرواة منها على كثرة حشوه وفائدته، وفي هذا نقض ما شرطناه من إلغاء الحشو، وأن نأتي ببعض ذلك فينسب الكتاب إلى قصور عن مدى غيره، وكذلك تجري أخبار الشعراء...» (12)

ولم يكن من المستغرب أن يصبح هذا المؤلف القيم ضالة الملوك والرؤساء، وأهل الأدب. فالكتاب كان ثمرة تحصيل وجمع استمر خمسين سنة. وإذا كان ابن خلدون لم يجعل هذا الكتاب - مسaire لشيوخه - ضمن الأصول الأربعة التي أشار إليها في مقدمته، فإن ثناءه على الأغاني ومؤلفه يشهد للكتاب بأنه كان يجري في رأيه مجرى هذه الأصول، «وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصفهاني كتابه في الأغاني، جمع فيه أخبار العرب، وأشعارهم، وأنسابهم، وأيامهم، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتا التي اختارها المغنون للرشيدي، فاستوعب ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم، في كل فن من فنون الشعر، والتاريخ والغناء، وسائر الأحوال، ولا يعدل له كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها.» (13)

(12) الأغاني (خطبة الكتاب).

(13) مقدمة ابن خلدون ص: 554.

(7) الأمالي والنوادر : لأبي علي القالي

وهو الكتاب الذي أشارت المصادر إلى أن الفصوص جرى في مضماره، لذا نرجى الحديث عنه إلى مبحث لاحق.

(8) الإمتاع والمؤانسة : لأبي حيان التوحيدي

والكتاب كما يدل عليه عنوانه مزيج من العلوم والفنون؛ وإذا كان هذا النوع من المعارف مما يلحق هذا الكتاب بأدب الأنس والدرس الذي نتحدث عنه، فإن مما يميزه، أن تأليفه كان خاضعا لمجموعة من الأسئلة غير المتوقعة، كان الوزير الذي أُلّف له الكتاب في الأصل يفاجئ أبا حيان بها، أو يترك له وقتا للرجوع إلى مصادره قبل الإجابة عنها. وفي هذا ما يجعل الكتاب تأليفا شبه مشترك ساهم فيه الوزير المستفيد بأسئلته، والعالم المصنف بإجابته. وعندما أعاد أبو حيان كتابة لياليه، استجابة لطلب صديقه أبي الوفاء المهندس، حاول أن يجعل مصنفه جامعا بين ما يقتضيه صدق الرواية وحسن التأليف، كما يتضح من قوله لأبي الوفاء، بعد أن أرسل إليه بالجزء الأول من الكتاب: «قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمت لي القيام به...» (14). ولم يفت المؤلف أن يذكر أبا الوفاء بأنه جمع في الجزء الثالث كل ما يتطلبه أدب المسامرة من جد وهزل، غير مفرق بين الغث والسمين: «هذا الجزء - وهو الثالث - قد، والله، نفتت فيه كل ما في نفسي من جد وهزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وطيب، وأدب واحتجاج، واعتذار واعتلال، واستدلال وأشياء من طريف الممالحة، على ما رسم لي وطلب مني». (15)

والحقيقة أن هذا الكتاب يعد نموذجا مكتملا لأدب المسامرة في القرن الرابع الهجري، فالمؤلف قد جمع فيه مزيجا من المعارف،

(14) الإمتاع والمؤانسة 1/1.

(15) الإمتاع والمؤانسة 1/1.

ورث بعضها عن الثقافة العربية القديمة، ونقل بعضها من ثقافات الأمم الأخرى؛ وهي خصيصة جعلته مرجعا يشهد لصاحبه بأنه كان محيطا باللغة، والنحو، والأخبار، والأشعار، والملح، والطرائف، والطبيعة، والكلام، فضلا عن وعيه الكامل بما كان يجري في عصره من تحولات ثقافية، كما يتضح من حديثه عن معاصريه من الشعراء، وعن إخوان الصفاء، والفرق الكلامية، والمتصوفة، ومفكري القرن الرابع من المعتزلة. إن جمع التوحيدي معاصر صاعد بين المعارف العربية الأصيلة، والمعارف العقلية في مصنف واحد، يجعله من أكثر كتب الأنس والدرس تصويرا لنموذج الأديب في القرن الرابع. وإذا نحن تجاوزنا غرر الفوائد للشريف المرتضى، ونشوار المحاضرة للتنوشي، إلى بعض ما ألف في العصور اللاحقة لزمان تأليف الفصوص، نجد محاضرات الراغب الأصفهاني، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي، والمستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي؛ ونلحق بهذه المؤلفات بعض شروح الشعر، كرفع الحجب المستورة للشريف الغرناطي، والغيث المسجم للصفدي، فهذه المؤلفات كلها تنتمي في جوهرها إلى ما آثرنا تسميته بأدب الأنس والدرس، رغم الخصوصيات المحدودة التي قد توهم أن بعض هذه المؤلفات ينتمي إلى صنف مستقل عما ذكرنا.

إن الفروق التي يمكن أن نلتمسها عند مقارنة الفصوص بهذه المؤلفات، هي الفروق الكيفية التي تنشأ عن اختلاف قدرات المؤلفات العلمية، وتفاوت درجات حذقهم وبراعتهم في التأليف، أما النسب فهو نسب واحد، إنها كلها تنتمي إلى أدب الأنس والدرس.

ثانيا : بناء الفصوص :

(1) عنوان الكتاب :

تكاد معظم المصادر التي ذكرت مؤلف صاعد تتفق على أن الكتاب سمي بالفصوص؛ ولم يتعد ناسخ مخطوطة القرويين وصف الكتاب بأنه كتاب الفصوص: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، سفر فيه جميع كتاب الفصوص، تأليف أبي العلاء صاعد بن الحسن الربيعي رحمه الله تعالى وعفا عنه...»⁽¹⁶⁾ ولم نعثر على ما يخالف هذه التسمية، إلا عند ابن كثير، وابن خير، وابن حيان. فابن كثير يشير إلى المؤلف بعبارة: «كتاب الفصوص في اللغة»؛⁽¹⁷⁾ وابن خير يسميه «كتاب الفصوص في اللغات والأخبار»؛⁽¹⁸⁾ بينما يذكر ابن حيان أن شيخه صاعدا سمي كتابه هذا بالفصوص في الآداب والأشعار والأخبار: «قال ابن حيان: وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر كتابا سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار، وكان ابتداءه له في ربيع الأول سنة خمس وثمانين، وأكمّله في شهر رمضان من العام...»⁽¹⁹⁾ ورغم أن ابن حيان اكتفى في سياق حديثه عن «الأعرابي العذري»، بالإشارة إلى كتاب صاعد، بعبارة «كتاب المعروف بالفصوص»⁽²⁰⁾، يظل الكلام الذي نقله عنه صاحب الصلة داعيا إلى التأمل؛ فعلاقة ابن حيان بصاعد وفصوصه، كانت علاقة قوية، لأنه قد روى الفصوص عن شيخه سماعا

(16) مخطوطة القرويين.

(17) البداية والنهاية 12/12.

(18) فهرسة ابن خير ص: 326.

(19) الصلة ص: 337 و338.

(20) المقتبس 14/3.

وقراءة، وعن طريقه روى كثير من العلماء اللاحقين هذا الكتاب؛ لذا يعتبر حديثه عن الكتاب واسمه وتاريخ إملائه حديث خبير. لكن هذا التفرد بمعرفة الكتاب واسمه، يظل مشكلا عند مقارنته بما ورد في المصادر التي تحدثت عن الفصوص، أو أشارت إليه. فإذا كان اكتفاء معظم المصادر بتسمية الكتاب بالفصوص فقط، يعود إلى الميل إلى اختصار العنوان، فإن تسمية ابن خير - الذي روى الفصوص عن ابن عتاب، عن ابن حيان نفسه - للكتاب بالفصوص في اللغات والأخبار يبدو غريبا. وقد كان من الممكن أن نعتبر العبارة اللاحقة باسم الفصوص عبارة غير أصلية في التسمية، لو لم يكن ابن حيان نفسه قد صرح بأن صاعدا هو الذي سمى كتابه «الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار». ويرجع اهتمامنا بهذه التسمية التي نقلها ابن حيان عن صاعد، إلى أن صاعدا ككثير من المصنفين، لم يشر في مقدمة الكتاب ولا في متنه، إلى اسم كتابه إشارة صريحة. والعبارة الوحيدة التي وجدناها في مقدمة الكتاب، تحمل بعض الدلالة على ما يتضمنه العنوان الذي يذكره ابن حيان، هي قول صاعد: «... فقد أمرني أدام الله نصره، أن أجمع له من حفظي ما استطف من نهيلة شعر، وغريبة خبر، وعقيلة كلم ندت عن الكتب المتداولة كالكمال وغيره من كتب النوادر...»؛⁽²¹⁾ فالإشارة إلى الشعر، والخبر، وعقائل الكلم، تقابل من حيث دلالتها، عبارة الآداب والأشعار والأخبار، التي ترد مكملة لاسم الفصوص، في التسمية التي نقلها ابن حيان. وإذا كان اهتمام صاعد بالقضايا اللغوية في كتابه قليلا، بالقياس إلى عنايته بالأشعار والآداب، فإن الراجح أن الاسم الذي يذكره صاحب المقتبس هو الاسم الأصلي للكتاب، وإن كان ميل المصادر الأولى إلى اختصار اسم الكتاب قد جعل المصادر

(21) الفصوص ص: 1 ب.

اللاحقة تنقل اسم «الفصوص»، على أنه العنوان الأصلي للمؤلف. أما في متن الكتاب، فقد وردت كلمة «فصوص» عرضاً في قول صاعد: «... وفي حفطي بحمد الله منها عيون وفصوص، تسرع إلى الحفظ، وتبقى مع الدهر...» (22).

(2) دلالة العنوان، وعلاقتها ببناء الكتاب :

قد يكون من السهل على الدارس أن يربط بين عنوان كتاب كالعقد الفريد مثلاً، وطريقة بنائه، عندما يكون المؤلف قد قصد إلى جعل العنوان دالاً على طريقة في البناء والتصنيف، يرسمها في ذهنه، قبل أن يبدأ إملاء المصنف. وتكون خطبة الكتاب عادة، في مثل هذه المؤلفات، متضمنة لما يعرف القارئ أو المستملي على بناء الكتاب، وطريقة تقسيمه، وتوزيع أبوابه وفصوله، قبل أن يبدأ قراءته. إلا أن نفس الدارس يجد صعوبة في ربط عنوان الكتاب ببنائه، عندما تكون الخطبة خالية من كل ما يمكن أن يساعد القارئ على تمثيل منهج المؤلف في التأليف. ويبدو أن كتاب الفصوص ينتمي إلى هذا الصنف من المؤلفات التي تحمل عناوين لا تحيل إحالة مباشرة على طريقة بنائها. ورغم أن المصادر - وابن حيان أوثقها - تشير إلى أن الكتاب سمي بالفصوص، لا نجد كلمة فص ترد مستقلة في الكتاب.

والفص الوحيد الذي دعا إلى بعض التأمل، هو الفصل الذي يقول فيه صاعد: «وكتبت هذا الفصل كله من قوله: رجالا، إلى آخره، غير الحكاية التي دارت لي بحضرة ابن العميد ببغداد، وهي تأتي في هذا الفصل إن شاء الله». (23) وكلمة «الفصل» في المخطوطة صريحة، ورغم ذلك لم نستطع أن نستبعد احتمال حدوث تصحيف في كلمة (الفصل)، بعد أن كانت في أصلها

(22) الفصوص ص: 51 ب..

(23) الفصوص ص: 41 ب..

(الفص). والعلاقة بين عنوان الكتاب (الفصوص) وكلمة الفص، تجعل ما ذهبنا إليه مقبولا. إلا أن هذا الاحتمال نفسه يصبح ضعيفا، عندما نربط عنوان الكتاب وكلمة فص أو فصل في كلام صاعد السابق، بما ورد عند بعض معاصريه من المشاركة. ففي مقدمة اليتيمة نجد الثعالبي يقول متحدثا عما سيورده في كتابه: «... ونبذ من أخبار المذكورين، وغرر من فصوص (فصول) المترسلين...» (24) وقد مال المحقق إلى اعتبار كلمة فصوص في كلام الثعالبي تصحيفا لكلمة فصول، كما ملنا نحن خلافا له، إلى اعتبار كلمة الفصل في كلام صاعد تصحيفا لكلمة الفص. لكن الثعالبي نفسه يورد ما يفيد أن كلمة فصل وفص تردان معا متكاملتين من حيث دلالتها، يقول الثعالبي معددا أقسام كتابه: «القسم الثاني في محاسن أشعار أهل العراق... وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم...» (25)

وفي حديثه عن رسائل أبي إسحاق الصابي نجده يقول: «وأنا كاتب أنموذجا من فصوص فصول الصابي» (26) وقد تردد هذا الربط بين الفصوص والفصول غير ما مرة في اليتيمة؛ وهذا الاستعمال المزدوج لكلمتي فص وفصل، يجعلنا نفترض أن كلمة فصل تدل على كم الكيف الذي تدل عليه كلمة فص. وإذا كان الفص الذي وردت كلمة فصل في كلام صاعد فيه مرتين، فصا طويلا، فإننا أثرنا أن نستبعد احتمال حدوث التصحيف، معتبرين كلمة فصل في هذا الفص كلمة أصلية، قصد بها صاعد إلى التعبير عن طول الفص وامتداده.

(24) يتيمة الدهر 7/1.

(25) يتيمة الدهر 8/1.

(26) يتيمة الدهر 246/2.

أما كلمة (فصوص) فقد وردت في كتاب صاعد معطوفة على كلمة عيون، عند إشارته إلى ما بقي عالقا بحفظه من المعارف النفيسة بعد أن رزئ كته: «... وفي حفطي بحمد الله منها عيون وفصوص».(27) وقد اكتفى صاعد باستعمال كلمة (عيون) فقط، مما يوحي بأن لفظة فصوص التي عطف عليها في النص المذكور لم تكن لها دلالة صريحة على بناء الكتاب.

إن محاولة معرفة دلالة العنوان، من خلال ربطه ببناء الكتاب، تظل غير مجدية، مادام صاعد نفسه قد أحجم عن ذكر اسم كتابه في الخطبة، إحجامه عن التعريف بمنهجه في بنائه؛ لكن تعرف مفهوم الفص والفصوص لديه يصبح أسهل، إذا ما بحثنا عن علاقة عنوان الكتاب، بدلالة عناوين بعض المؤلفات المشهورة، عوض البحث عن علاقته بالبناء. إن العناوين التي تحملها مؤلفات كعيون الأخبار، والعقد الفريد، وغرر الفوائد ودرر القلائد، وبيتمة الدهر، والفصوص... تلتقي كلها حول دلالتها على نفاسة ما يتضمنه الكتاب، وكونه لب ما حصله المؤلف من آداب وجوهره. وقد صرح بعض المؤلفين بما يفيد القصد إلى تنبيه القارئ إلى أنهم لم يضمنوا كتابهم إلا اللب المنتقى والجوهر المختار، يقول ابن عبد ربه: «... وقد ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر، ولباب اللباب...»(28) ويجمع الثعالبي وهو يتحدث عن خصائص النسخة الأخيرة من البيتمة، كل الأوصاف الدالة على جوهر الجوهر، مستعملا كلمة الفص التي يسمي بها صاعد كتابه: «... فهذه النسخة الآن تجمع من بدائع أعيان الفضل... ما لم تتضمنه النسخة السائرة الأولى. والشرط في هذه الأخرى إيراد

(27) الفصوص ص: 51 ب.

(28) العقد الفريد 2/1.

لب اللب، وحبّة القلب، وناظر العين، ونكت الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفص...» (29) والإشارة إلى ناظر العين، وواسطة العقد، تجعل عنوانا كعيون الأخبار نظيرا للعقد الفريد، أو درر القلائد، أو يتيمة الدهر، وإن اختلفت الصور المعبر بها. ويبدو أن صاعدا، وهو يسمي كتابه بالفصوص، كان ينظر إلى المعنى المشترك بين هذه العناوين المتعددة، فالفص يعني معجميا (30) حقيقة الشيء، وكنهه، وجوهره، ونهايته، وأصله، أو حدقة العين، أو الحجر الكريم الذي يزين به الخاتم... وهي معان نجدها موزعة بين عناوين عيون الأخبار، والعقد الفريد، ودرر القلائد، ويتيمة الدهر؛ كما نجدها متضمنة في مقدمتي العقد، واليتيمة. لذا لا يمكن أن نفسر اسم الفصوص الذي سمى به صاعد كتابه، إلا بكونه ينظر إلى كل هذه المعاني التي قصد إليها مؤلفو الكتب المذكورة، كما يظهر من جمع صاعد نفسه بين كلمة عيون وفصوص، في حديثه عما بقي في حفظه. إلا أن دلالة الفص على ما يزين به الخاتم من الجواهر، تظل أرجح، لارتباطها بالمرئي المحسوس؛ فعنوان كتاب صاعد إذن يحيل على قيمة مضمونه العلمي، لا على بنائه. وقد صرح هو نفسه غير ما مرة، (31) بما يفيد قصده إلى نفاسة ما يورده في كتابه، وإن كانت كلمة فصوص نفسها لم تورده في كتابه إلا مرة واحدة، (32) حسب ما انتهى إليه بحثي.

إن الغاية من تأليف صاعد لكتابيه، هي التحديث بأحسن ما حفظه من عيون علم، خص بها العلماء أنفسهم، ضنا بها واختصاصا بحسنها، كما يقول في خطبة كتابه؛ وإذا كان صاعد

(29) يتيمة الدهر 7/1.

(30) انظر لسان العرب مادة (فصص).

(31) الفصوص ص: 1 ب و 2 أ.

(32) الفصوص ص: 51 ب.

قد سمي هذه العيون فصوصا، فلأنه كان يعلم أنه يذيع على الناس بعضا من كنوز كانت مخبوءة، وإن كان البعض الذي يذيعه يعد أثمن ما في الكنز وأنفسه. ولذلك نجده يذكر السامع والقارئ بأنه لا يثبت في كتابه إلا النفائس والنتف الشاردة. (33)

هذا التمسك بالقيمة العلمية للعيون والدرر والفصوص التي يضمنها صاعد كتابه، يؤكد مرة أخرى أن عنوان الكتاب لا يحمل دلالة على ما يمكن أن يعتبر منهجا في بناء الكتاب وهيكلته، بينما تعتبر دلالاته على النفاسة التي تتضمنها، باعتبارها مفهوما تضمنته عناوين أخرى، واضحة وصريحة. وإذا كان لنا أن نستخلص من كلمة فصوص دلالة ما على بناء الكتاب ومنهج تأليفه، فإن العنوان سيكون دالا على مجموعة من العيون، أو الفصوص، والدرر، والنفائس المتجاورة في الكتاب، تجاوزا لا يخضع لتنظيم بين مضبوط.

3) البناء المنطقي للفصوص :

أشرت في المبحث السابق إلى أن بناء الكتاب لا يخضع لأي تنظيم مضبوط، ولهذا أعتبر حديثي عن البناء المنطقي حديثا عن غياب البناء المنطقي، ووصفا لبناء الفصوص باعتباره بناء منجزا، لا باعتباره بناء متصورا تمثله المؤلف ذهنيا، قبل الشروع في إملاء كتابه:

أ) إن الكتاب من حيث هو مصنف كامل له بدايته ونهايته، مزيج من الأخبار، والطرائف، والأشعار، والشروح والتفاسير، لا يخضع توزيعها لأي منهج واضح ثابت. وإذا كان التبرك بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، قد جعل صاعدا يستهل كتابه بشرح آيتين كريمتين، وينتهي بحديث نبوي شريف، ويبني كثيرا

(33) الفصوص ص : 94 ب.

من فصوصه على شرح آيات من القرآن وأحاديث نبوية، فإن الخروج من الفص الشعري، إلى فص الخبر، إلى فص الهزل أو المجون، أو إلى غير ذلك من الفصوص، كان يتم بطريقة غير قابلة للضبط؛ لا نفسر هذا بعجزه عن تنظيم مؤلفه، فصاعد كان أحد العلماء الذين عاشوا في عصر أصبح فيه تنظيم المعارف أمرا ميسورا. والتفسير الممكن لهذه الظاهرة، التي كانت شائعة في مثل هذا النوع من التصانيف، هو كون صاعد قد ألزم نفسه في أول الكتاب، بألا يضمن كتابه إلا عيون العلم المنقولة من خطوط كبار العلماء الذين عاشوا قبله، أو ما سمعه من أفواه شيوخ العلم في عصره. وإذا كان الانتقال من خط عالم إلى خط غيره، ومن مسموع إلى مسموع، وسيلة صاعد إلى عرض نفائسه، فإن الجمع بين التبويب وتتبع النفائس يكون أسلوبا غير متأت. لذلك نميل إلى اعتبار ما يبدو تصنيفا غير منظم، نتيجة قاد إليها المنطلق الذي انطلق منه المؤلف، أقصد إتحاف القارئ بنفائس منقولة من خطوط كبار العلماء. وقد يلاحظ قارئ الكتاب ورود بعض الانتظام في مجموعة من الفصوص، من حيث النظر إلى تجانس موضوعها، أو نسبة أشعارها إلى نفس الشاعر، أو تعلق أخبارها بنفس الإسم أو الموضوع، وبعض هذا الانتظام العارض، يعود إلى تحول بعض الأسماء إلى منبه يذكر صاعدا، ببعض المحفوظ المرتبط به. ففي الفص 46(34) مثلا يورد - قراءة على شيخه السيرافي - خبر مرقش مع أسماء، وما تعلق بذلك من شعر. ويقوده اسم مرقش إلى بناء الفص اللاحق،(35) على شرح أبي عمرو بن العلاء، لبيتين، قالهما المرقش. ثم يذكره شرح أبي عمرو بن العلاء، بشرح الأصمعي لبيتين قالهما المرقش أيضا، فيبني

(34) الفصوص ص: 13 أ.

(35) الفصوص ص: 13 ب.

على ذلك الفصل 48. (36) ثم يستدعي هذا الشرح شرحاً لأبي عمرو الشيباني على بيت للمرقش كذلك، فيبني على ذلك الفصل 49. (37) ويذكره الشيباني بأشعار لمرقش أيضاً، انفرد الشيباني بروايتها، دون المفضل، فيبني على ذلك الفصل 50. (38) وينجم عن هذا التوارد، أن هذه الفصوص الخمسة المتتالية تبدو متجانسة، لأنها كلها بنيت على أشعار منسوبة إلى شاعر واحد، هو المرقش الأكبر. (39)

وإذا كان اسم شاعر معروف كالمرقش، يفسر بناء عدة فصوص متتالية على بعض أشعاره، فإن التقارب الظاهري بين بعض الأسماء، يكون كافياً لتجاوز الفصوص، ونجد ذلك صريحاً في الفصل 61. (40) و62، (41) فالأول بني على بيتين لمعن بن زائدة، رواهما صاعد عن شيخه أبي علي؛ وإذا استدعى العلم «معن» اسم الشاعر معن بن أوس، نجد الفصل التالي يبنى على ثلاثة أبيات لمعن بن أوس، رواهما صاعد عن الفارسي. لكن غالباً ما يكون الانتظام الذي تتميز به بعض الفصوص المتتالية راجعاً إلى وحدة الكتاب، أو المصدر الذي ينقل منه صاعد، أو يروي عنه، ووحدة الموضوع المنقول، أو المروي نفسه؛ وأعني بذلك أن ما يبدو فصوصاً منظمة، ورد من قبل منظماً في الكتاب الذي ينقل عنه صاعد، ففي الفصل 476 (42) مثلاً يذكر صاعد أنه ينقل من خط أبي

(36) الفصوص ص: 13 ب.

(37) الفصوص ص: 14 أ.

(38) الفصوص ص: 14 أ.

(39) وانظر أيضاً الفصل 140 و141 حيث يرد اسم النابغة قاسماً مشتركاً بين الفصين. والفص 197 و198 حيث يستدعي ما رواه صاعد عن ابن ورقاء من شعر عبيد بن أيوب، شعراً آخر له، رواه عن السيرافي.

(40) الفصوص ص: 16 ب.

(41) الفصوص ص: 16 ب.

(42) الفصوص ص: 128 ب.

زيد في قبيل مزينة، ويورد خبرا وشعرا منقولا من هذا المصدر، ثم تتوالى بعد ذلك الفصوص المبنية على أشعار مزينة وأخبارها. ولا يفسر هذا التجانس بين موضوعات هذه الفصوص المتلاحقة، إلا بكون صاعد ينقل من نفس الكتاب الذي أشار إليه في الفصل 476.

وقد يجتمع التوارد والنقل من نفس الكتاب، أو الرواية عن نفس الشيخ، ليجعلا عددا كبيرا من الفصوص نموذجا للتنظيم الذي كان سيخضع له الكتاب كله، لو وجد صاعد سبيلا إلى ذلك. فالفص 342⁽⁴³⁾ مبني على شرح قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الآية. واللينه تشرح بالنخلة، والنخلة تستدعي ثلاثة وأربعين فصا تواردت كلها في نفس الموضوع. وبعض هذه الفصوص ورد في كتاب النخلة، أو الغريب المصنف، لكنها كلها تشترك في موضوع واحد هو النخلة.

أما اجتماع التوارد والسماع عن نفس الشخص، فنجده مثلا في الفصوص 202 إلى 207؛⁽⁴⁴⁾ ففي الفصل 201 مثلا يروي صاعد عن أبي المقداد شعرا لنهشل بن حَرِّي، وفي الذي يليه يروي عن أبي المقداد نفسه شعرا لفرعان اللص، ثم يذكره اسم فرعان بما رواه عن شرحبيل من شعره، فتتوالى خمسة فصوص بنيت كلها على ما رواه صاعد عن شرحبيل من شعر فرعان، قبل أن تؤدي الرواية المقصودة إلى ذكر شعر شاعر آخر، ينسي صاعدا فرعان. وقد نتوسع في فهم التنظيم، فنعتبر تلاحق الفصوص الهزلية أو المجونية بابا أو فصلا، وتوالي الفصوص المبنية على شرح الآيات الكريمة أو الأحاديث الشريفة فصلا. ورغم ذلك، نظل مرغمين على الاعتراف بأن كتاب الفصوص يفتقر إلى التنظيم، أو

(43) الفصوص ص: 107 ب.

(44) الفصوص ص: 77 ب.

التبويب المحكم، الذي نجده في العقد الفريد. إلا أن هذا لا يعطينا من التنبيه إلى أن صاعدا قد قصد إلى جعل القسم الخاص بأبيات المعاني في كتابه بابا مستقلا بنفسه، كما صرح بذلك هو نفسه في قوله: «... قد تقدم في صدر الكتاب إلى حيث انتهينا، من أبيات المعاني ما لو أفرد عنه، لكان كتابا في المعاني كبيرا، غير أنها متفرقة، فأحببت أن أمتعك منها بقطعة مجموعة في آخر الكتاب، ليكون طلبك لها عن كثر، وابتغائك عن أمم...» (45) هذا التنظيم المقصود، يؤكد أن صاحب الفصوص كان يدرك أن كتابه مفتقر إلى التنظيم الذي يجعل المباحث العلمية المتجانسة مجموعة في قسم واحد من أقسام الكتاب؛ ولعل رغبته في مفاجأة خصومه بمعارفه المتنوعة غير المتداولة، كانت وراء تخليه عن تنظيم الكتاب وتقسيمه إلى أبواب وفصول.

(ب) أما بناء الفص الواحد، فيبدو أوضح؛ لكن الحديث عن هذا البناء يلزمنا بأن نعرف بحدود الفص، أي بدايته ونهايته. إن كتاب الفصوص الذي خلا من التبويب والتقسيم، لا يتضمن أية إشارة إلى مفهوم الفص عند المؤلف، أو إلى الحدود التي تعرف ببدايته ونهايته. ولعل صاعدا كان يجعل الإسناد علامة لبداية الفص الجديد، فكثير من الفصوص تتميز من حيث بدايتها بأسانيدها، إلا أن ورود بعض الأسانيد في صلب نفس الفص يجعل الاعتماد على الإسناد وحده غير كاف لتمييز الفصوص بعضها عن بعض. أما نهاية الفص فتظل معرفتها مشروطة بمعرفة بداية الفص الجديد، ونستثني من ذلك بعض الفصوص التي أشار صاعد في نهايتها إلى نهاية المجلس أو تمام التفسير. (46)

(45) الفصوص ص : 133 أ - 133 ب..

(46) انظر الفصوص - الصفحات: 58 ب - 73 ب - 88 أ - 91 ب - 97 أ - 101 أ - 126 ب مثلا.

وفي غياب تمييز صاعد لبداية الفصوص ونهايتها، حاولت أن أضع مجتهدا بعض المقاييس المكملّة التي يمكن أن تضاف إلى الإسناد، لتمييز الفص السابق من اللاحق:

- وأول هذه المقاييس: وحدة الآية القرآنية المفسرة، أو الحديث النبوي المشروح.

- وثانيها: وحدة الموضوع، أو الخبر، أو القصة، أو الحادثة، أو النادرة الهزلية.

- وثالثها: وحدة الاختيار الشعري، كثر الشعر أم قل، شرح أم لم يشرح.

- ورابعها: وحدة الشاعر المختار له، وإن كان الموضوع واحدا. ففي موضوع وصف النخل مثلا، يكون الوصف الذي نسب إلى الأعور الشني، (47) فصا مستقلا عن الفص اللاحق المبني على وصف النخل المنسوب إلى شاعر آخر هو ذكوان العجلي، (48) رغم أن موضوع الوصف واحد.

وخامسها: تعدد موضوعات المختارات الشعرية، وإن كانت هذه المختارات منسوبة إلى شاعر واحد. فما يختاره صاعد لكشاجم مثلا من شعر، في مدح مغنية، (49) يكون فصا مستقلا عن الفص اللاحق الذي بني على ما قاله كشاجم نفسه في هجاء مغنية؛ (50) ونفس المقياس يميز الفصوص اللاحقة بعضها عن بعض، رغم كونها مختارات شعرية لشاعر واحد هو كشاجم.

- وسادسها: كون المعنى الشعري جوهر الفص. وقد راعينا هذا المقياس في الفصوص الخاصة بأبيات المعاني، فجعلنا شرح

(47) الفصوص ص : 107 ب.

(48) الفصوص ص : 107 ب.

(49) الفصوص ص : 191.

(50) الفصوص ص : 191.

كل بيت فصا مستقلا، دون أن نميز بين الأبيات التي وردت مستقلة، والأبيات التي تنتمي إلى قصيدة واحدة. (51) أما الاستقلال الصريح للموضوع، أو للشعر، أو لصاحبه، فيعد مقياسا دقيقا لتمييز الفص عن نظيره. ولا نزع أن هذه المقاييس التي اجتهدنا في وضعها، واعتمدنا عليها في تمييز الفصوص بعضها عن بعض، قد مكنتنا من التحديد الدقيق لفصوص الكتاب؛ لكنه اجتهدنا حاولنا به أن نقرب من مفهوم الفص الواحد، كما تصوره صاعد، إن كان صاعد فعلا قد تمثل بناءه كما تمثل نفاسة مضمونه، قبل أن يمليه.

بعد هذا التحديد لمفهوم الفص الواحد من حيث تميزه ببداية ونهاية، يمكن أن نصف بناء الفص في حدوده التي تصورناها. عند تتبع فصوص الكتاب كلها، يتبين أنها تشترك جميعها في كونها تبنى على ركنين، لا يكاد صاعد يستغني عنهما، لارتباط وجود الفص بهما:

الركن الأول نسميه المدخل، والثاني نسميه المتن. أما المدخل فيستمد مادته من الإسناد الذي يربط المتن بأصله، ويتوسط بين القارئ ومتن الفص. وقد يتخذ هذا المدخل الإسناد في شكل سلسلة طويلة، يحيل فيها صاعد على من سمع منه، أو على المصدر الأول للرواية. وقد يكون المدخل نقلا مباشرا من خط منسوب إلى أحد كبار العلماء، أو يكون مجرد إسناد قصير، أو إسنادا إلى غير مسمى. ويأتي الركن الثاني بعد المدخل، ليكتسب أهميته من الجمع بين مضمونه العلمي، وأعلام المدخل الإسنادي الذي قدم به صاعد له. وبعد هذين الركنين اللذين تشترك كل الفصوص في الاعتماد عليهما، تظهر بعض الفروق في البناء، بظهور الشرح اللاحق للمتن في بعض الفصوص، أو بنشوء

(51) الفصوص ص : 1133 - 133 ب.

متون جديدة تتولد من الشرح الذي تلا المتن الأصلي. ويؤدي تتبع هذا التنوع في بنية الفصوص إلى حصر النماذج الآتية:

- النموذج الأول: (52) مدخل إسنادي + متن.
- النموذج الثاني: (53) مدخل إسنادي + متن + شرح.
- النموذج الثالث: (54) مدخل إسنادي + متن + شرح + متن فرعي.
- النموذج الرابع: (55) مدخل إسنادي + متن + شرح + متن فرعي + شرح.

أما الفصوص التي تبدو في الظاهر معرأة من الإسناد، فتبدو كذلك، لورود نفس المدخل الإسنادي في فص سابق، أو لكون الإسناد فيها جد قصير. ولم أعثر عند تتبعي للفصوص على فص عربي تعريية تامة من مثل «قوله تعالى»، أو «قال»، أو «أنشد»، أو «روي»؛ وفي هذا ما يؤكد أهمية المدخل الإسنادي في بناء الفص.

4) البناء الكمي للفصوص :

نقصد بالبناء الكمي الفضاء الذي شغلته الفصوص، من حيث النظر إلى المؤلف بأكمله، والفضاء الذي يشغله الفص الواحد مستقلاً:

أ) بالنسبة لعدد الفصوص وتراكمها باعتبار الكتاب كله، يلاحظ أن إملاء الكتاب الذي امتد أكثر من نصف سنة، قد أنتج ثلاثة وستين وسبعمائة فص استغرقت حوالي ألفي صفحة في النسخة المطبوعة التي نقدمها؛ وإذا كان صاعد قد ضمن للمنصور

(52) الفصوص ص : 133 أ.

(53) الفصوص ص : 158 أ.

(54) الفصوص ص: 149 ب.

(55) الفصوص ص : 12 أ.

وللقارئ ألا يأتي في كتابه إلا بالنفائس العلمية، التي ضن بها أصحابها على الناس، واستأثروا بها لأنفسهم، فإن هذا العدد الكبير من الفصوص يعتبر في حكم المضاعف، إذا ما قيس بعدد ما يماثله من الأمالي العلمية المتداولة المشهورة.

(ب) أما البناء الكمي للفص الواحد مستقلا، فيبدو متنوعا غير خاضع لتحديد منتظم، فبعض الفصوص لا تتجاوز نصف صفحة، بينما تتجاوز فصوص أخرى (56) الخمسين صفحة.

إلا أن الغالب على الكتاب كثرة الفصوص القصيرة، وقلة الطويلة. ولعل أقصر الفصوص هو الفص 346 الذي يتحدث فيه صاعد عن النخلة، ضمن عدد كبير من الفصوص المتعلقة بالنخل: «قال: لا تزال النخلة تطلب البحر أبدا إلى أسفل، فإذا لاقتة وقفت حينئذ». (57) فعدد كلمات هذا الفص لا تتعدى أربع عشرة كلمة. وهو عدد جد قليل إذا قيس بالفص 720 الذي يتجاوز عدد كلماته ألف كلمة. (58)

هذه النسبة التي تجعل الفص القصير يجاور فصا يتجاوز عشرة أضعافه، تؤكد أن اهتمام صاعد كان منصرفا إلى المادة العلمية للفص ونفاستها، لا إلى طوله ووفرة معلوماته.

5) البناء العلمي للفصوص :

المقصود بالبناء العلمي المضمون أو المعارف التي صبها صاعد في كتابه؛ فالكتاب من حيث النظر إلى مجموع فصوصه، مزيج من المعارف المتنوعة التي حصلها في المشرق. وقراءته

(56) انظر الفصوص 188 ص: 68 أ (71 صفحة)، والفص 720 ص 145 ب (86 صفحة).

(57) الفصوص ص: 108 أ.

(58) الفصوص ص: 152 ب.

تنقل القارئ من تفسير الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، إلى المواعظ، والحكم، والأخبار، والطرائف، والهزل، والمجون، والاختيارات الشعرية، وأبيات المعاني، والشروح اللغوية، والمسائل النحوية والصرفية والعروضية، فضلا عن علم الأنساب، والأخبار الخاصة بصاعد نفسه. وإذا كان هذا المزيج من المعارف نتاجا لمجموع فصوص الكتاب، فإن البناء العلمي للفص الواحد لم يكن يعتمد بالضرورة على هذا المزيج العلمي؛ فبينما يجد القارئ بعض الفصوص متضمنة لمادة علمية، مستمدة من عدة أنواع من المعارف والعلوم، يجد فصوصا أخرى مقصورة على ما استمد من علم واحد. وإذا كانت فصوص الكتاب موزعة بين البناء العلمي المركب المتعدد المعارف، والبناء العلمي البسيط، فإن حديثنا عن المكونات العلمية للفصوص مستقلة، سيكون محاولة لتعرف هذه المكونات؛ ولذلك سأحاول أن أتحدث عنها باعتبارها مكونات مستقلة، بغض النظر عن كونها وردت مستقلة أصلا، أو وردت متداخلة في نفس الفص.

أ) فصوص الآيات القرآنية الكريمة :

افتتح صاعد كتابه بفص (59) بناه على تفسير قوله تعالى: ﴿وَكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ الآية. والقصد إلى التبرك بالقرآن الكريم واضح في هذا الاستهلال، إلا أن هذا لا يعني أن صاعدا استهل كتابه بتفسير هذه الآية الكريمة للتبرك فقط. فالفصوص التي بنيت على إيراد الآيات القرآنية، تجاوزت ثمانية وعشرين فصا، فضلا عن الآيات التي يستشهد بها صاعد أثناء الشروح المختلفة التي تضمنتها فصوصه. وهذا العدد يبدو قليلا بالقياس إلى 763 فص التي تضمنها الكتاب، إلا أن مما يميز فصوص الآيات

(59) الفصوص ص: 12.

القرآنية، طولها بالقياس إلى معظم الفصوص. ففصوص الآيات الكريمة كلها تعتبر طويلة، أو متوسطة الطول، وأطولها يقابل من حيث الكم 31 فصا من الفصوص القصيرة.

وإذا كانت فصوص الآيات القرآنية - باعتبارها وحدات مستقلة - قليلة، بالقياس إلى مجموع فصوص الكتاب، فإن مما يفسر قلتها النسبية، تخرج صاعد - كالأصمعي قبله - من أن يقوده علمه باللغة، إلى الخوض في ما ليس له به علم من مراد الله تعالى. وقد كشف عن هذا التحرج في الفص 725، (60) الذي بني على تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَلَعْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾؛ ففي هذا الفص يقول صاعد: «قول الله تعالى ذكره: وجعلنا بينهم موبقا. الله أعلم بمراده... ولو جاز الكلام فيه على مقتضى اللغة لقلنا موبقا أي بعدا...» (61)

ولم يكن هذا التحرج وراء قلة الفصوص القرآنية فحسب، فاهتمامه بالقضايا الصرفية والنحوية واللغوية في الآيات الكريمة التي بنى عليها هذه الفصوص، وتجنبه إيراد الآيات التي تجعله يخوض في ما اعتبره العلماء من المتشابه الذي لا يعلم كنهه إلا الله، دليل على أنه كان يخشى أن تقوده الجرأة والذكاء اللذان تعود أن يبيديهما في شرح الأشعار وفك المعمى، إلى أن يفهم من الآيات الكريمة ما لم يجرؤ المفسرون على الجزم به. ورغم أن صاعدا عاش في عصر كانت آراء علماء الكلام فيه، قد امتدت إلى تفسير القرآن وبحث إعجازه، تبدو فصوصه القرآنية غير مستفيدة من هذه الآراء الكلامية؛ ولعل الفص الوحيد الذي تعرض فيه صاعد لآراء المتكلمين، هو الفص الذي أورد فيه رأي أحد

(60) الفصوص ص: 152 ب.

(61) الفصوص ص: 152 ب.

المتكلمين، في سياق تفسير (62) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الآية. والغالب على هذه الفصوص القرآنية أن تكون مبحثاً يعرض فيه صاعد محفوظه اللغوي، وما حصله في القراءات والنحو والصرف. ويتضح بعض ذلك، مثلاً، في الفص 339 الذي يفسر (63) فيه صاعد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمُعَلِّمِهِمْ مَوْعِدًا﴾. وخلافاً للشرح المحدود الذي يظهر في هذا الفص، نجد صاعداً في الفص 342، يجمع بين إيراد بعض المفردات المختلفة المنتمية إلى نفس الحقل الدلالي، والكلمات المشتقة من نفس حروف المفردة المنتمية إلى حقول دلالية مختلفة. ويظهر ذلك جلياً في شرحه لفظة «لينة» (64) في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الآية، وإن كان الغالب على شروحه تتبع المعاني المختلفة لنفس المفردة، كما يتبين في قوله في الفص (96): وقوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. في ربوة لغات... (65) ويتعمد صاعد في الفصوص التي يريد أن يرجح فيها تفسير آية يراه صائباً، على تفسير آخر لا يرتضيه، أن يختار للشرح ألفاظاً متداولة، دفعاً لأن يحمل شرحه على أنه شرح للغريب، ويتضح ذلك في قوله: «قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدْ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ «تر» هاهنا بمعنى تعلم وليس من رؤية العين..... والسجود هاهنا الخضوع لله، وهي طاعة ما خلق من الحيوان والموات، أصله من أسجد الرجل إذا طأطأ.....» (66) ورغم ميل صاعد الظاهر، إلى ربط الفصوص القرآنية بمباحث تمكنه من

(62) الفصوص ص: 181.

(63) الفصوص ص: 106أ.

(64) الفصوص ص: 107 ب.

(65) الفصوص ص: 43 ب وما بعدها.

(66) الفصوص ص: 43 أ - 43 ب.

عرض معارفه في النحو والصرف واللغة والتفسير، لم تتضمن هذه الفصوص أي فص يمكن أن يعد وسيلة إلى عرض محصوله من علم القراءات. إلا أن هذا لم يمنعه من أن يعرض بعض ما حصله من هذا العلم في كثير من الفصوص. ولعل إكثاره من الاستشهاد بقراءة ابن مسعود يعود إلى رغبته في عرض بضاعته من هذا العلم. بل إن هذا العرض لمحصوله من القراءات، يبدو واضحاً في فصوص لم بينها صاعد أصلاً على الآيات القرآنية، كما نجد في الفص الشعري الذي بناه على قصيدة دَبِيقِيَّة لسوار بن مضرب، حيث نجده، وهو يشرح أبيات القصيدة ويعرض لقضاياها الصرفية، يستطرد إلى عرض ما يعرفه من أوجه القراءات التي قرئ بها قوله تعالى (وعبد الطاغوت): «قال الخليل: وتقرأ هذه الآية في كتاب الله تعالى على سبعة أوجه، فلهذا قيل أنزل القرآن على سبعة أحرف. فالعامة تقرأ...» (67).

إن هذه الفصوص التي بناها صاعد على ما وافق مباحثه من الآيات القرآنية، تبدو قليلة، إذا ما قورنت بكثرة ما بني على الأخبار والطرائف أو الاختيارات الشعرية؛ ورغم ذلك تظل من أكثر فصوص كتابه دلالة على تمكنه من علوم اللسان العربي.

ب) فصوص الأحاديث النبوية الشريفة :

أفاد صاعد من الأحاديث الشريفة في بناء بعض الفصوص، كما أفاد من الآيات القرآنية الكريمة؛ وقد تجاوزت الأحاديث التي بنيت عليها الفصوص أصلاً ستة عشرة حديثاً، فضلاً عن الأحاديث التي وردت عرضاً في سياق تفسيره للآيات الكريمة، وشرحه للشعر.

(67) الفصوص ص: 85 ب.

وإذا كان ورود الآيات الكريمة في الفصوص القرآنية، قد ارتبط لدى صاعد بالمباحث العلمية التي تتفرع منها، فإن بناء هذه الفصوص على الحديث النبوي لم يكن يرتبط دائما بالشرح، فبعضها اختير لمعناه أصلا، أو لملاءمة معناه لموضوع الفصوص المجاورة له، وبعضها اختير لما يتضمنه من مسائل علمية. فمن الفصوص التي بنيت على أحاديث اختيرت لما في معناها من توجيه وفائدة الفصل 738، الذي اكتفى فيه بإيراد الحديث الشريف، دون أن يضمه أي شرح أو تعقيب (68) ومن فصوص الحديث التي ورد فيها قول الرسول ﷺ مناسبا لموضوع الفصوص المجاورة الفصل (82)، الذي بني على حديث نبوي مسند، وافق معناه موضوع الفصل (81)، الذي نقل فيه صاعد خبرا عن زندقة ابن المقفع والحارثي ومطيع بن إياس وحماد عجرد، وتشككهم (69) في القرآن والوحي. فبعد ختم هذا الفصل قال صاعد في الفصل اللاحق: «حدثنا القاضي ابن أبي حصين بالرقعة قال: حدثنا أحمد بن محمد الهمداني... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجدال في القرآن كفر»» (70)

أما فصوص الحديث التي جمع فيها صاعد بين الاختيار، وبحث المسائل اللغوية فقد بلغت تسعة. ومن أهمها الفصل (12) (71) الذي تتبع فيه مستشهدا الحقول الدلالية لمادة «شجن»، انطلاقا من قوله ﷺ: «الرحم شجنة...» الحديث. والملاحظ أن صاعدا يجمع في هذه الأحاديث بين المسند والمرفوع، وبين بعض ما ورد عند مسلم، وابن ماجه، وابن حنبل،

(68) الفصوص ص: 155 ب.

(69) الفصوص ص: 136 ب.

(70) الفصوص ص: 137 أ.

(71) الفصوص ص: 6 ب - 7 أ وانظر أيضا الفصل 85 الذي ضمنه مبحثا قيما في الإبدال فضلا عن الشرح والشواهد الشعرية، الفصوص صفحة 39 ب - 40 أ.

وكثيرا مما لم يرد في الصحاح، دون أن يتشدد في الرواية التشدد المعروف عن علماء الحديث. ولعل ذلك يعود إلى التساهل الذي وصفه به الحافظ ابن حجر،⁽⁷²⁾ ثم إلى كون الأحاديث التي بنى عليها فصوصه اختيرت لما فيها من فائدة، أو لما تضمنته من مسائل لغوية، لا علاقة لها بالأحكام الشرعية.

ج) فصوص المواعظ والحكم والأمثال :

لا يبدو من خلال ما حكي عن مزاح صاعد وهزل، أنه كان يميل إلى هذا النوع من الأدب؛ ولعل الفصوص القليلة التي بناها على ما يمكن أن يعد مواعظ أو حكما، وردت لتجعل من كتابه مؤلفا متعدد المشارب، متنوع الموضوعات، كغيره من كتب الأمالي والمجالس، أو كتب أدب الأنس والدرس بصفة عامة. لذا لا نجد من المواعظ التي اختارها، ذلك التأثير النفسي الذي نجده مثلا عند الزهاد، وأعلام أدب الوعظ، كابن الجوزي مثلا.

وقد اتخذت فصوص المواعظ في كتابه شكل أخبار قصيرة، تتناول الموت، وقرب الأجل، كقوله في الفصل (133): «قال: ودخل عمرو بن عبيد على معاوية بن عمر وهو يجود بنفسه، فقال له: إن الله تعالى قد كلفك في صحتك العمل بجوارحك وقلبك، وقد رفع عنك في هذه الحال العمل بجوارحك. فأعطه ما أوجبه عليك بقلبك». (73) وقد يجعل صاعد أحيانا فص الموعظة جامعا بين الوعظ والاختيار الأدبي، ويظهر ذلك في الفصل (159)، الذي اكتسب أهميته من الموعظة التي بني عليها، والخطبتين اللتين تضمنهما. (74)

(72) لسان الميزان 1/ 163.

(73) الفصوص ص: 57 ب.

(74) الفصوص ص: 60 ب.

واهتمام صاعد بالحكم في كتابه قليل قلة اهتمامه بالمواعظ، وفي ميله إلى الهزل والمزاح ما يفسر قلة الحكم في الفصوص. ومن الفصوص القليلة التي بناها على أدب الحكم الفص (316) الذي يقول فيه: «وروى ابن الحارث عن المدائني، عن الهيثم قال: ثلاث لا يدركن بثلاث، الشباب بالخضاب، والغنى بالمنى، والصحة بالأدوية».(75) ومن أجود الحكم التي نقلها في كتابه الحكمة التي تضمنها الفص (163) وفيه يقول: «وقيل: ستة لا تفارقهم الكآبة: حديث عهد بغنى، ومكثر يخاف على ماله، وطالب مرتبة فوق قدره، والحسود، والحقود، وخليط أهل الأدب وهو غير أديب».(76)

ومما يجدر التنبيه إليه هنا، أن إشارتنا إلى قلة المواعظ والحكم في كتابه، تنظر إلى الفصوص من حيث بناؤها أصلاً على حكمة أو موعظة مقصودة لذاتها، وإلا فإن هناك حكماً ومواعظ غير قليلة، وردت مبثوثة في فصوص الأشعار والأخبار وغيرها من فصوص الكتاب.

أما الأمثال، فكان الفص (7) خير نموذج لها. وقد جمع فيه صاعد أمثالا متعددة، ربطها بمناسباتها، من خلال إيراد قصة بيهس وإخوته السبعة.(77)

د) فصوص الأخبار :

إن من أدق الأوصاف التي يمكن أن يوصف بها الكتاب، أن يوصف بأنه كتاب أخبار وأشعار، فالأخبار والأشعار يعتبران المكون العلمي المهيمن على باقي المكونات في الفصوص.

(75) الفصوص ص: 103 ب.

(76) الفصوص ص: 66 ب.

(77) الفصوص ص: 5 ب - 16 أ.

وإذا كان صاعد قد حفظ من الأخبار والقصص ما مكنه من أن يصبح نديما يتعلق به الخلفاء والوزراء في المشرق والأندلس، فإن في شيوع أدب السمر في القرن الرابع - حتى في المجالس العلمية الرصينة - ما يفسر اهتمامه بهذا النوع من الأدب الذي يمكن أن يوصف، من حيث النظر إلى طريقة تبليغه وإلى أثره في السامعين، بكونه أدب القص والسرد. وقد ذكرت المصادر أن صاعدا كان ممتع العشرة والمجالسة؛ وفي تعلق المنصور بكتاب الجواس الذي ألفه له صاعد، ما يشهد لمؤلفه بالبراعة في صياغة الأخبار وقصصها. ولا نستبعد أن تكون ملازمته في المشرق لأمثال التنوخي وابن شاذان، الذي كان بارعا في قص الأخبار والأسمار، قد مكنته من أن يصبح خبيرا بأسرار السرد والقص. فهذا النوع من الخبرة لم يكن ميسرا لكثير من العلماء، رغم تساويهم في معرفة مضامين نفس الأخبار. وتعد فصوص الأخبار في الكتاب مزيجا من التاريخ، والقصص، والأسمار، والخرافة، والطرائف، والملح، والهزل، والمجون. وترد كلها للإمتاع والتسلية، أو للاعتبار والاتعاظ. إلا أن بعضها يتضمن من الشروح اللغوية، ما يفيد أن صاعدا كان يريد أن يجعل من بعض الفصوص مصدرا للمتعة والفائدة معا. ولارتباط بعض أصناف هذه الأخبار بأصناف أخرى، كفصوص الطرائف والملح، وفصوص الهزل والمجون، أو فصوص أخبار الشعراء والعلماء، نقصر في هذا المبحث على التعريف بفصوص الأخبار التاريخية أو شبه التاريخية، وفصوص القصص والأسمار، مع التنبيه إلى أن التمييز بين ما هو تاريخي وقصصي قد يكون لتبسيط الدراسة فقط.

ينقل صاعد في فصوص الأخبار التاريخية، عن الجيل الأول من المؤرخين الذين عرفوا بالإخباريين. ومن الأسماء التي يكثر من الرواية عنها الزبير بن بكار، والمدائني، وابن الكلبي والسكن

بن سعيد. وتتنوع هذه الأخبار ذات الطابع التاريخي بين أخبار تتعلق بالجاهليين، وأخرى تتعلق ببعض الصحابة الأجلاء، وأخبار تتعلق بعصر بني أمية، وبعض بني العباس. وقد ألحقت هذه الأخبار كلها بالتاريخ، لاعتمادها على شخصيات تاريخية معروفة، ووقائع تبدو حقيقية؛ إلا أن هذا التنبيه إلى الجانب التاريخي فيها، لا يعني أنها وردت في الفصوص للتأريخ، فالغاية من إيرادها إلى جانب الفائدة التاريخية، كانت الإمتاع بالقص نفسه، قبل موضوع القص.

ومن بين ما أورده صاعد من أخبار الجاهلية في هذا النوع من الفصوص، خبر عمرو بن معد يكرب مع ابن أخته قيس. (78)

وبنى صاعد، عددا قليلا من فصوص الأخبار على أخبار بعض الصحابة (79) الأجلاء، مع عناية بأخبار الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. وتكشف الأخبار الكثيرة المتعلقة ببني أمية وولاتهم، عن اهتمام خاص كان صاعد يوليه تاريخ الدولة الأموية. ولعل التفسير المقبول لهذا الاهتمام، يكمن في كون الحاجب المنصور الذي ألف له كتاب الفصوص، كان أحد خدام الأمويين بالأندلس. وفي الإكثار من أخبار بني أمية (80) في المشرق، مجاملة غير مباشرة للخليفة هشام، الذي كان رغم خلافته الصورية الإمام الشرعي الذي يستمد منه ابن أبي عامر سلطته.

ولورود أسماء بعض خلفاء الدولة العباسية ووزرائهم، في كثير من الأخبار والقصص والطرائف والنوادر، التي كانت تكون المادة العلمية لأدب السمر، نجد صاعدا، يخصص بعض الفصوص

(78) الفصوص ص: 105 - 105 ب.

(79) انظر الفصوص ص: 165 - 188 - 105 ب.

(80) انظر مثلا خبر عمر بن عبد العزيز مع عبد الملك بن مروان: الفصوص

ص: 50 ب وانظر أيضا ص: 59 ب - 160 - 60 ب.

لأخبار تتعلق ببني العباس. وكان لأخبار هارون الرشيد (81) أو في نصيب من هذه الأخبار التي كانت غير كثيرة، بالقياس إلى نقله من أخبار بني أمية.

أما فصوص القصص والأسمار، فتبدو في الكتاب أمتع وأنس، لتمامسك البناء الفني فيها، وغلبة الخيال فيها على الحقيقة والتاريخ. فالقصص المكونة لهذه الفصوص ترد في الغالب مبنية على وقائع منسوبة إلى شخوص غير مسمين، يكتفي القاص بالإشارة إليهم بلفظ «الأعرابي» أو ما قارب ذلك، ومن ذلك حكاية الأعرابية والنخل، (82) وحكاية الأعرابي الذي أضاع إبله. (83) ومن أمتع هذه الأسمار حكاية الأصمعي مع الأعرابي والمغني. (84)

ومما استغربته وأنا أتتبع هذه الأسمار، فص بناه صاعد على حكاية جعل من شخوصها الضفدعة والضب. وليست الغرابة في كون الشخوص من الحيوان، فهذا النوع من الخرافات، كان معروفا لدى العرب قبل أن يترجم ابن المقفع كليله ودمنة؛ ولكن الغرابة تكمن في كون هذا الفص - حسب ما تبين لي - الفص الوحيد الذي بني على خرافة شخوصها حيوانات تتكلم. فهل كان إحجام صاعد عن إيراد خرافة ثانية، راجعا إلى إحساسه بأن هذا النوع من الأدب الذي يعتمد على الخيال أو الكذب المقصود، لا ينفق في مجالس الأندلس العلمية. ومما يطمئن إلى هذا التفسير، كون خرافة الضفدعة والضب، قد وردت في الفص (31)، في الصفحات التسعين الأولى؛ وعدم ورود خرافة مشابهة في الألفي صفحة اللاحقة يوحي بأن صاعدا - بعد إيراده هذه الخرافة الفاردة -

(81) الفصوص ص: 76 ب.

(82) الفصوص ص: 109 ب.

(83) الفصوص ص: 167 أ.

(84) الفصوص ص: 161 أ.

قصد إلى المحافظة على بعض الجد أمام الأندلسيين، بتجنب أدب الخرافة مطلقا في الفصوص اللاحقة.

إن كتاب الفصوص لا يخضع في عمومته، لتنظيم أو تبويب مضبوط؛ لكن مما يدعو إلى التأمل، أن جل فصوص الأخبار والأسمار، ورد في الثلثين الأولين من الكتاب، وأن الثلث الأخير يخلو من هذا النوع من الفصوص.

هـ) فصوص الطرائف والملح :

تعد هذه الفصوص في كتاب صاعد، نموذجا وسطا بين فصوص الأخبار والأسمار، وفصوص الهزل والمجون؛ فهو يميل بها إلى التسلية، دون أن ينحو بها منحى التسلية المضحكة التي نجدها في هزله ومجونه، وفي ذلك ما يجعلها فكاهة محتشمة يشوبها بعض الجد. وفصوص الطرائف في الكتاب كثيرة، منها المطول كالقص (119) الذي نقل فيه صاعد خبر الطفيلي وجاره، (85) ومنها القصير المقتضب. ومن هذه الطرائف الممتعة خبر قدوم أبي نخيلة الراجز على هشام بن عبد الملك. (86)

أما الملح فتتميز عموما بقصرها، وبتعلقها بأعلام عرفوا بنواديرهم وما يحكى عنهم من حكايات مسلية، بغض النظر عن كون هذا الذي يحكى عنهم حقيقيا أو خياليا. ومن ذلك ملح أبي دلالة مع الخليفة أبي جعفر المنصور التي بنى عليها الفصل (418). (87)

و) فصوص الهزل والمجون :

ونقصد بها الفصوص التي مال فيها صاعد إلى الإضحاك الصريح، متخليا في بعض الأحيان، عن القليل من الوقار الذي

(85) الفصوص ص: 152.

(86) الفصوص ص: 139 - 39 ب..

(87) الفصوص ص: 124.

تتطلبه أكثر المجالس العلمية تساهلاً. ولعل هذه الفصوص، تعد الصورة المعبرة عن كثرة المزاح أو المجون اللذين وصف بهما صاعد، في كثير من المصادر التي ترجمت له. وتدل كثرة هذه الفصوص الهزلية أو الماجنة، في كتابه، على ميله إلى هذا النوع من الأدب الذي كان شائعاً في المشرق في القرن الرابع، حتى بين ذوي الوقار من العلماء والوزراء والقضاة؛ (88) كما يدل تنوع موضوعات هذه الفصوص، على غزارة محفوظه من هذا الأدب. ولم يكن صاعد يفرق في بنائه لهذه الفصوص بين المنظوم والمنثور؛ فالموضوع الهزلي أو الماجن، هو الغاية التي كان يبحث عنها، سواء كانت الوسيلة شعراً أو نثراً. وقد حاولنا في تفريقنا بين الفصوص الهازلة، والفصوص الماجنة، أن نحتكم إلى مقياس الخلاعة والإفحاش، فجعلنا «المجون» صفة للفصوص التي بنيت أخبارها على التصريح الفاحش بما يكنى عنه من المعاني، وجعلنا الهزل صفة للفصوص التي سعى صاعد إلى جعلها مسلية مضحكة، دون أن يضمن الخبر أي لفظ أو معنى فاحش. ومن الفصوص الهزلية التي سلمت من الإفحاش، الفصل (42) الذي يقول فيه صاعد: «ذكر المدائني أن رجلاً من بجيلة مرض أخوه، فأغمي عليه في مرضه، فجاء بالغاسل، فوجد به رمقا، فقال: إنه حي. فقال: اغسله، فإنك لا تفرغ من غسله حتى يموت». (89)

أما فصوصه الماجنة فجد كثيرة؛ وحتى لا يحمل هذا الوصف على المبالغة، وللربط بين الصورة التي رسمتها المصادر لصاعد، وما ورد في فصوصه، نورد للتمثيل، الفصل الذي ينقل فيه صاعد عن الأصمعي خبر زواج شيخ من العرب بجارية حسناء: «قال

(88) انظر حديث الثعالبي عن التنوخي وطرحه الحشمة مع جملة من القضاة في مجالس المهلب يتيمة الدهر 2/335.

(89) الفصوص ص: 12 ب.

الأصمعي: تزوج شيخ من العرب بجارية حسناء، وكان قد أخذ منه الكبر، وضعف عن غشيان النساء، فكان يعانقها ويمكنها وتمكنه من نفسها، فلا ينتشر عليه، ويتقلص ذكره ويبقى معلقا بين فخذيه منكسا، فنشزت عليه، فقال: (كامل)

- 1 — نَظَرْتُ فَأَعْجَبَهَا الَّذِي فِي يَرْعَاهَا
مِنْ حُسْنِهِ وَنَظَرْتُ فِي سِرْبَالِيَا
- 2 — قَرَأَتْ لَهَا كَفَلًا يَنْوُءُ بِخَصْرِهَا
وَعَثَا مُؤَزَّرُهُ وَأَخْجَمَ نَاتِيَا
- 3 — وَرَأَيْتُ مُنْتَفِضَ الْجَعَانِ مُدَلِّدَلَا
رَخَّوَا حَمَائِلُهُ رَقِيقًا بَالِيَا
- 4 — أَذْنِي لَهُ التَّرَكَّبَ الْخَلِيقَ كَأَنَّمَا
أَذْنِي إِلَيْهِ عَقَارِبًا وَأَقَاعِيَا
- 5 — مَا بَالُ رَأْسِكَ مِنْ وَرَائِي خَالِفًا
أَحْسَبْتُ أَنَّ حِرَّ الْفَتَاةِ وَرَائِيَا (90)

ورغم هذا التمييز بين الهزل والمجون، الذي مكننا منه المقياس المحكم، نعترف بأننا لم نستطع أن نحدد المنحى الدقيق لبعض الفصوص، ويرجع ذلك إلى أن الحكاية أو الشعر الذي يبنى عليه الفص، يكون أحيانا عبثا ببعض من ترتبط أعمالهم بالشعائر الدينية كالمؤذن، والخطيب، (91) أو تفكها غير مؤدب لا يراعي مقام القرآن الكريم، (92) كما يرجع أحيانا أخرى، إلى كون الفص يبدأ هازلا وينتهي ماجنا. ونكتفي بالتمثيل لهذا النوع الأخير بالفص (401) الذي ينقل فيه صاعد عن ابن دريد خبر الشيخ أبي غريب وزواجه: «قال ابن دريد: قال أبو زيد الكلابي: كان أبو غريب

(90) الفصوص ص: 155 ب.

(91) انظر الفصوص: الصفحات 126 أ - 126 ب.

(92) انظر الفصوص: 132 ب - 133 أ.

عندنا شيخا تزوج فلم يولم، فاجتمعنا على باب خبائه وصحنا
(منهوك المنسرح):

1 — أَوْ لِمَ وَلَوْ بَيْتَ رَبُّوعْ

2 — أَوْ يَقُ رَايَ مَجْ دُوعْ

3 — قَتَلْتَنَّا مِنَ الْجُوعْ

فَأَوْلَمَ، واجتمعنا عنده، فعرس بأهله، فلما أصبح غدونا عليه
وقلنا: (رجز)

1 — يَا لَيْتَ شَعْرِي فِي أَبِي غَرِيبِ

2 — إِنْ بَاتَ فِي مَجَاسِيدِ وَطِيبِ

3 — مُعَانِقًا لِلرَّشَاءِ الرَّبِيبِ

4 — أَلْغَمَدَ الْمُحَقَّارِ فِي الْقَلِيبِ

5 — أَمْ كَانَ رَحُوءًا يَابِسَ الْقَضِيبِ

فصاح إلينا: يابس القضيب والله، وأنشأ يقول: (بسيط)

1 — سُفِيًّا لِعَهْدِ خَلِيلٍ كَانَ يَأْدِمُ لِي

رَايَ وَيُذْهِبُ عَنْ رَوْجَاتِي الْغَضَبَا

2 — كَانَ الْخَلِيلَ فَأَضْحَى قَدْ تَخَوَّنَهُ

مَرُّ الزَّمَانِ وَتَطْعَانِي بِهِ الثُّقْبَا (93)

وإذا كنا - في إشارة سابقة - قد أرجعنا اقتصار صاعد على
خرافة واحدة، إلى إحساسه بنفور علماء الأندلس من كذب (94)
الخرافات، فإن مما نفسر به كثرة فصوص الهزل والمجون في
كتابه، كون صاعد قد آنس من المنصور ومن بعض الذين كانوا
يحضرون مجالسه، ميلا إلى ما كان يحدث به من هزل ومجون،
فأكثر من ذلك، وهو لا يعلم أن هزله وتماجنه سيكونان سببا في

(93) الفصوص ص: 114 أ.

(94) المقصود بالكذب هنا، نسبة الأحداث والأقوال إلى الحيوان.

سوء سمعته العلمية لدى بعض معاصريه ولدى المتأخرين، كما تشهد بذلك المصادر التي ترجمت له.

(ز) فصوص أخبار الشعراء :

يقترب صاعد بهذه الفصوص، من بعض ما ورد في كتاب الأغاني، من أخبار الشعراء أو نوادرهم. ومجموع الفصوص التي بناها على هذه الأخبار والنوادر، يمكن أن تكون كتابا مستقلا بذاته، لطرافة ما أورده منها في مؤلفه. ومما تتميز به هذه الأخبار، أنها تتناول بعض الشعراء الجاهليين، والمخضرمين، والأمويين، والعباسيين، دون أية تفرقة بين القدماء منهم والمحدثين.

وينحو صاعد في بعض الأخبار منحى جادا، بينما ينحو في بعضها الآخر منحى هزليا صريحا، كما يتضح من الفص (216) الذي بناه على خبر الشاعر أبي فرعون، وانتجاعه أعرابا أكلوا ضيفهم. (95)

ومن الشعراء الذين تضمنت الفصوص بعض أخبارهم، أبو دؤاد الإيادي، وبيهس، ومرقش الأكبر، والأعشى، ثم الشماخ، ومزرد، وسحيم، وجميل، وأبو نخيلة، وأبو النجم، ورؤبة، والوليد بن يزيد، ومروان بن أبي حفصة، ومطيع بن إياس، وحماد عجرد، وبشار، وأبو العتاهية، وأبو دلامة، وأبو نواس، والعتابي، ومنصور النمري، وأبو المقدام، وأبو تمام، وابن العلاف، وابن طباطبا العلوي. وبعض هذه الأخبار لا تخلو من أهمية، من حيث علاقتها بالتأريخ الأدبي؛ ومن ذلك خبر بداية شهرة أبي تمام (96) الذي تضمنه الفص (518). لكن قلة فصوص أخبار الشعراء هذه - رغم مقاربتها ثلاثين خبرا - بالقياس إلى كثرة فصوص الاختيارات

(95) الفصوص ص: 178.

(96) الفصوص ص: 131 ب.

الشعرية نفسها، يجعلنا نعتقد أن صاعداً، كان أكثر اهتماماً بأشعار الشعراء منه بأخبارهم.

ح) فصوص أخبار العلماء :

اهتم صاعد بنقل أخبار بعض من عاصره من العلماء، كما اهتم بنقل بعض أخبار كبار العلماء في العصور السابقة؛ ومن بين هؤلاء العلماء الذين وردت بعض أخبارهم في فصوص صاعد، شيخاه أبو سعيد السيرافي، وأبو علي الفارسي، والوزير عبد العزيز يوسف، وقرموطة، وعلي بن مهدي، وابن حمود الزبيدي الأندلسي، والزبيدي مختصر العين، والمبرد، وثعلب، وابن الجراح، وابن المعتز الشاعر العالم، والحسن بن وهب، واليزيدي، ويونس، وسيبويه، والخليل، وعمر بن عبيد، والأصمعي، والأعمش، وابن المقفع....

وقد تعلق بعض هذه الأخبار بالجانب الإنساني في حياة هؤلاء العلماء، كالمنافسة⁽⁹⁷⁾ التي كانت بين السيرافي والفارسي، وبين المبرد وثعلب⁽⁹⁸⁾ وكزواج سيبويه، الذي كان سبباً في إحراق النسخة الأولى من كتابه؛ بينما تعلق بعضها الآخر بالحياة العلمية لهؤلاء العلماء، كخبر انتقال الأصمعي بين البوادي بحثاً عن اللغات، واعتماده على الجذاذات في تقييد العلم وحفظه؛ وخبر حديث سيبويه عن علم شيخه الخليل⁽⁹⁹⁾ المكتوب والمحفوظ. ومن أطرف هذه الفصوص المبنية على أخبار العلماء، الفصل 513 الذي أشار فيه صاعد إلى أن النسخة التي بين أيدينا من كتاب سيبويه ليست نفس النسخة الأولى التي ألفها.⁽¹⁰⁰⁾

(97) الفصوص ص: 171.

(98) الفصوص ص: 129 ب.

(99) الفصوص ص: 131 أ.

(100) الفصوص ص: 131 أ - 131 ب.

ط) فصوص أخبار صاعد :

لم يبخل صاحب الفصوص على قارئ كتابه، ببعض أخباره في المشرق والأندلس؛ فبعض فصوص الأخبار في كتابه مبنية على بعض أخباره قبل أن يرحل عن بغداد، وبعد وصوله إلى بلاط المنصور بقرطبة. وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف مدى الأهمية التي حظيت بها هذه الأخبار لدى معاصريه من علماء الأندلس، فإن هذه الأخبار نفسها، تكتسي اليوم أهمية كبيرة، لأنها تعد بالقياس إلى الفقر الكمي والكيفي الذي اتسمت به أخبار صاعد في المصادر، المصدر الوحيد لكل دراسة ترغب في تقريب صورة صاحب الفصوص، عبر مختلف مراحل حياته، إلى القارئ المعاصر. ونعترف بأن غنى هذه الأخبار التي يخبر بها صاعد نفسه، قد مكننا من تجلية الغموض الذي أحاط بحياته، وتصحيح بعض الأخطاء التاريخية التي وردت في تراجم بعض القدماء له، مما جعل الترجمة التي حاولنا بناءها في المدخل السابق، تبدو - والله أعلم - إلى حد الآن، أوثق ما كتب عن صاعد وأكملته، لجدة المادة العلمية التي أمدنا بها - وكأنه كان يعلم أن أخباره ستضيع - وذلك في فصوصه التي بناها على بعض أخباره في المشرق والأندلس.

وقد تنوعت هذه الأخبار التي أخبر بها صاعد عن نفسه، بين أخبار تتعلق بشيوخه، والبلاد التي درس بها، والمعارف التي حصلها، وأخبار تتعلق بالعلماء الذين جالسهم أو ناظرهم، وأخبار تتعلق بمن قربه من ذوي السلطان في المشرق، فضلا عن الأخبار التي عرفتنا بالأسباب الحقيقية التي أرغمته على الخروج من بغداد إلى الأندلس، وبتاريخ خروجه منها، وبطبيعة العلاقة التي ربطته بالمنصور بن أبي عامر، وبتلامذة القالي في الأندلس. وإذا كنا قد

استفدنا من جل هذه الأخبار في ترجمتنا المتقدمة لصاعد، فإننا نكتفي هنا، بأن نمثل لهذا النوع من الفصوص التي بناها على أخباره، بالفص (432) الذي يعرفنا ببعض مظاهر الحظوة العلمية التي كان صاعد يحظى بها في بلاط المنصور بن أبي عامر. (101)

ولعل صاعدا كان سيزيدنا معرفة به، لو أنه ضمن فصوصه من أخباره أكثر مما فعل، إلا أننا لا ننكر أن هذه الأخبار - رغم قلتها النسبية - استطاعت أن تضيء بعض جوانب العتمة التي حجبت عنا الصورة الحقيقية له، بعدما تحولت أخباره في المصادر إلى ملح ونوادر يتسلى بها. (102)

(ي) فصوص المختارات الشعرية :

تدل كثرة الفصوص التي بناها صاعد على أشعار جيدة أو رقيقة اختيرت لذاتها، لا لتفسير معانيها أو شرح غريبها، على غزارة محفوظ وبصر بالنقد، يؤكدان أن صناعة صاعد كانت، كما قال هو نفسه، حفظ الأشعار وروايتها. ولم يميز صاحب الفصوص في ما اختاره من شعر، بين القديم والمحدث. وقد اختار صاعد من الشعر القديم، ما استجاده هو، أو استجاده العلماء، من مقطعات وقصائد مطولة لشعراء جاهليين، ومخضرمين، وأمويين، دون أن يفرق بين القصيد والرجز، أو بين المنسوب وغير المنسوب، ولا بين المغمور والمشهور من هؤلاء الشعراء.

(101) الفصوص ص: 129 ب.

(102) انظر مثلاً ما نقلته هذه المصادر عن حادثة الخنبشار والتمركل والقوالب والزوالب.

أما الشعر المحدث، فقد جمع في ما اختاره منه بين أشعار القرن الثاني والثالث، وأشعار بعض من عاصره أو صادقه من شعراء القرن الرابع الهجري في المشرق. وقد يبدو هذا الاختيار لبعض ما نظمه أهل عصره من الشعراء، للقارئ اليوم، أسلوباً أدبياً، لا يحمل أية دلالة نقدية؛ لكن وضع هذا الاختيار في سياقه التاريخي، يكشف عن جرأة نقدية تميز بها صاحب الفصوص في عصر كانت المعاصرة فيه حجاباً. وقد نبه الثعالبي قارئ اليتيمة إلى أن ما يميز كتابه هو اهتمامه بمحاسن أهل العصر، في زمن سئم فيه الناس ما يردده المصنفون من أشعار السابقين. (103) ويتحدث النقاد عادة عن الثعالبي، باعتباره الناقد الذي خرق حجاب المعاصرة، ليؤلف كتاباً في محاسن أهل عصره من الشعراء والأدباء. والثعالبي يصرح في مقدمة النسخة الثانية من اليتيمة، بأنه كان قد بدأ تأليف النسخة الأولى سنة 384هـ. وإذا كان صاعد قد بدأ إملاء الفصوص بقرطبة في ربيع الأول سنة 385هـ بعد أن كان قد أملاه على مستخدمي المنصور، فإن بعد المسافة بين المشرق والأندلس، وتقارب تاريخ تأليف اليتيمة وإملاء الفصوص، يجعلاننا نفترض أن الثعالبي لم يكن سابقاً إلى اختراق حجاب المعاصرة. فصاعد بتضمينه كتابه الفصوص مختارات شعرية لمعاصريه من المشاركة، وهو بالأندلس، يعد مشاركاً الثعالبي في التمرد على العرف، الذي يمنع النقاد والمصنفين، في النصف الأول من القرن الرابع، من أن يختاروا للمعاصرين ولو أجادوا وأحسنوا.

إن القصد إلى التعريف بمحاسن أهل العصر لدى صاحب اليتيمة، هو نفسه ما قصد إليه صاحب الفصوص. وكل ما يميز كتاب اليتيمة كونه مصنفًا خاصاً يجمع هذه المحاسن، دون

(103) يتيمة الدهر 4/1.

التعرض للأعصر السابقة؛ بينما وردت الفصوص التي بناها صاعد على ما استحسنه من أشعار معاصريه، ضمن مؤلف كبير، يضم محاسن السابقين والمعاصرين، ومباحث علمية أخرى. ومن الشعراء القدامى والمحدثين والمعاصرين الذين اختار لهم صاعد، أذكر للتمثيل لا للحصر، مرقشا الأكبر، والأعشى، وسحيم، ومعن بن أوس، وعبيد بن أيوب، وأبا النجم، ونصيبا مولى المهدي، وأبا العتاهية، وابن المعتز، والوأواء، وكشاجماً، والسري الرفاء، والحمدوني، وأبا بكر الخالدي، وأبا عثمان الخالدي... والجامع بين هذه المختارات الشعرية التي يختارها صاعد الجودة والرقّة والندرة؛ أما الغرض الشعري فلم يكن مُحْكَمًا في هذا الاختيار، لذا نجد هذه المختارات تجمع بين الشعر الجاد الرزين، والوصف المحكم، والغزل الرقيق، والهجاء الساخر، والهزل الماجن.

ويبدو أن صاعداً كان يعتبر جودة الشعر وحسنه، قيمة فنية كافية لبناء الفص، مثلها مثل القيمة العلمية أو التاريخية للشعر، ويتجلى ذلك من الحيرة التي أبداهها أمام أبيات نقلها عن سيبويه، دون أن يعرف وجه إثباتها: «ونقلت من خط سيبويه للقيّم بن لقمان الحكيم: (وافر)

- 1 — أَلَا حَيَّ ابْنَةَ الْجَدَلِيِّ هَرَّا
وَنَاعِمَهَا صَبَاخَكَ وَالْمَقَرَّا
- 2 — بِأَيَّةِ أَنْهَاءَ قَامَتْ فَقَالَتْ
أَلَا مَنْ يَدْفَعُ الشَّرَّ الشِّمِيرَا

ولم أر له شرحاً بخطه، فلا أدري لأي شيء كتبه؟ للنسب إلى جديلة؟ أم للشمر، ففيه كلام...» (104).

(104) الفصوص ص: 86 ب.

ويرجع تمسك صاعد بهذه المختارات الشعرية النادرة، في الظاهر، إلى أنه وعد القارئ بألا يحدثه إلا بأحسن ما حفظ ونقل من خطوط العلماء. لكن السبب الحقيقي لإكثاره منها، رغبته في تحدي علماء الأندلس وتلامذة القالي، بمحفوظ شعري كانوا يجهلونه. وكانت الاختيارات التي أوردها في الفصوص التي بنيت على موضوع «النخل»، نموذجاً لهذا المحفوظ القيم النادر؛ فقد جمع صاعد في هذه الفصوص من الأشعار غير المتداولة، ومن أسماء الشعراء المغمورين والمجهولين، ما يؤكد أنه كان حافظاً للشعر، يجمع في حفظه بين المشهور وغير المشهور. وقد كانت الفترة التي تولى فيها الإشراف على نفائس خزانة الوزير ابن يوسف، وراء هذا المحفوظ الغزير الذي لم يكن ميسراً لغيره من العلماء. وكان صاعد في كثير من الفصوص يتعمد التنبيه إلى ندرة ما يورده: «قال صاعد بن الحسن: نقلت عن يد الأصمعي مما استأثر به لنفسه، هذه القصيدة، وهي لشبل بن الصامت المزنني...» (105)

ولعل أهم ما يستفيده القارئ اليوم، من هذه المختارات القيمة النادرة، وقوفه على مجموعات شعرية تنافس الاختيارات التي وصلتنا، فضلاً عن بعض اختيارات الأصمعي التي تلزم الدارس بالبحث عن علاقتها بالأصمعيات المتداولة اليوم بين القراء. ومن هذه المجموعات الشعرية المتميزة الدَّبِيقَات، وهي عشر قصائد اختيرت لعبد الله بن طاهر بن الحسين كما ذكر ذلك صاعد نفسه: «نقلتُ هذه القصيدة من ثوب دَبِيقِي بخط الأقرع، كتبها إلى (106) تسع قصائد مختارة لعبد الله بن طاهر، فكان الثوب يعلق في حائط مجلسه، فيدرسها ليستظهرها وهو مستلق على ظهره؛

(105) الفصوص ص: 130.

(106) أي كتبها إلى جانب تسع قصائد أخرى.

وسأثبت الجميع في كتابنا هذا مشروحا، إن فسح الله تبارك اسمه في الأجل...» (107) وفي الفصوص التي بنيت على هاته القصائد، كان صاعد ينبه إلى أن القصيدة دَبِيقِيَّة مختارة، كقوله في الفص (226): «قال صاعد بن الحسن: هذه القصيدة إحدى القصائد العشر، التي كتبها الأقرع، لعبد الله بن طاهر في الثوب الدببقي الذي كان يعلق قدامه، ليقراها وهو مستلق على ظهره فيستظهرها...» (108)

وقوله في الفص (227): «ونقلت من خط الأقرع، في الثوب، من العشر المختارة لعبد الله بن طاهر، لسوار بن مضرب، كلابي جاهلي...» (109) والحديث عن الدببقيات التي شرح صاعد بعضها، رغم كونها اختيارا فنيا، يفرض علينا أن نلحق بفصوص الاختيارات الشعرية غير المشروحة فصوصا أخرى كثيرة، جمع فيها بين اختيار الشعر وشرحه، لتداخل القيمة العلمية والفنية في نفس النموذج؛ وبضم فصوص المختارات الشعرية المشروحة، إلى ما لم يشرح من هذه المختارات، يصبح كتاب الفصوص من أنفس كتب الاختيارات اليوم وأهمها، من حيث النظر إلى تضمنه أشعارا كثيرة، لم ترد في ما بين أيدينا اليوم من كتب المجموعات، والحماسات، والاختيارات، والنوادر، ولا في غيرها من كتب الأمالي والمجالس. ومن النفائس التي بنى عليها صاعد كثيرا من الفصوص، أذكر الفصوص التي جمع فيها ما يكون مجموعة شعرية مستقلة؛ ولارتباط أشعار هذه المجموعة بموضوع واحد هو النخل، فإن من الممكن أن نسمي هذه المجموعة النادرة بالنخليات. (110)

(107) الفصوص ص: 127 أ.

(108) الفصوص ص: 82 ب.

(109) الفصوص ص: 183 أ.

(110) انظر مثلا الفصوص ص: 109 ب.

ومن النفائس أيضا التي تضمنتها هذه المختارات الشعرية، أشعار منتقاة مما جمعه بعض العلماء من أشعار القبائل التي تعد اليوم مفقودة أو في حكم المفقود، (111) وأشعار أخرى تنتمي إلى ما سمي بشعر اللصوص. (112)

وكثير من هذه المقطوعات والقصائد مروية عن علماء مشهورين، كالفضل، والأصمعي، وأبي عمرو الشيباني وابنه؛ لكنني أعترف بأنني عجزت عن تخريج عدد غير قليل من المختارات، والتعريف بأصحابها، رغم رجوعي إلى كثير من المصادر والدواوين والمظان.

وكل ما كنت أعثر عليه من هذه المختارات أبيات منفردة ورد أكثرها في كتاب النخلة أو اللسان. (113) وقد يكون عجزني تقصير في البحث، لكن مما يجدر التذكير به أن صاعدا استطاع في القرن الرابع أن يرغب تلامذة القالي كلهم على الاعتراف ضمينا بهذا العجز، من خلال تشكيكهم وتشكيكهم في صحة ما ورد في الفصوص. وكان هذا التشكيك والتعجيز نتيجة مباشرة لالتزام صاعد بأن لا يضمن كتابه كلمة واحدة مما أورده القالي، أو لاشتراطه غير المشهور، كما عبر عن ذلك صاحب الذخيرة. ولهذا نميل إلى إرجاع خلو المصادر من معظم هذه المختارات الشعرية التي أثبتتها صاعد في الفصوص، إلى أنها كانت نادرة في عصر المؤلف نفسه، لا إلى ضياعها في العصور اللاحقة.

ولم يفت صاعدا أن يضم إلى هذه النفائس الشعرية التي جمعت بين ما قاله القدماء، وأهل العصر، ما استجاده هو نفسه

(111) انظر مثلا ما أورده من أشعار ضبة، ومزينة، ومراد، وجعفي.

(112) انظر ما نقله من أشعار عبید بن آیوب وفرعان اللص.

(113) أقصد على الخصوص ما سمّيته بالانحطيات.

من شعره، ملقيا بدلوه في الدلاء، كما قال في الفص (467). (114) ورغم حسن مدحته التي اختارها في الفصوص، لم تتجاوز الفصوص التي ضمنها أشعاره فصين. ولعله أدرك أن في جودة الأشعار التي اختارها للقدماء، وحسن ما اختاره للمحدثين، ما يغني عن أشعار له قصرت عن أشعار المشارقة، وإن كانت قد نفقت في مجالس قرطبة واستطرفت. (115)

ك) فصوص المختارات الأدبية :

نقصد بهذه تسمية المختارات المرتبطة بالأدب الإنشائي، وإلا فكتاب الفصوص كله يعتبر كتاب مختارات أدبية، إذا نحن توسعنا في فهم هذا المصطلح. ونقصد بالأدب الإنشائي هنا ما كان خطبة أو رسالة فنية.

والملاحظ أن فصوص المختارات الأدبية جد قليلة، إذا ما قيست بفصوص المختارات الشعرية. ولعل نسيان صاعد لبعض ما حفظه من المنثور بعد أن فقد كتبه وراء هذه القلة. وقد اعترف هو نفسه بهذا النسيان، عندما أثر في أحد الفصوص ألا يثبت من خط الأصمعي رسالة له، كتبها إلى بعض الأعراب بنجد: «ونقلت بعد هذا نسخة كتاب إلى بعض الأعراب بنجد، يذكر شوقه إليه وأيامه عنده، وهو يطوف في أحياء العرب يأخذ عنهم اللغات. وكان كتابا فصيحاً، غير أنني نسيت سرده، فلم أحب أن أثبت منه شيئاً على غير وجهه». (116) ويبدو أن صاعدا لم يكن يتخرج من الاعتراف بالنسيان، كما يظهر في قوله متحدثاً عن شيخه أبي علي

(114) الفصوص ص: 127 ب.

(115) انظر المبحث الخاص بشعره.

(116) الفصوص ص: 50 ب.

الفارسي: «وكننت كتبت من إملائه رحمه الله نحو ألفي ورقة، فلم يحصل من أصلي في الأندلس إلا هذا الذي نقلته...» (117)

ومن بين هذه المختارات المطولة التي حفظتها ذاكرة صاعد، رسالة كتبها الشاعر ابن المعتز إلى شيخه ثعلب، وهي رسالة تضم إلى قيمتها الفنية قيمة تاريخية وأدبية، لدالتها على نوع العلاقة التي ربطت ابن المعتز بشيخه ثعلب، ولتضمنها أرجوزة مطولة لأبي النجم نقلها ابن المعتز نفسه من خط أبي عبيدة. (118) أما الخطب، فقد اختارها صاعد من عصور الخطابة الأولى. (119) ورغم هذا الميل إلى تنويع مختارات الفصوص، باختيار بعض الرسائل والخطب، لم يستطع صاعد أن يجعل للفصوص المبنية على ما اختاره من الخطب والرسائل، نفس الدلالة النقدية التي نجدها في الفصوص التي بنيت على المختارات الشعرية، فما أورده منها كان قليلاً، بالقياس إلى فصوص الأشعار التي استغرقت قسماً جديداً كبيراً من الكتاب.

(ل) فصوص تفسير الأشعار وشرح أبيات المعاني :

رغم كثرة الفصوص التي بناها صاعد على الشعر، لم يشرح كل الأشعار التي وردت فيها، ويرجع ذلك إلى أنه كان يميز بين ما يختار من الشعر لجودته وحسنه، وبين ما يختار ليفسر ويفك معناه، وبين ما يختار لهذا وذلك. وقد صرح صاعد أمام ممتحنيه من علماء المنصور، بأن صناعته حفظ الأشعار وفك المعنى،

(117) الفصوص ص: 59 ب.

(118) الفصوص ص: 97 أ إلى 98 ب، وانظر أيضاً رسالة ابن وهب إلى أبي تمام ص: 132 أ.

(119) انظر مثلاً الخطبة التي تضمنها الفص 526، الفصوص ص: 133 أ.

واعترف له خصومه من الأندلسيين بأنه كان بارعا في شرح الشعر. إلا أنه لم يكن يفرض على القارئ شروحه، رغم البراعة التي وصف بها. فبينما نجد بعض شروحه، تتناول القصائد المطولة بيتا بيتا، نجده في بعض الفصوص يكتفي بالشرح المقتضب القليل الذي تتطلبه الأبيات. (120) وقد يقتصر الشرح على بيت واحد (121) من مجموع أبيات المقطوعة أو القصيدة. ونفسر هذا الجمع بين شرح القصائد المطولة والأبيات الفاردة في الفصوص، بأن الغاية من الشرح نفسها كانت تختلف من شعر إلى شعر، فبعض الأشعار والقصائد كانت تُشرح كلها لجودة معانيها، كالأرجوزة النونية الفريدة، (122) التي يشرحها صاعد نفسه دون أن يعتمد على شارح آخر؛ بينما كانت بعض الأبيات تشرح لمادة معجمية تتضمنها. (123) وإذا كان صاعد لا يفسر من الشعر إلا ما كان يحتاج إلى تفسير، فإننا نجد بعض شروحه غير كاملة. (124) وقد تكون القصيدة المختارة لقيمتها الفنية جلية، إلا بيتا واحدا منها، فيشرح هذا البيت دون سواه، رغم أن توسط الشرح العارض للقصيدة المختارة يبدو ناشزا. (125)

ولما كان بناء الفصوص على تفسير الشعر وشرح أبياته تصنيفا تفرضه طبيعة الشعر المختار، فإن مصدر الشرح نفسه لا يكون جوهريا، مادامت الغاية هي الشرح، لذا نجد صاعدا في بعض شروحه ينقل الشرح عن شيوخه، أو بالإسناد إلى كبار

(120) انظر الفصوص ص: 19.

(121) الفصوص ص: 33 أ. وانظر أيضا الفص 422، الفصوص ص: 124 ب.

(122) الفصوص ص: 116 ب.

(123) انظر شرح مادة حواريات في البيت الذي بني عليه الفص 75 الفصوص ص: 33 أ.

(124) انظر الفص 631، الفصوص ص: 140 ب.

(125) انظر الفص 465، الفصوص ص: 127 أ.

العلماء؛ بينما نجده في فصوص أخرى يتصدى للشرح معتمداً على علمه، دون أن ينقل عن غيره من الشيوخ والعلماء. ومن بين أهم فصوص تفسير الشعر وشرحه في الكتاب، الفص الذي شرح فيه صاعد قول مسكين الحنظلي، تجلية لما سألته عنه المنصور ابن أبي عامر: «وقال لي المنصور بن أبي عامر أطل الله بقاءه: كيف قال مسكين الحنظلي: (طويل)

- 1 — وَكَأَنَّ تَرَى فِينَا مِنْ ابْنِ سَبِيَّةٍ
إِذَا التَّقَتِ الْخَيْلَانِ يَطْعَنُهَا شَزْرًا
- 2 — فَمَا زَادَهَا فِينَا السَّبَاءُ مَذَلَّةً

وهي كانت قبل أن تُسبى كريمة، وإنما يزيدها ذلاً، إذا كانت ذليلة. وإنما حكم الكلام أن يقول: فَلَمْ يُعْطَهَا فِينَا السَّبَاءُ مَذَلَّةً، لقوله: «ولكن خلطناها بخير نساءنا»؟ قلت: يمكن أن يكون أقام «فما زادها» مقام «لم يعطها»، أو «لم يورثها»، فالعرب قد تقيم كلمة مقام كلمة، وقد حكى الفراء عن بعض العرب: بلدنا قلماً يُنْبِتُ الْكَرَّاثَ، أي لا تُنْبِتُ منه شيئاً، فأقام «قل» مقام النفي. فقال أيده الله: الذي أرى فيه أنه أراد أن السبي يُذِلُّ الكريم الذي لم يُذَلِّ، ويزيد الذليل ذلاً، فأراد أنا حين سبينا هذه الكريمة، خلطناها بخير نساءنا فلم تَذَلَّ إلا ذُلَّ السبي والتغلب عليها، ولم نَسْتَهِنْهَا بخدمة فيزيد ذل الامتهان في ذل الغلبة. فقلت: هذا أحسن، واغتنبطُ به وأثبتهُ. (126)

أما فصوص أبيات المعاني فتكشف عن منحى آخر في التفسير. فإذا كان تفسير صاعد للأشعار المختارة أو الواردة في الأخبار قد هدف إلى تجلية معانيها للقارئ والسامع، فإن شرحه

(126) الفصوص ص: 125 أ.

أبيات المعاني كان إظهارا للعلم والذكاء، والقدرة على فك معميات الشعر التي يعجز غيره عن فكها. وقد كشف صاعد عن هذه الرغبة في إظهار العلم، في تخصيصه قسما كبيرا من الكتاب لهذه الأبيات مجتمعة، رغم أن كثيرا منها شرح عرضا في فصوص أخرى متفرقة. وقد أخفى هذه الرغبة في إظهار علمه، متعللا بأن جمعه لهذه الأبيات في آخر الكتاب كان لتسهيل الوصول إليها. (127)

وبلغت فصوص أبيات المعاني التي جمعها صاعد في آخر الكتاب - دون عد ما تخلل الكتاب منها - أكثر من تسعين ومائة فص، تضمنت أبياتها معاني مختلفة، وأغراضا شعرية متعددة. ورغم تنوع معاني هذه الأبيات وأغراضها، كان الجامع بينها غموض المعنى، وخفاء الدلالة، لتضمن البيت لفظة غريبة، أو تركيبا نحويا، أو صرفيا، يضلل القارئ، ويمنعه من إدراك قصد الشاعر. ولتنوع هذه العوائق، كان صاعد يضطر إلى الخوض في القضايا اللغوية، والصرفية، والنحوية، معيدا صياغة البيت الصياغة المفترضة التي تقرب السامع، من المعنى الذي قصده الشاعر.

وقد يقع الغموض في نصف بيت، فيقتصر صاعد عليه. (128) أو تتعدد الأبيات الغامضة في نفس القصيدة، فيتتبعها صاعد باعتبارها أبياتا فاردة، (129) لا باعتبارها أبياتا من قصيدة واحدة. وإذا كانت غاية صاعد في شرح أبيات المعاني إظهار علمه رواية ودراية، فقد أثر أن يجمع في شرحه لهذه الأبيات بين ما سمعه من الشيوخ، وما نقله من العلماء، وبين ما كان اجتهدا منه وتفردا بالرأي.

(127) الفصوص ص: 133 أ - 133 ب.

(128) الفصوص ص: 136 أ.

(129) الفص 556 وما بعده، الفصوص ص: 136 أ.

(م) الفصوص اللغوية :

بنى صاعد فصوصا كثيرة من كتابه على شرح الغريب، وبعض الوحدات المعجمية التي تضمنتها بعض الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، والأخبار. وقد تقدم التعرض لبعض ما ورد في الفصوص القرآنية، وفصوص الأحاديث الشريفة، والأشعار، من شرح. أما الأخبار التي اختيرت لشرح غريبها، فقد كانت قوية الدلالة على غزارة محفوظه اللغوي، وسعة معارفه المعجمية؛ ومن أهم هذه الأخبار التي برهن بها صاعد على معرفته بالغريب، خبر الأعرابي وإبله الضائعة، وخبر النعمان ذي الأنف، اللذان كانا من أطول فصوص الكتاب. ولتبيين نموذج الغريب الذي كان صاعد يتصدى لشرحه، نجتزئ بعض الفقرات عن خبر الأعرابي وإبله: «قرأت على أبي سعيد بالرصافة ببغداد: حدثكم محمد بن دريد، قال: أخبرنا أبو حاتم السجستاني قال: أخبرنا الأصمعي، عن ابن الكلبي قال: أضل أعرابي من بني عُذْرَةَ يُكْنَى أبا الزهراء إبلًا له، فنغض في بغائهن، حتى انتهى إلى بيدا مُتِيَهَةٍ، وَمَهَامِه غَوَالَةٍ... فلم يلبث أن رأى شخصا مقبلا على نَجِيبٍ له أَرْحَبِيٍّ... فلما ساواه قال له: أيها الصارخ، ما أَضَلَّتْ؟ ... قال: أَضَلَّتْ بَكَرَاتٍ نِكْرَاتٍ، مَهْفَهَاتٍ، مُجْمِرَاتٍ، عِرْضَنَاتٍ، شِمِلَاتٍ، مُسِنَقَاتٍ، قَائِقَاتٍ، رَائِقَاتٍ، تَنَكِّيثُ بَهْنِ الْجَدْبِ، وَيَنْبِيعُ بَهْنِ الْخِصْبِ... أَتَتَّبِعُ بَهْنٌ مَطِيطَةً الشَّمْلِ، وَمَرَعَى الدَّرِينِ وَالنُّفْلِ، وَأَجْرُسُهُن غَارَةَ السَّرْحَانِ... يَهْبِطُن يَبِيسَ الْيَنْمَةِ، وَيَتَعَلَّقْنَ مَكْدُودَ الثَّغَمَةِ». (130) والواضح من كثرة الغريب في هذه القصة أنها وضعت لتكون متنا لغويا. وخصص صاعد بعض هذه الفصوص لشرح بعض التراكيب اللغوية المسكوكة، كقولهم «أنا ابن بُعْطُهَا»، (131) و«إنه لَمُرَيْث

(130) الفصوص ص: 168 - 68 ب.

(131) الفصوص ص: 89 ب.

العينين»، (132) و«صكة عمي»، (133) و«أعطني نفسا أو نفسين»، (134) وقولهم «خطيب مصقع، وشاعر مرقع، وحاد قراقر»، (135)

وبحث في بعض الفصوص غلبة البناء الصرفي الدلالي للمفردة على البناء النحوي في تثنية بعض الأعلام والأسماء: «قال صاعد: من الاسمين يغلب أحدهما على صاحبه لشهرته أو خفته... الزهدمان: وهما زهدم، وقيس من بني عوير بن رواحة... والأحوصان: الأحوص بن جعفر... وعمر بن الأحوص... والعمران: عمرو بن جابر... وبدر بن عمرو والحنترفان: الحنترف وأخوه سيف... والأقرعان: الأقرع بن حابس وأخوه مرثد...». (136)

وجمع صاعد في بعض الفصوص بين تعداد المترادفات التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد، وشرح بعض هذه الألفاظ، فذكر أسماء النخل، (137) وأسماء الروضة (138) وأسماء مكة، (139) وأسماء زمزم. (140)

وكان هذا الجمع بين المباحث التي تنطلق من اللفظة إلى معناها، أو من المسمى إلى الألفاظ الدالة عليه، من أخصب الفصوص اللغوية في كتابه.

132 (الفصوص ص: 135 أ - 135 ب.

133 (الفصوص ص: 137 ب.

134 (الفصوص ص: 155 أ.

135 (الفصوص ص: 157 أ.

136 (الفصوص ص: 6 ب.

137 (الفصوص ص: 110 أ.

138 (الفصوص ص: 17 أ - 17 ب.

139 (الفصوص ص: 102 ب.

140 (الفصوص ص: 152 أ.

ن) الفصوص الصرفية والنحوية :

لعل تشكيك علماء الأندلس في عمق معارف صاعد النحوية والصرفية، كان وراء عنايته بهذه المسائل في كتابه؛ ويبدو من خلال تتبع هذه الفصوص، أنه كان أميل إلى بحث المسائل الصرفية، منه إلى بحث المسائل النحوية.

ومن المسائل الصرفية التي تناولها صاعد: بعض ما ورد من الصحيح على فعل يفعل بالكسر، (141) وإبدال الفاء والثاء، (142) والفرق بين أفعل التفضيل وأفعل الوصف، (143) وتخفيف الهمزة، (144) وعلاقة الواو بالياء في «طاف يطوف ويطيف»، (145) وإدغام النون، (146) وفك الإدغام في قراءة «يرتدد»، (147) والفرق الدلالي بين يفعل ويفعل في قولهم: إذا عز أخوك فهن، (148) وجمع عبد، (149) وجمع فعلة، (150) والجمع المسموع، (151) والفرق بين دلالة المد والقصر في كلمتي الرضاء والزناء، (152) ومشكلة القصر والمد في مريطاك، (153) وعلاقة وزن معد بتمفعّل وتفعّل (154) في قولهم

141) الفصوص ص: 39أ.

142) الفصوص ص: 39ب.

143) الفصوص ص: 51ب.

144) الفصوص ص: 55ب.

145) الفصوص ص: 57ب.

146) الفصوص ص: 58ب.

147) الفصوص ص: 79أ.

148) الفصوص ص: 79أ.

149) الفصوص ص: 78أ.

150) الفصوص ص: 153أ.

151) الفصوص ص: 41ب.

152) الفصوص ص: 88أ - 66ب.

153) الفصوص ص: 88ب.

154) الفصوص ص: 89ب.

تَمَعَّدَ، ومفعل ومفعل، (155) والوقف على الجوار، (156) وجواز «حَانِي وَحَانَوِي»، (157) وتعداد ما ورد على مِفْعَل وفِعَال من الألفاظ، (158) وغير ذلك من المباحث الصرفية.

وقد اتخذ صاعد من بعض الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والأشعار، منطلقاً إلى عرض هذه القضايا الصرفية، مسهبا في بعضها، ومكتفيا بالإشارة المقتضبة في بعضها الآخر، كقوله في التفريق بين دلالة القصر والمد في نفس الكلمة: «وأنشدني بعض الفقهاء الكوفيين... قال صاعد: مد الرِّضَاء لأنه أراد معنى المفاعلة، وهي المراضاة، مثل المقاتلة والقتال، والمزانة والزَّناء، وأنشد ابن الأعرابي: يا حسنهما في الرضاء والغضب...» (159)

ويبدو لي أن هذا الرأي رأي طريف في تخريج الضرورة الشعرية، وحملها على اختلاف الدلالة في الرضى والرضاء.

أما المسائل النحوية، فقد بحث منها التقديم والتأخير، (160) وإعراب (بالعلياء) في بيت النابغة، (161) وعودة الضمير على غير آخر اسم مذكور، (162) وتخريج النحاة لخطأ أمير البصرة في قراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾... برفع ملائكته، (163) وتفصيل الجنس في قولهم (أدخلت الدار رجلا رجلا)، (164) ومخالفة المبرد

(155) الفصوص ص: 1106.

(156) الفصوص ص: 1107.

(157) الفصوص ص: 114.

(158) الفصوص ص: 158.

(159) الفصوص ص: 88.

(160) الفصوص ص: 58.

(161) الفصوص ص: 59.

(162) الفصوص ص: 107.

(163) الفصوص ص: 123.

(164) الفصوص ص: 123.

لسيبيويه في جواز وصف الفاعل دون نقله بالألف واللام، (165) وتنازع حركة النقل وحركة الإعراب في قول الأعرابية (أفي السَّوءَ أَنْتَنَّهُ)، (166) وبناء أي وإعرابها، (167) وإعراب «حطة»، (168) والابتداء بلام الجر (169) في قوله تعالى: لإيلاف قريش، ووجه الرفع والنصب في قول الشاعر: (هذا النهار.... زال زوالها)، (170) ومباحث أخرى. (171)

إلا أن هذه الفصوص الصرفية النحوية كلها تعد قليلة، إذا ما قيست بكثرة فصوص الأخبار والمختارات الشعرية، وفي هذا ما يؤكد أن صاعدا رغم وقوفه عند بعض المسائل الصرفية والنحوية، فضّل تحت تأثير نزعتة الأدبية - أن يجعل كتابه كتاب أشعار وأخبار، لا كتاب أبنية وإعراب.

ص) فصوص العروض والقوافي :

الإشارات العروضية في كتاب صاعد جد قليلة، بالقياس إلى المباحث النحوية والصرفية التي نبهنا إلى قلتها هي نفسها؛ إلا أن صاعدا استطاع بهذه الإشارات العروضية القليلة، أن يجعل كتابه جليل الفائدة. فقد نبه في أحد الفصوص إلى أنه روى القصيدة التائية التي أثبتها، منونة. (172) ونبه مرتين في فصين متباعدين، (173) وهو يتحدث عن نونية الشاعر الإسلامي النظار

(165) الفصوص ص: 142 ب.

(166) الفصوص ص: 138 ب.

(167) الفصوص ص: 142 ب.

(168) الفصوص ص: 153 ب.

(169) الفصوص ص: 155 أ.

(170) الفصوص ص: 134 ب.

(171) الفصوص ص: انظر مثلا الفصوص 158 أ.

(172) وقد أثبتها في الفص منونة، الفصوص ص: 155 أ.

(173) الفصوص ص: 116 ب - 50 ب.

الفقعي المطولة، إلى أن هذه الأرجوزة متفردة (174) دون باقي المنظومات العربية بوزنها وقافيتها؛ ويبدو أنه كان متأكداً من أن العرب لم تقل على هذا الوزن إلا هذه الأرجوزة المقصدة. وقد حاولت أن أعثر فيما نظمه الشعراء، حتى تاريخ إملاء الفصوص، على مثيل لهذه الأرجوزة فلم أفلح. ويظل أنفـس هذه الفصوص العروضية الفص الذي بناه صاعد على كتاب كامل، كان يعد حسب ما أعلم، من الكتب المفقودة، هذا الأثر النفيس هو كتاب القوافي للمازني، الذي ذكره ابن النديم، (175) والقفطي، (176) والسيوطي. (177) وتبدو أهمية هذا الكتاب النفيس الذي يصل إلى أيدينا اليوم من خلال كتاب الفصوص، بالإضافة إلى قيمته العلمية، في كون صاعد قد نقله من خط المبرد، الذي نقله من خط مؤلفه المازني؛ وفي هذا ما يجعلنا نطمئن إلى أن الكتاب قد وصل إلى صاعد محققاً، وإلى أن احتمال وقوع التحريف فيه سيكون مرتبطاً بالتحريف الذي وقع في نسخ كتاب الفصوص نفسه: «قال صاعد... باسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب القوافي وعللها... تم الكتاب. هذا ما نقلته من خط المبرد وكتبه من خط المازني». (178) هذه الإشارات القيمة رغم قلتها، جعلت فصوص العروض والقوافي في كتابه بالغة الأهمية.

ع) فصوص المعارف العربية الجاهلية :

تعد كثير من الأخبار والأقوال والأشعار التي وردت في كتاب الفصوص، صورة للثقافة العربية الجاهلية؛ فما نقله صاعد مثلاً

(174) الفصوص ص: 116 ب.

(175) الفهرست ص: 91.

(176) إنباه الرواة 1/ 282.

(177) بغية الوعاة 1/ 465.

(178) الفصوص من ص: 145 ب إلى ص: 1152 أ.

عن الإبل، والنخل، وأصنام العرب، يعد جزءاً من هذه الثقافة. إلا أن أهم شاهد على ما حصله صاعد من هذه الثقافة، كان الفص الذي بناه كله رغم طوله على ذكر أنساب العرب. وتجلت أهمية هذا الفص في تتبع اختلاف العلماء في بعض الأنساب، والمقابلة بين ما ورد عند النسابين العرب، وما ورد عند أهل الكتاب؛ كما تجلت في صياغة شجرة نسب واحد، تجمع بين المصدر العربي والمصدر الكتابي، وهي صياغة تسهل على الباحث ربط الأعلام بأصحابها وإن تعددت الأسماء، لنفس المسمى من آباء العرب. (179) ولم تقف فائدة هذا الفص عند ذكر أنساب العرب مقابلة، بل تجاوزت ذلك إلى تفسير أسماء بعض آباء العرب، وربطها بعدة حوادث قديمة مسترجعة من تاريخ الثقافة العربية القديم. وكانت خاتمة هذا الفص القيم تعريفاً بالبناء الصوري الذي نظم العلاقات الاجتماعية بين العرب عبر تاريخهم الطويل: «والعرب كلها يجمعها جذمان...» (180)

نخلص من هذا التعريف المقتضب بالبناء العلمي في كتاب الفصوص، إلى أن الكتاب كان صورة مكتملة لأدب المزوجة بين الفائدة والمتعة، الذي مكن العلماء وكبار الحكام في القرنين الثالث والرابع من أن يجعلوا ما كان مجالس درس مملّة، مجالس أنس ممتعة.

(6) مصادر الفصوص :

حدد صاعد في خطبة الكتاب طبيعة المصادر المتنوعة للمادة العلمية التي ضمنها كتابه. ولتسهيل تعرّف هذه المصادر، من حيث كونها منطلقاً منهجياً للتأليف، لا من حيث كونها وحدات

(179) انظر الفص بالجملة من الفصوص 94 ب إلى 197 أ.

(180) انظر الفص بالجملة من الفصوص 197 أ.

متفرقة قابلة للإحصاء، نقسم هذه المصادر إلى قسمين: المصادر الوسيطة، ثم المصادر الأصول.

(أ) المصادر الوسيطة :

وأقصد بها المصادر التي استطاع صاعد من خلالها أن يصل إلى المصادر الأصول؛ وكان الغالب على مثل هذه المصادر التي توصل بها العلماء إلى مادتهم العلمية أن تكون شفوية، لتقدم السماع على النقل؛ إلا أن صاعدا جعل من النقل من الصحف أو الوجدادات - خلافا لما كان شائعا - مصدرا قويا آخر، ينافس أسانيده السماعية. وكان صاعد يذكر القارئ بأنه ينقل من المخطوط، كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وهذا ما يلزمنا بدراسة النقل من الخطوط في كتابه، باعتباره مصدرا وسيطا، يماثل من حيث القوة الرواية الشفوية، فهو نفسه يقول: «ولم أضمن كتابي إلا ما نقلته من خط منسوب، أو تلقيته من في عالم...» (181) ولتقديم صاعد النقل من الخطوط في قولته السابقة على السماع من الشيوخ، نعرف بنقله المخطوطة، قبل التعريف بأسانيده المسموعة.

I - النقل من خطوط العلماء :

يندفع صاعد عن القيمة العلمية للنقل من الكتب المخطوطة الموثقة، من خلال تفريقه ضمنيا، بين ما ينقل من خط منسوب إلى عالم مشهور، وما ينقل من خطوط النساخ والوراقين. وإذا كان عدد العلماء والشيوخ الذين يُروى عنهم عددا قابلا للحصر زمانا ومكانا، فإن عدد المخطوطات التي يمكن أن ينقل منها من يجيز النقل من الصحف يكون غير محصور، لذا وجدنا صاعدا في

(181) الفصوص ص: 12.

أول كتابه يعرف بالمخطوطات التي سينقل عنها مادة كتابه؛ وأهم ما وصف به هذه المخطوطات، أنها نادرة عزيزة، وتعود ندرتها إلى أنها كانت مما استأثر به كبار العلماء لأنفسهم، أو خصوا بها كبار الحكام، فخطوها بأيديهم. ولندرة هذه المخطوطات ونفاستها، ظلت محفوظة في خزائن الخلفاء، حتى نهبت خزانة الخليفة العباسي المقتدر، فخرجت لتحفظ بعد ذلك مع مخطوطات نفيسة أخرى، في خزانة الوزير عبد العزيز بن يوسف الذي ولى صاعدا شؤون هذه الخزانة، بعد أن أعجب بعلمه. ويبدو أن هذا الوزير كان ينفق بسخاء ليقتني - مستعينا بصاعد - القاضي الكتب التي خطت بأيدي كبار العلماء، فإلى هذه الخزانة نقلت نفائس كتب خزانة القاضي أبي الحسن محمد بن صالح الهاشمي المعروف بابن أم شيبان المتوفى سنة 369هـ، كما يظهر من قول صاعد نفسه: «وجدت في الكتب التي نقلتها من خزانة القاضي أبي الحسن... رحمه الله، إلى خزانة الوزير كتابا بخط ابن المعتز كتبه إلى أبي العباس ثعلب... ثم وجدت بعد ذلك بخط ثعلب تفسير القصيدة فنقلته وأضفته إلى ما نقلته من خط ابن المعتز...» (182) فخزانة الوزير ابن يوسف كانت المصدر الخطي الأول لكل الكتب التي نقل منها صاعد بخطه ما يزيد على ثلاثة آلاف ورقة كما يذكر هو نفسه، محصلا بذلك معارف موثقة نادرة لم تكن ميسرة لغيره. (183) ولنفاضة ما نقله من الخطوط المنسوبة إلى هؤلاء العلماء الكبار، اعتبر صاعد فقدان كتبه - في الحادثة التي نشبت بين الوزير وصاحب بغداد - مصيبة أصابته. (184)

(182) الفصوص ص: 197 - 97 ب.

(183) الفصوص ص: 12 أ.

(184) الفصوص ص: 12 أ. «ورُزئت كُتبي في الحادثة...».

ورغم اعتماده في إملاء فصوصه وفي تدريسه على ما حفظه، مما نقله من هذه الخطوط، نجده ينبه في فصوص كثيرة إلى العالم صاحب الخط، وكأنه ينظر إلى هذا الخط وهو يملئ فصوصه.

ومن مشهوري علماء العربية الذين نقل صاعد من خطوطهم، أذكر الأقرع (185) وراق ابن طاهر، وأبا عمرو الشيباني، (186) والأصمعي، (187) وإسحاق الموصلي، (188) والمفضل بن سلمة، (189) والطوسي، (190) وابن السكيت، (191) وثعلبا، (192) واليزيدي، (193) وأبا موسى الحامض، (194) والبحتري، (195) والمدائني، (196) وابن المعتز، (197) والباهلي، (198) والفراء، (199) وسيبويه، (200) والأخفش، (201) والمبرد، (202) وأبا بكر بن الأنباري، (203) وابن

185) الفصوص ص: 317 وغيرها 72 أ.

186) الفصوص ص: 129 أ.

187) الفصوص ص: 130 أ.

188) الفصوص ص: 135 أ.

189) الفصوص ص: 40 ب.

190) الفصوص ص: 53 ب.

191) الفصوص ص: 154 أ.

192) الفصوص ص: 54 ب.

193) الفصوص ص: 63 ب.

194) الفصوص ص: 164 أ.

195) الفصوص ص: 66 ب.

196) الفصوص ص: 174 أ.

197) الفصوص ص: 77 ب.

198) الفصوص ص: 81 أ.

199) الفصوص ص: 51 ب.

200) الفصوص ص: 51 ب.

201) الفصوص ص: 51 ب.

202) الفصوص ص: 51 ب.

203) الفصوص ص: 51 ب.

دريد، (204) وقطربا، (205) والأثرم، (206) والسكري، (207) وأبا زيد الأنصاري. (208)

وعندما نقارن النقل من خطوط أمثال هؤلاء المشاهير، بأسانيد الرواية الشفوية، يتبين أن النقل من خط كخط سيبويه مثلاً بالنسبة لعالم في القرن الرابع، يصبح أقوى من الرواية الشفوية الممتدة عبر سلسلة سند طويلة من القرن الثاني إلى القرن الرابع؛ فصاعد عندما ينقل من خط سيبويه عياناً، يلغي الزمن الفاصل بينه وبين صاحب الكتاب، ليصبح واحداً من التلاميذ الذين تتلمذوا لسيبويه، فخط العالم كإملائه أو أقوى، لأن المخطوط ينقح ويراجع. وعندما ينقل صاعد مثلاً من خط المبرد كتاب القوافي للمازني، الذي نقله المبرد من خط المازني نفسه، تصبح سلسلة السند قصيرة نظرياً (المازني ← المبرد ← صاعد)، رغم أن صاعداً لم يدرك المبرد ولا أمثاله من العلماء. ولعل إحساسه بالقيمة العلمية لما نقله من خطوط هؤلاء العلماء الكبار، كان وراء تعبيره غير المقصود عن الحسرة التي ملأت قلبه بعد فقدانه هذه النقول. (209) وإذا كان قسم كبير من كتاب الفصوص، يعتبر صياغة متأخرة لما علق بالذاكرة من هذه النقول، فإن من الممكن أن نتصور الأثر العلمي الذي كان صاعد سيتركه بالأندلس، لو قدر له أن يحمل معه كتبه إلى الأندلس، كما فعل القالي.

(204) الفصوص ص: 51 ب.

(205) الفصوص ص: 51 ب.

(206) الفصوص ص: 89 ب.

(207) الفصوص ص: 186 أ.

(208) الفصوص 124 أ.

(209) انظر الفصوص ص: 51 ب.

II - الرواية الشفوية :

تتخذ أسانيد صاعد في الفصوص اتجاهين اثنين:

الأول: أفقي ينتقل السند معه في نفس العصر، عبر مجموعة من العلماء الذين عاصروه.

والثاني: عمودي ينتقل فيه الإسناد عبر التلاميذ الشيوخ، إلى أن يتصل بعلماء الحقبة الأولى. ورغم أن النوع الثاني كان هو الإسناد العلمي الذي يشهد للعالم بسعة العلم، فإن قصد صاعد إلى أن يجمع في كتابه بين أخبار معاصريه من الأدباء وأشعارهم وأخبار السابقين، فرض عليه أن يجعل سلسلة سنده تمتد في المكان لا الزمان امتداداً أفقياً. وقد تجمع بعض أسانيده بين الامتداد الأفقي والامتداد العمودي.

وأكثر رواياته عن شيخه السيرافي والفارسي، ثم عن الرماني وابن شاذان، وابن مهدي، وابن المرزبان، والقاضي التنوخي، والخالديين، وشرحبيل، وبعض من وصفهم بفصحاء العرب، أو بعض أصحابنا ممن لم يسمهم.

أما العلماء الذين يرد ذكر أسمائهم في أسانيده، فهم نفس العلماء الذين يسند إليهم معظم علماء القرن الرابع، مع بعض الغلبة لأسانيد ابن السراج، والزجاج، وابن دريد، والمبرد، وثعلب، والأخفش، والزبير بن بكار، والسكن بن سعيد، والأصمعي، وابن الكلبي، والمدائني. ويغلب على هذه الأسانيد نفسها أسانيد شيخه أبي سعيد وأبي علي المشهورة. ونجتزئ من بعض الفصوص قوله يروي عن شيخه أبي علي الفارسي: «وحدثنا أبو علي قال: أخبرنا أبو إسحاق الزجاج قال: أخبرنا المبرد، عن المازني قال: حدثني الأخفش قال: كان أمير البصرة...» (210).

(210) الفصوص ص: 123 ب.

وقد ورد نفس الخبر في أمالي الزجاجي (211) بنفس السند، أي برواية الزجاجي، عن الزجاج، عن المبرد، عن المازني، عن الأخفش. وقد يميل صاعد في بعض الفصوص إلى اختصار السند، برفع الخبر، أو بعبارة «روي» تساهلا؛ ولم يكن التساهل في الإسناد غريبا عن علماء القرن الرابع. ولعل صاعدا، في دخيلته، كان أميل إلى توثيقه الخبر بنسبة الخط إلى صاحبه، منه إلى توثيقه بالإسناد الطويل، لكن بيئة الأندلس العلمية فرضت عليه أن يلتزم هذه الأسانيد المطولة في كثير من فصوصه توثيقا لما يورده من شعر وأخبار.

والملاحظ أن أسانيد بعض الفصوص تبدو مضطربة، إلا أن هذا الاضطراب في كثير منها ظاهري؛ ففي الفص (992) مثلا يستهل الإسناد كما يلي: «قال لي المفضل الضبي...»، (212) والعبارة توهم أن المتكلم هو صاعد، والاضطراب يبدو في روايته عن المفضل الضبي، إلا أن ربط هذا الفص بالفص (480) قبله، الذي ينقل فيه صاعد من خط أبي زيد الأنصاري، (213) يكشف عن كون المتحدث في الفص (492) أبا زيد الأنصاري لا صاعدا. وفي الفص (424) نجد: «أنشدنا ثعلب لبعض بني مرة...» (214) وهي عبارة توهم أيضا أن صاعدا يروي عن ثعلب؛ ويظل هذا الاضطراب قائما إذا ما حاولنا ربط هذا الفص بالفصوص السابقة، فالفص السابق له منفصل عنه انفصالا تاما إسنادا وموضوعا، لكن الانتقال إلى الفص اللاحق يضعنا أمام قول صاعد: «وأنشدنا أبو سعيد قال: أنشدنا ابن مقسم قال: «أنشدنا ثعلب، ولم يذكر

(211) أمالي الزجاجي ص: 296.

(212) الفصوص ص: 129 أ.

(213) الفصوص ص: 128 ب.

(214) الفصوص ص: 124 ب.

قائله...» (215) وورود عبارة أنشدنا ثعلب التي وردت في الفص السابق تجعلنا نفترض لرفع الاضطراب، أن خلا قد حدث في ترتيب هذين الفصين، مما جعل واو العطف في إسناد الفص (425) تنتقل إلى أول الفص (426)، بينما الصحيح افتراض ورودها في الفص (425)، لا في الفص الذي وضع بعده خطأ. ونعترف رغم هذا التخريج بأن الإسناد في بعض هذه الفصوص يظل مضطربا غير قابل لأن يربط بما قبله وما بعده من الفصوص والأسانيد، لانفصاله عنها انفصالا كاملا، ومن ذلك الفص (749) الذي يُستهل بقول المتحدث: «أنشدني يونس وابن الأعرابي جميعا لبعض العرب...» (216) والعبارة توهم أن صاعدا يروي عن يونس وابن الأعرابي، ولا يمكن دفع هذا الوهم إلا بحذف ضمير المتكلم من «أنشدني» لتصبح العبارة: «أنشد يونس وابن الأعرابي جميعا» — ولها نظائر في الفصوص — أو بافتراض عبارة سند ساقطة تصل بين صاعد ويونس وابن الأعرابي. وقد أثرنا حفاظا على أصل الفص وترتيبه ألا نتصرف في مثل هذه الفصوص المضطربة إسنادا، مكتفين بالتنبيه إلى اضطرابه أحيانا.

(ب) المصادر الأصول :

ونقصد بها المادة العلمية التي بنيت عليها جل فصوص الكتاب؛ ويمكن أن نقسم هذه المصادر إلى:

I - القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

II - مصادر أدبية مسموعة.

III - مصادر أدبية مخطوطة.

ونكتفي بالحديث عن القسم الثاني والثالث.

(215) الفصوص ص: 124 ب.

(216) الفصوص ص: 155 ب.

أما المصادر المسموعة فهي كل المرويات التي كان صاعد يرويها عن شيوخه وأصحابه، مسندة أو مرفوعة إلى أصحابها، أو إلى من رواها من العلماء. وتندرج جل المرويات الشعرية القديمة والأخبار التي نقلها، تحت هذا النوع المسموع؛ ويلحق بها كل ما سمعه أو رواه من أشعار معاصريه من الشعراء والأدباء، وأخبارهم؛ وتعد مرويات الأصمعي، وابن الكلبي، والمدائني، والسكن بن سعيد، نموذجا لهذه المصادر.

أما المصادر المخطوطة فيبدو اهتمام صاعد بها في فصوصه كبيرا - كما تبين - وهو اهتمام مرتبط بعنايته بخطوط العلماء المنسوبة، وإكثاره النقل منها. وقد أدت هذه العناية بالكتب المخطوطة، إلى جعل الفصوص خزانة حفظت فيها كتب أو أجزاء من كتب غير قليلة، بعضها يعد مفقودا. ومن الكتب المخطوطة التي نقل منها صاعد: شعر مُرَادٍ وَجُعْفِيٍّ (217) بخط أبي موسى الحامض، وأشعار بني ضبة بخط عمرو بن أبي عمرو الشيباني برواية «أبي عمرو وابنه وتأليفه»، (218) وأقصائد العشر الدبيقية بخط الأقرع، (219) ومختارات من كتاب الأنساب بخط أبي ربيعة، (220) وقسم من نوادر أبي زيد بخطه، (221) واللِّبُّ واللَّبْنُ له بخطه (222) أيضا، وأشعار مزينة كذلك وبخطه (223) وكتاب القوافي للمازني بخط المبرد نقلا من خط المؤلف؛ (224) فضلا عما لم

(217) الفصوص ص: 9 ب.

(218) الفصوص ص: 16 أ.

(219) الفصوص ص: 82 ب.

(220) الفصوص ص: 94 ب.

(221) الفصوص ص: 124 أ.

(222) الفصوص ص: 126 ب.

(223) الفصوص ص: 128 ب.

(224) الفصوص ص: 145 ب.

يذكره من مصنفات العلماء الذين ذكر صاعد أنه نقل من خطوطهم، في خطبة الكتاب وغيرها من الفصوص.

وقد كشف لنا التحقيق عن عدة مصادر أخرى أفاد منها صاعد، مخطوطة أو مروية، دون ذكر أسمائها، أو مكتفيا بالإشارة المقتضبة إليها. ولعل من أهم هذه المصادر، كتب التفسير، ومعاني القرآن بصفة خاصة، وكتاب الخيل لأبي عبيدة، وكتاب النخلة للسجستاني، وحماسة أبي تمام، والغريب المصنف لأبي عبيد، وكتاب الوحوش للنضر بن شميل. ولم يكن سكوته عن ذكر بعض هذه الكتب تعمية أو تقصيرا، فقد كان في تعريفه بالمصادر التي رواها ونقل من خطوطها معرفا بأهم مصادر كتابه. (225)

ثالثا : الشخصية العلمية لصاعد من خلال الفصوص :

قد تبين من خلال تتبع المعارف التي أمتع بها صاعد المنصور، وأفاد بها تلامذته الأندلسيين، أن هذه المعارف كانت تمتح من مشارب متعددة متنوعة بين الجد والهزل، والصرامة والتساهل، لتكون شاهدا على غزارة العلوم التي حصلها المؤلف بالمشرق، ومعبرة عن الطبع المرح الذي كان صاعد يصدر عنه، وهو يملي كتابه. وإذا كانت شخصية صاعد العلمية نتاجا لعدة عناصر ثقافية ونفسية، تكاملت لترسم صورة صاعد العالم، فسنحاول أن نتعرف بعض أوجه هذه الشخصية، معتمدين على كتاب الفصوص نفسه، لا على ما حكى عنه في المصادر، لأن هذا الكتاب كان صياغة لغوية لحياة صاعد بأبعادها الإنسانية والثقافية.

(225) انظر تفصيل ذلك في الفصوص ص: 12.

1) العالم المفسر :

تدل الآيات الكريمة التي بنى عليها صاعد بعض فصوص كتابه، على معرفة بعلم التفسير؛ إلا أن اهتمامه بالمسائل النحوية والصرفية في هذه الآيات، وتجنبه الخوض في القضايا العقدية، يفيد أنه كان يتحرج من أن يكون علمه باللغة، سببا في ادعاء معرفة مراد الله، وقد أبدى هذا التحرج في قوله: «قول الله تعالى ذكره: وجعلنا بينهم موبقا، الله أعلم بمراده. إلا أن أبا عبيدة قال: موبقا أي موعدا... وقال مجاهد... وقال الضحاك... وقال الفراء... وقال صاعد: كان الأصمعي لا يفسر القرآن على علمه باللغة تحرجا، لأن مراد الله تعالى لا يعرفه أحد، إلا من عرفه الله وبينه له. ولو جاز الكلام فيه على مقتضى اللغة لقلنا: موبقا: أي بعدا». (226)

ويبدو أن صاعدا لم يكن يميل إلى التفرد بالرأي عند تفسير القرآن - خلافا لما نجده في تفسيره للأشعار - إذا كان رأيه مخالفا لما ذهب إليه القراء. ويظهر ذلك واضحا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ الآية: «النصب في «الميتة» وما عطف عليها، من القراءة الجيدة، لأنه مفعول به. ودخلت «ما» تمنع «إن» من العمل، ولأن يليها الفعل. ويجوز: «إنما حرم عليكم الميتة» بالرفع، على أن «ما» بمعنى الذي، فيكون معناه أن الذي حرم عليكم الميتة. والمختار أن تكون «ما» تمنع من العمل، ويكون المعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، لأن «إنما» تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه... والاختيار ما عليه جماعة القراء، لاتباع السنة، وصحته في المعنى، ولأن الإجماع لا يقع إلا على

(226) الفصوص ص: 152 ب.

الصحيح، لقول النبي ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلال». (227) كما يقدم صاعد رأي القراء، يأخذ برأي الفقهاء؛ (228) لكن هذا التقدير لرأي المفسر المقرئ والفقهاء، يختلفي عندما يكون التفسير لعالم لغوي يراه صاعد مخطئاً، كما يتضح من قوله في تفسير نفس الآية: «وقوله تعالى: «والدم»، فالدم اسم ناقص مثل يد أصلهما يدي ودمي... ووهم بعض من لا أحب ذكره من أهل اللغة، فذكر أن الدم من أسماء الخمر، فقليل له: ما الشاهد عليه؟ فما وجدناه في شيء من كتب اللغة؟ فقال: قول الشاعر: (طويل)

خَلَطْنَا دَمًا مِنْ كَرَمَةٍ بِيَدَيْنَا فَأَظْهَرَ فِي الْأَلْوَانِ مِثْلَ الدَّمِ

فسمى الخمر دما. هذا غلط من القول، لأنه لم يسمه دما في آخر البيت مطلقاً، إلا على ما أراد به في صدر البيت، وشبه ما يخرج من العنب في لونه وخروجه عند الأعشار بالدم على التمثيل. وما جرى على التمثيل لم يكن اسماً لازماً كقولك: هذا العنب عسل... فأرّم عند ذلك مطرقاً، ولم يُفَضِّ ببنت شفة». (229)

وإذ كان الغالب على صاعد، في تفسيره - كما ذكرت - الميل إلى تناول المسائل النحوية والصرفية في الآيات، دون الخوض في العقائد والأحكام، فإن الاستشهاد ببعض القراءات الشاذة كان يتكرر في كتابه. والراجح أن استشهاده بمثل قراءة ابن مسعود، يعود إلى أنه كان يعتبر هذه القراءة متناً لغوياً صالحاً لبحث المسائل النحوية والصرفية، وإن لم يعد قرآناً يتعبد به. فالفصاحة لا تسقط عن قراءة ابن مسعود، رغم أنها لا تعتبر قرآناً معجزاً، لأن ابن مسعود عاش في عصر السليقة اللغوية، كباقي من يستشهد بكلامهم ولغتهم من العرب الفصحاء.

(227) الفصوص ص: 14 ب.

(228) انظر الفصوص ص: 58 ب حيث يفسر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الآية.

(229) الفصوص ص: 14 ب - 115 أ.

(2) العالم المحدث :

وصف الحافظ ابن حجر صاعدا بأنه كان من الرواة (230) للحديث. وقد ذكرت في حديثي عن البناء العلمي للفصوص أن صاعدا اختار بعض الأحاديث لشرح ألفاظها، أو تناول بعض ما تتضمنه من مسائل لغوية، واختار أحاديث أخرى لمضمونها ومعناها، دون شرحها. إلا أن ما يثير الانتباه عند تتبع الأحاديث النبوية الشريفة في كتابه، كون جل هذه الأحاديث يرد في الصحاح، وكون الإسناد في معظمها مرفوعا. وهذا الأسلوب في اختيار الأحاديث يبدو مخالفا لمنهج علماء الحديث، والعلماء المتشددون المتأثرين بهم في إثبات الأحاديث النبوية. فهل يمكن أن نرجع ذلك إلى ضعف صاعد في علوم الحديث؟ إن ابن حجر قد وصفه كما ذكرت بأنه كان من رواة الحديث النبوي؛ وصدور هذا الوصف عن حافظ كابن حجر، يجيز لنا أن نرفع صاعدا إلى درجة المحدثين. لكن هذا الحكم، وإن صح بالنسبة لصاعد المحدث، يظل منافيا للمنهج الذي سلكه في اختيار الأحاديث وإثباتها في الفصوص. وفي هذا التعارض بين ما قاله ابن حجر وما ورد في الفصوص، ما يلزمنا بتأمل قوله ابن حجر نفسها. إن ابن حجر الذي جعله من الرواة للحديث، نبه أيضا إلى أنه من الملفقين؛ والتلفيق إيهام بالصحة. وفي القدرة على التلفيق بعض العلم، فالإيهام بصحة حديث ما لا يتم إلا إذا كان الملفق ملما بالشروط التي تجعل الحديث صحيحا، وإن افتقر الملفق إلى الحفظ. وقد كشف ابن حجر عن تلفيق صاعد، من خلال نقده لمتن الخبر الذي قص فيه صاعد قصة الطفيلي وجاره، وكان موضوع النقد الحديث الذي استشهد به الجار على فسق كل من يأتي المآدب دون أن يدعى

(230) لسان الميزان 3/ 160 - 161.

إليها. (231) وقد تجلّى تجريحه لصاعد، في قوله متهما إياه بالتلفيق: «... ومن عجائب صاعد التي يستدل بها على مجازفاته، أنه قال في هذا الكتاب: حدثنا أبو علي التنوخي... فلما تمكن الناس ورفع عليهم الطعام، قلت رافعا صوتي: حدثنا فلان، عن فلان، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من حضر طعاما لم يدع إليه مشى فاسقا، وأكل حراما... والحكاية المذكورة معروفة لنصر بن علي الجهضمي، ذكر هذا الخطيب وغيره بالسند الصحيح إليه، والحديث عنده: درست عن ابن زياد، عن أبان بن طارق. ثم قال: ما استحيى صاعد أن ينسب الكلام المروي عن علي بن الجعد في حق ابن عمر إلى الطفيلي. ومن تدبر الحكاية عرف أنها ملفقة...»، (232) وتجريح ابن حجر لصاعد، لا ينفي عنه صفة العلم بالحديث. فالحجة التي احتج بها صاعد على لسان الطفيلي، لا تصدر إلا عن متمكن من علوم الحديث، وعلم السند بصفة خاصة. لذا وجدنا ابن حجر يجمع في ميزانه بين وصف صاعد بكونه من الرواة للحديث، واتهامه بالتلفيق؛ وهذه النتيجة تجعلنا نستبعد أن يكون خلو الصحاح من معظم الأحاديث التي أثبتها صاعد في الفصوص، وخلو أسانيدھا من العنعنة، شاهدا على ضعفه في علوم الحديث. فالمنهج الذي سلكه صاعد في اختيار الأحاديث وإسنادھا، يدل على أنه لم يكن متشددا في رواية الحديث النبوي، ولم يكن هذا التساهل غريبا عن بعض العلماء والمحدثين في القرن الرابع. فالعالم المحدث أبو بكر القطيعي شيخ صاعد في الحديث، الذي روى عنه الدارقطني وابن شاهين، ووصفه ابن الجوزي بأنه كان كثير الحديث ثقة، (233) اتهم

(231) الفصوص ص: 152.

(232) لسان الميزان 160/3 - 163.

(233) المنتظم 92/7.

بالتساهل: «... قال المصنف رحمه الله: لما غرقت القطيعة بالماء الأسود، غرق بعض كتبه، فاستحدث عوضها. فتكلم فيه بعضهم وقال: كتب من كتاب ليس فيه سماعه؛ ومثل هذا لا يطعن به عليه، لأنه لا يجوز أن تكون تلك الكتب قد قرئت عليه وعورض بها أصله. وقد روى عنه الأئمة كالدارقطني، وابن شاهين... ولم يمتنع أحد من الرواية عنه، ولا ترك الاحتجاج به. أخبرنا القزاز، أخبرنا الخطيب قال: لما اجتمعت بأبي عبد الله الحاكم، ذكرت ابن مالك وليَّته، فأنكر علي وقال: ذلك شيخي، وحسن حاله...» (234) وشيخ صاعد الثاني أبو بكر بن شاذان كان ممن حدث بالمسانيد، «وما كان يحدث بها من قبل ذلك» (235) وشيخ صاعد الثالث الفقيه الحنبلي المحدث ابن بطة العكبري الذي وصف بالورع والصلاح، وعرف بمؤلفاته القيمة في الحديث والفقه كان ممن جرحهم الخطيب البغدادي: «... قال المصنف: وقد تعصب له الخطيب بعد أن نقل عن مشايخه الأكابر مدحه، فغمره بأشياء منها أنه قال: كتب إلي أبو زر عبد الرحمن بن أحمد الهروي من مكة، يذكر أنه سمع نصرا الأندلسي يقول: خرجنا إلى عكبرا، فكتبت عن ابن بطة كتاب السنن لرجاء بن مرجئ، عن حفص بن عمر الأربيلي، عن رجاء؛ فأخبرت الدارقطني فقال: هذا محال، دخل رجاء بغداد سنة أربعين، ودخل حفص سنة خمسين ومائتين، فكيف سمع منه؟ قال الخطيب: وحدثني عبد الواحد الأسدي، أنه لما أنكر الدارقطني هذا، تتبع ابن بطة النسخ التي كتبت عنه، وغير الرواية، وجعلها عن أبي الراجيان، عن فتح بن شخرف، عن رجاء...» (236) فإذا كان هذا شأن من تفرغ للتحديث، فكيف بصاعد الذي تفرغ لرواية

(234) المنتظم 93/7.

(235) المنتظم 134/7.

(236) المنتظم 194/7.

الشعر واللغة؟ ولعل التفسير المقبول لتجنب صاعد إثبات الأحاديث المروية في الصحاح والأسانيد المتصلة، أنه كان يروي من حفظه أمام علماء أندلسيين عرفوا بالتشدد. والتساهل في أحاديث وأسانيد لم ترد في الصحاح، أهون من التساهل أو الخطأ في رواية ما صححه البخاري أو مسلم مثلاً، مادامت الغاية من إيراد هذه الأحاديث في الفصوص هي الاستفادة من لغاتها أو معانيها، لا استنباط الأحكام الشرعية منها.

ولهذا التحرج من التساهل والخطأ في ما صح من حديث الرسول ﷺ، أثر صاعد أن يحدث بأحاديث ورد جلها في غير الصحاح من كتب الحديث.

وفي إشارة ابن حجر إلى أن صاعداً كان يتساهل (237) ويروي من حفظه، ما يقوي التفسير الذي ذهبنا إليه؛ لكن هذا التساهل لا يُحْمَلُ على الكذب، فابن حجر كان صريحاً عندما قال عنه: هو من الرواة للحديث النبوي، وإنما كان يُتهم في اللغة.. (238)

(3) العالم الشارح :

يشارك كثير من العلماء في معرفة الغريب، والقدرة على شرح المفردات المعجمية، لكنهم يتفاوتون في القدرة على الكشف عن معاني الشعر المركبة، وفك المعنى من أبيات المعاني. ويبدو من خلال القصائد والمقطعات والأبيات التي شرحها صاعد أنه كان خبيراً بمعرفة معاني الأشعار، ومقاصد الشعراء؛ والقسم الكبير الذي خصصه في آخر الكتاب لشرح أبيات المعاني يؤكد هذه الخبرة.

وإذا كان صاعد يستفيد كباقي الشراح من شروح سابقه، فإن القيمة العلمية لهذه الشروح لم تكن تمنعه من أن يأتي بشروحه

(237) لسان الميزان 3/ 163.

(238) لسان الميزان 3/ 160 - 161.

الخاصة، وإن خالفت شروح المتقدمين، إذا ما اطمأن إلى سلامة شرحه. ويظهر هذا مثلاً في شرحه لقول الشاعر: (طويل)

إِذَا ظَلَعَ الْحَيُّ الْجَمِيعُ اجْتَنَبَتْهُمْ مَكَانَ النَّدِيمِ لِلنَّجِيِّ الْمُسَاعِفِ

«يقول: إذا ظعنوا اجتنبتهم مخافة أن يُفطن بي، على أن اجتنابي إنما هو انحراف كقدر ما بين النديم ونديمه المساعف للمناجاة... وقال أبو عمرو في قوله اجتنبتهم: أي صرت بجنبهم، كما تقول: خاصرت الرجل: أي مآشيته وخصره إلى خصري». (239)

وقد كثرت في كتابه الفصوص التي بنيت أصلاً على شروح اجتهد فيها؛ وكان هذا الاجتهاد في الشرح مما رفع مكانته عند علماء الأندلس، وعند المنصور بن أبي عامر؛ إلا أنه مع اجتهداه في شرح الشعر، لم يكن يعث بالرواية، فالرواية عنده أسبق، وإن كان الشرح الذي خالفها سليماً. ومن الفصوص التي برهن بها صاعد على أن إخلال الرواية ظاهراً، بالمعنى المفهوم، لا يعفي الشارح من البحث عن المعنى المناسب لرواية البيت، الفص 432 الذي نبّه فيه إلى صحة الرواية، بتنبيهه إلى صحة المعنى الخفي في شعر لمسكين الحنظلي سأله المنصور عن وجهه. (240) لكن تقديمه رواية الشعر على الشرح المقبول، - إذا خالفت الرواية الشرح - لم يكن ينسيه التنويه بالشرح الحسن، وإن لم يقدم على الرواية؛ ففي فصله في الخلاف الذي نشأ بين أبي علي الفارسي وتلميذه ابن حمود الزبيدي الأندلسي، لم يخف صاعد إعجابه بما ذهب إليه الزبيدي في شرح بعض الأشرطة، رغم مخالفته للرواية الصحيحة التي رواها أبو علي الفارسي: «... فَأَنفَ الشَّيْخُ مِنْ اعْتِرَاضِهِ عَلَيْهِ فِي إِِنْشَادِهِ وَنَكَّرَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا

(239) الفصوص ص: 141 ب.

(240) الفصوص ص: 125 أ.

العلاء، كيف تحفظ هذا؟ قلت: ما حفظته إلا كما أنشد الشيخ... فقال: الحمد لله ما كَذَبْنَا ولا كُذِّبْنَا، وهكذا سمعته من فَلْقٍ في ابن دُرَيْدٍ قال صاعد: وهو صادق في ذلك، لم يَرَوْ أَحَدٌ إلا «ابن يزيد». غير أن كلام أبي محمد حَسَنٌ صحيحُ المعنى، لو أَسْعَدَتْهُ الروايةُ. (241)

ولهذا الربط بين رواية الشعر وشرحه، كان صاعد يسلك في شروحه منهاجا يتجلى في البدء بذكر روايات الشعر قبل البدء في الشرح: «... فقلت: نبتدئ بما في البيت من اختلاف الرواية، ثم نرجع إلى تفسيره ومعناه. روى ابن الأعرابي...» (242) وكان هذا الحصر لروايات الشعر الذي ينوي شرحه، أسلوبا يجنبه الدفاع غير المجدي عن شروحه في بيئة أندلسية، كان علماؤها يبالغون في التمسك بالرواية؛ فشرح الشعر لديهم لم يكن يقبل، إذا كان الشارح مفتقرا إلى الرواية التي تسعفه. وقد سجل لنا صاعد نفسه هذا التشدد، في فص ذكر فيه خبر دفاعه عن تفسيره لأحد أبيات الشماخ، معتمدا على إيراد الرواية التي تقوي تفسيره: «قال الأخفش: الحمامة: المرأة، وأنشد قول الشماخ: (بسيط)

تدني الحمامة منها وهي لاهية من يانع الكرم قنوان العناقيد
يعني أنها تنظر في المرأة، فتري ما تدلى من شعرها على خدها، وشبه ما تدلى بعناقيد الكرم... فحضر من لم يعرف هذا المعنى فأنكره وقال: لم يقل هذا أحد، وإنما هو: (بسيط)

تدني الحمامة منها وهي لاهية من يانع المرد قنوان العناقيد
وقبل هذا البيت: (بسيط)

(241) الفصوص ص: 171.

(242) الفصوص ص: 42 - 42 ب.

دَارُ الْفَتَاةِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لَهَا يَا ظَبْيَةَ عَطْلًا حَسَّانَةَ الْجِيدِ ...
تدني الحمامة منها، يعني أن الظبية تأتي إلى ساق شجرة
فَتَعْطُو بِظَلْفَيْهَا، فتقع الحمامة على الشجرة، فتدني الغصن منها.
ومعنى تدني الحمامة: تحرك الحمامة قنوان العناقيد، فتناوله الظبية
بظلفيها. قلت: لم أنكر ذلك، وهذا معنى آخر، ورواية أخرى؛ من
ذهب إلى هذا المعنى روى: تدني الحمامة، بالضم، لأنها تدني إلى
الظبية قنوان العناقيد، ويروى: من يانع الشرذ... ومن ذهب إلى
معنى الشعر، روى: تدني الحمامة منها وهي لاهية...
ترك الظبية وصفتها، ورجع إلى قوله (دارُ الفتاة التي كنا نقول
لها...).

وتنظر في المرأة فتري ما تدلى من شعرها؛ وليس بين البيتين
إلا بيت واحد، ولو طال الكلام وكثرت الأبيات لجاز أن يُرجع إلى
الصفة المتقدمة فيه وهي من قرب... فوقف كلامي موقف الريبة،
إلى أن ظفرت بكتاب تضمن هذه الرواية وهذا المعنى، وأريته
الموضع، وهو كتاب مجالس ثعلب، عن ابن الأعرابي، فأذعن
له. (243).

لقد كان صاعد يدرك أن التميز عن الشراح القدامى بشروح لم
تسمع، يعتبر تطاولا على هؤلاء الشراح، في زمن كان العلماء فيه
يبرهنون على صحة شروحهم بنسبتها إلى من تقدم من كبار
العلماء، لكنه كان يصر رغم ذلك - عندما يكون الشرح له - على
تنبيه قارئ الفصوص إلى أن هذا الشرح له وليس لغيره، حتى
عندما يكون الشارح المبعد عالما كالأصمعي: «وهذه قصيدة
النظار الفقعسي التي نقلتها عن يد الأصمعي، ووعدتك بها في
وسط الديوان وشرحها. قال: أنشدني عيسى بن عمر للنظار بن
هاشم الفقعسي، وليس للعرب على وزنها وقافيتها قصيدة... لم

(243) الفصوص ص: 156 ب.

أجد بخطه من تفسيره إلا شيئاً يسيراً، أذكره إذا شرحته إن شاء الله... وقوله (لِعُجْمِ أَمْثَالِ الْكَلَى) فلم ينون للوزن، هذا قول الأصمعي. وقال صاعد: ولو قال: «لِعُجْمِ أَمْثَالِ الْكَلَى» فبين التنوين، وأدرج الألف، فتكون صورته في اللفظ «لِعُجْمَتَمْ» لكان صواباً خارجاً من حد الضرورة».(244) إن نسبة هذا الشرح إلى أمثال الأصمعي من العلماء، قد يكون مما يضمن له النفاق والسيرورة في بيئة علمية متشددة كالأندلس، تجل شيوخ العلم من المتقدمين، لكن ثقة صاعد بعلمه ودراسته وقدرته على فك المعنى، جعلته يفضل التمييز بين شرحه، وشرح الأصمعي في هذا الفصل. وفي هذا ما يؤكد أنه كان يثق في قدرته، وإن تأخر زمانه، على الإتيان بما لم تستطعه الأوائل. وقد نبه صاعد فعلاً في أحد الفصوص، إلى أنه يشرح البيت الذي سكت كل العلماء عن شرحه: «قوله»: (طويل)

وَبِتْنَا وَسَادَانَا إِلَى عَلْجَانَةٍ وَحَقِيفِ تَهَادَاهُ الرِّيحُ تَهَادِيَا
قال صاعد: لم أجد أحداً تكلم فيه، وهو من أغمض ما في القصيدة، لأن العُلْجَانَ شوك، فيكف تَوَسَّدَا شوكاً، حتى سألت أبا عمر النُّجْدِيَّ، بِرُبَالَةٍ، فأخذ بيدي...».(245) وليس هذا الفخر المتحدي بسبقه إلى شرح بيت سحيم إلا دليلاً على أنه كان يعلم من نفسه ما يجعله ندا لكبار الشراح.

(4) الصرفي النحوي :

لن ننتظر ممن تتلمذ لأبي سعيد السيرافي مناظر ابن متى في فضل النحو على المنطق، ولأبي علي الفارسي صاحب الإيضاح، والتكملة، والبغداديات، والشيرازيات، أن يكون ذا بضاعة مزجاة في

(244) الفصوص ص: 116 ب إلى 123 أ.

(245) الفصوص ص: 136 أ والبيت من يائيته المشهورة.

النحو والصرف. وقد تبين في مبحث سابق، (246) مدى تنوع المسائل التي بحثها في كتابه؛ ولم يكن صاعد يكتفي في هذه المباحث بترديد ما رواه عن شيوخه من آراء، فمثل هذا كان ميسرا لكل التلاميذ، لكنه تجاوز ذلك إلى الاجتهاد في بعض المسائل، مرجحا بعض الآراء، أو مخطئا بعض الافتراضات، أو مستغربا بعض الاستعمالات. وكثر هذا الاجتهاد بصفة ملحوظة في المباحث الصرفية، ففي الفصل (244) الذي بناه على تبين بناء «مُرَيْطَاكَ» في قول عمر رضي الله عنه لأبي محذورة: (كَدَّتْ أَنْ تَشُقَّ مُرَيْطَاكَ) قابل صاعد بين آراء أبي عبيدة، وخلف الأحمر، والأصمعي، في المسألة، ثم رجح رأي الأصمعي وأبي عبيدة، محتجا بأرائه هو. (247)

ولم يتخرج في فص آخر من تخطئة ثعلب، رغم إجلاله له، عندما بنى تفسيره لقولهم: «إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ» على جعل هُنَّ من فَعَلَ يفعل بضم عين المضارع: «وقال ثعلب في كتاب الفصيح: إذا عز أخوك فهن، معناه إذا تعظم أخوك شامخا عليك فالتزم له الهوان؛ وهذا خطأ من ثعلب، وإنما الكلام إذا عز أخوك فهن بكسر الهاء، معناه: إذا اشتد عليك فهن له... أي دَارِهِ، وهذا من مكارم الأخلاق». (248) وقد يميل إلى تخطئة الرأي، فيعوزه الدليل، فيعدل إلى استغرابه، كقوله في أحد الفصوص مستغربا رأي الكسائي: «وهذا غريب من حكاية الكسائي». (249)

ويبدو من خلال تتبع أسماء العلماء الذين يروي عنهم في فصوصه، أو يحتج بأرائهم أنه كان يميل إلى المدرسة البصرية:

(246) انظر المبحث الخاص بالفصوص النحوية والصرفية.

(247) الفصوص ص: 88 ب.

(248) الفصوص ص: 179 أ.

(249) الفصوص ص: 80 ب.

«... وكان ثعلب يحكي عن المفضل أنه كان يقول: إذا حركت السين،⁽²⁵⁰⁾ كان اسما لما لا يتبعض كقولك: جلست وسط الدار؛ وإذا سكنته كان لما يتبعض كقولك: جلست وسط القوم، لأنه يفترق الجمع؛ وليس هذا عندي بشيء. وعند ابن دريد وجمهور أهل اللغة غير النحويين أن وسطا ووسطا واحد، وليس عندي بجيد. وقول البصريين أولى». ⁽²⁵¹⁾ وليس هذا بمستغرب، فشيخاه أبو سعيد وأبو علي كانا من علماء المدرسة البصرية. إلا أن الفصوص الكثيرة التي احتج فيها بآراء الكسائي، والفراء، والمفضل الضبي، وأبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وابن السكيت، والمفضل بن سلمة، وثعلب، وأبي بكر بن الأنباري، وأبي بكر السجستاني، وابن مقسم، وأبي عمر الزاهد، أو نقل أقوالهم، أو أسند إليهم، تفيد أنه لم يكن يتعصب للبصريين على الكوفيين، بل إنه في بعض الفصوص يجعل من إثبات آراء علماء الكوفة وسيلة إلى رد ما يقول به علماء البصرة؛ وقد بدا هذا في إirاده قول ثعلب، في سياق نقله لبعض شروح العالم البصري الأصمعي. ⁽²⁵²⁾ وقد تخالف آراء الكوفيين ما قال به شيوخه مما يراه فصيحا، لكن ذلك لا يمنعه من أن يميز بين ما يستظرفه من آرائهم، وما يراه مقبولا. وفي تمييزه بين ما قال به ابن السكيت في وزن (محبرة)، وما قال به غيره من الكوفيين، ما يوضح ذلك. ⁽²⁵³⁾ والذي أرجحه أن صاعدا كان ككثير من البغداديين في القرن الرابع يجمع بين الاستفادة من آراء البصريين والكوفيين جميعا، وإن أظهر الميل إلى البصريين، بالإكثار من الرواية عنهم. فكثرة الروايات غير

⁽²⁵⁰⁾ في كلمة (وسط).

⁽²⁵¹⁾ الفصوص ص: 179.

⁽²⁵²⁾ الفصوص ص: 51 ب.

⁽²⁵³⁾ الفصوص ص: 156 ب.

المشهوره التي خالف بها المشهور من المرويات الشعرية، وما نقله من أشعار قديمة غير متداولة بين الرواة، تؤكد أنه كان يستفيد من مرويات الكوفيين الشعرية التي كان البصريون ينكرونها. ولعل التظاهر بالإكثار من النقل عن علماء البصرة، كان مجاملة منه لعلماء الأندلس الذين يجلون علماء البصرة إجلالهم لأبي علي القالي.

(5) الراوية الموثق :

قد تكون الأشعار والأخبار الكثيرة والمتنوعة التي أوردها في كتابه وحدها كافية للشهادة له بأنه كان راوية؛ إلا أن كثرة ما أورده من الأشعار القديمة غير المشهورة، تؤكد أنه كان يحفظ من دواوين القدماء وأشعارهم المتفرقة، ما رفعه إلى درجة الرواة الحفاظ. وقد مكّنه هذا المحفوظ الغزير المتنوع، من تجاوز النقل المدرسي للمرويات، إلى توثيق بعضها، ومقابلته بغيرها، والتنبيه إلى ندرتها أحيانا. ويمكن أن نلخص هذه الدراية بالمرويات في:

(أ) ترجيح الروايات :

ويعتمد في ترجيحه رواية على رواية، على منهجه العلمي العام في قبول الروايات والمفاضلة بينها، كتقديمه رواية الأعراب على رواية أهل الحاضرة. ويظهر هذا الترجيح لرواية الأعراب على غيرهم، في تقديمه رواية شيخه شرحبيل أحد فصحاء العرب باليمن، على رواية شيخه أبي سعيد السيرافي، رغم تلمذته الطويلة له. فشرحبيل يروي بعض الأبيات منسوبة إلى فرعان اللص، بينما يرويها السيرافي لعبيد بن أيوب العنبري وكان لصاً أيضاً. وعندما يورد صاعد هذه الأبيات، يثبتها منسوبة إلى فرعان، مرجحاً رواية

شرحبيل، ومكتفيا بالتنبيه إلى رواية السيرافي «... لأن العرب
أعرف بأشعار العرب من الحاضرة...» (254)

ب) ذكر الخلاف في الرواية :

ويظهر ذلك في تنبيهه إلى بعض ما خالف به بعض الرواة
الرواية المثبتة، دون أن يتجاوز التنبيه إلى المفاضلة والترجيح؛
وفي سكوته عن الترجيح قبول للرواية الثانية، وإن كان إثبات
الرواية الأولى يعد تقديمًا ضمنيًا لها. (255) وقد يكون الخلاف في
نسبة الشعر، فينبه إليه. (256)

ج) التنبيه إلى ما لم يرد عند بعض الرواة :

ويكثر هذا في الفصوص التي يبينها على أشعار من روى
أشعارهم كبار الرواة، كقوله في فص بناه على أبيات لسحيم
رواها عن شيخه الرماني: «وقرأت على علي بن عيسى في بعض
ما قرأت عليه من فوائده... قال سحيم بعدما ضرب ونهي فعاد،
وليست في رواية الأصمعي وابن الأعرابي...» (257)
ومن تنبيهاته التي تستوقف الدارس، إشارته إلى أن أبيات
المرقش الأكبر التي بني عليها الفصل (50) ليست في رواية
المفضل: «وأنشد له أبو عمرو الشيباني، وليست في رواية
المفضل...» (258) وإذا كان صاعد يقصد رواية المفضليات،
فالأبيات الواردة في النسخة المتداولة من مجموعة المفضل، لكن
هذا قد يفيد أن النسخة التي بين أيدينا تضم قصائد لم يخترها
المفضل.

(254) الفصوص ص: 77 ب.

(255) انظر مثلاً الفصوص ص: 174 أ.

(256) انظر مثلاً الفصوص ص: 82 ب.

(257) انظر مثلاً الفصوص ص: 78 ب - 179 أ.

(258) انظر مثلاً الفصوص ص: 114 أ.

د) التنبيه إلى تفرد الرواية :

ويلتجئ صاعد إلى هذا، حتى لا تحمل الرواية التي يستشهد بها على القوة، تمييزاً لها عن الروايات القوية. ومن ذلك تنبيهه إلى رواية مرفوعة إلى الفراء، لم يسمعها إلا من راويها: «... قال الفراء: يقال هذا أولى... ولم أسمعه من غيره». (259)

هـ) بناء الفص على رواية شبه مركبة :

وذلك بالاستفادة من الروايتين في نفس الفص؛ وقد بدا هذا جلياً في الفص (182) الذي بناه على شرح أبيات للشاعر الأموي جعفر بن علبة، نقلها من خط شيخه أبي سعيد السيرافي، حيث جمع بين رواية شيخه، ورواية أبي تمام. (260) وفي جمعه بين رواية شيخه ورواية أبي تمام، ما يوحي بأنه كان يعتبر رواية الشعراء للشعر أقوى من أن تؤخر، لكون الشعراء أدرى بالشعر من الرواة العلماء.

و) تخطئة ما لا يراه صحيحاً من الروايات :

يبدو صاعد من خلال فصوصه ميالاً إلى نقد الروايات التي لا يرضاها؛ وامتد نقده للرواية أحياناً إلى بعض ما كان متداولاً منها، دون أن تمنعه شهرتها من ردها وتخطئة أصحابها. فما قاله الرواة مثلاً في نصب (وقوفا) في قول امرئ القيس مشهور، إلا أن هذه الرواية كانت مما رده صاعد واستضعفه، معتمداً على شرح نقله من خط الأصمعي. (261) وقد تكون الرواية التي يستضعفها صاعد لعالم كبير، أو لأحد شيوخه، فلا يمنعه ذلك - وإن ألان الكلام -

(259) الفصوص ص: 166.

(260) الفصوص ص: 166 إلى 167.

(261) الفصوص ص: 50 ب - 151.

من تخطئتها وردّها. وقد صرح صاعد نفسه، وهو يخطئ شيخه أبا علي الفارسي، بأن الحق لا هوادة فيه. (262)

ولم تكن هذه العناية بتصحيح الروايات، ونقدها، وتوثيقها مقصورة على المسموع من مروياته؛ فما كان ينقل من الخطوط المنسوبة من الروايات، كان أيضا مما يوثق، إما بذكر سند الخطوط المنسوبة، كإشارته في الفصل (212) إلى أنه ينقل من خط ابن المعتز الذي نقل من خط الفراء؛ (263) أو بالمقابلة بين ما نقل من أكثر من خط، من الأشعار والأخبار، كمقابلته ما نقله من خط الأثرم، بما كتب بخط محمد بن حبيب: «نقلت من خط الأثرم... فكانا سواء». (264)

ونجد نفس المنحى في التوثيق، في فص آخر يقابل فيه ما نقله بخط سلمة، بما وجده بخط البحتري: «وجدت بخط سلمة صاحب الفراء، ثم وجدت بخط البحتري لبعض العرب، ولم يذكروا قائله...». (265)

أما مواقف علماء الأندلس من هذه الروايات الغزيرة فقد كانت مختلفة؛ ولعل تهمة الكذب التي ألصقت بصاعد في المصادر، كانت نتيجة للشك الذي واجه به تلامذة القالي صاحب الفصوص. وقد ذكر هو نفسه ذلك في خبر المجلس الذي أنكر فيه تلامذة القالي روايته المتميزة لبیت الشماخ: (بسيط)

تُدْنِي الْحَمَامَةَ مِنْهَا وَهِيَ لَاهِيَةٌ (266)

(262) الفصوص ص: 63 ب.

(263) الفصوص ص: 77 ب.

(264) الفصوص ص: 89 ب.

(265) الفصوص ص: 125 ب. وانظر أيضا مقابلته ما نقل من خط الأصمعي بنفس ما نقل من خط إسحاق الموصلي (الفصوص ص: 163 أ).

(266) الفصوص ص: 156 ب.

ولا نريد أن نتولى اليوم الانتصار لصاعد ممن عاداه واتهمه من تلامذة القالي، حسداً أو جهلاً بما أتى به، فقد اعترف صاحب الذخيرة بأن اشتراط صاعد لغير المشهور، كان سبباً فيما اتهم به. وفي القرن السابع، كان القفطي قد ذكر أن اختبار الكتب المطولة في اللغة، قد كشف عن حقيقة ما أتى به صاعد. (267) ولكننا نكتفي بتنبيه من ظل يصدق ما قيل عن الفصوص وتغريقه، من الدارسين المعاصرين، إلى أننا استطعنا أن نرد كثيراً من المادة العلمية التي تضمنها كتاب الفصوص إلى أصولها ومصادرها، رغم قلة ما بيد الدارس اليوم من المصادر الأصول؛ أما اتهام صاعد بالكذب في عصره وفي المصادر التي ترجمت له، فقد كان كاتهام بعض كبار المحدثين والعلماء كالقطيعي وأبي عمر الزاهد؛ والمؤلف مستهدف. وفي رد ابن بسام لتهمة الكذب التي اتهم بها صاعد، ما يؤكد أن ما وصف به كتاب الفصوص، لم يكن إلا تحامل حاسد، (268) أو جاهل بقيمة ما تضمنه الكتاب.

ومما يدعو إلى الاستغراب من موقف تلامذة القالي من صاعد، أنهم شككوا في شاعريته عندما نظم الشعر، واتهموه بسرقة؛ فلما روى الأشعار منسوبة إلى أصحابها، شككوا في روايته، واتهموه بالنحل والكذب فيما يرويه، فجعلوه بذلك عند نظم الشعر راوياً منتحلاً، وعند رواية الشعر ناظماً ناحلاً.

(6) الشاعر الناقد :

لم يضمن صاعد كتابه، من شعره، ما يكفي لجعل الكتاب صورة لشاعريته؛ فما ورد فيه من شعره لم يتعد البيت الذي اختصر فيه بيتي الشافعي، والأبيات القليلة التي اقتطعها من مدحته في ابن أبي عامر، لذا تظل أشعاره المتفرقة في المصادر

(267) إنباه الرواة 2/88.

(268) الذخيرة 4 - 1/16.

الشاهد الأول على قيمة ما نسب إليه من شعر. وخلافا لذلك، كان لآرائه النقدية في كتابه بعض البروز. ومن القضايا النقدية التي وقف عندها في كتابه، قضية الأخذ، وفساد المعنى الشعري. واهتمام صاعد بالأخذ، الذي يعد أحد المصطلحات النقدية المرتبطة بباب السرقات الشعرية، كان مرتبطا بتمثله الشعر باعتباره بناء ومعاني. والتشابه بين معاني الأشعار، كان من الظواهر الشعرية التي نبه صاعد إليها عن قصد، مخصصا لذلك فصوصا مستقلة، كالقص (126)، الذي أرجع فيه معنى بعض الأبيات إلى أبعد مما ذهب إليه بشار: «ومن خط ثعلب في قبيل ضبة لابن الحداية: حلت رميلة بالمربع حلة..... فأخذ بشار هذا المعنى فقال: إني لأحسد ثوبها إذا رقدت...» (269).

ويرد في قص آخر شعرا لأبي العتاهية وبشار، إلى ما ورد في أبيات لشاعر جاهلي قديم: «يروى أن أبا العتاهية زار يوما بشار بن برد فقال له: يا أبا العتاهية، والله إني لأستحسن اعتذارك في البكاء إذ تقول: (مجزوء الكامل)

كم من صديق لي أسا رقه البكاء من الحياء...

فقال: أيها الشيخ، ما غرفته إلا من بحرك، ولا نحتته إلا من قدحك، وأنت المبرز السابق حيث تقول: (وافر)

وقالوا قد بكيت فقلت كلا وهل يبكي من الطرب الجليد....

قال صاعد: قد تقدمهما الحطيئة إلى هذا المعنى فقال: (وافر)

إذا ما العين فاض الدمع منها أقول بها قذى وهو البكاء

وإنما أخذ الحطيئة أيضا من وديعة بن ذرة، وهو جاهلي قديم حيث يقول: (طويل)

(269) الفصوص ص: 54 ب.

لَقَدْ قِيلَ مِنْ طُولِ اعْتِلَالِكَ بِالْقَدَى أَجِدَكَ لَا تَلْقَى لِعَيْنَيْكَ قَازِيَا...
نقلت هذه القطعة عن خط الأصمعي». (270)

وبنفس النظر النقدي، يكشف عن علاقة بيت لابن أبي الجنوب في هجاء علي بن الجهم، ببيت لجريير ليس في ديوانه: «وأنشدني ابن سابط بالبصرة قال: أنشدني أبو الحسن علي بن لنكك لابن أبي الجنوب يهجو علي بن الجهم، وكان بينهما مماظة:
(كامل)

إِنَّ ابْنَ جَهْمٍ لَيْسَ يَرْحَمُ أُمَّهُ لَوْ كَانَ يَرْحَمُهَا لَمَّا عَادَانِي

أخذ هذا المعنى من جريير في قوله: (طويل)

وَمَا حَمَلَتْ أُمُّ امْرِئٍ فِي ضُلُوعِهَا أَحَفَّ مِنَ الْجَانِي عَلَيَّهَا هِجَائِيَا» (271)

ويبدو أنه كان يعتبر معرفة مصدر المعنى الشعري الأول من شروط رواية الشعر، وكان يعد إعجاب العالم بالمعنى في شعر شاعر، مع وجوده عند شاعر سابق، تقصيرا. فقد استغرب من أبي عمرو بن العلاء إعجابه بشعر لأبي دهل، مع سبق الأعشى إلى معنى ذلك الشعر: «حدثنا أبو سعيد السيرافي رحمه الله قال: حدثنا قال: قيل لأبي عمرو بن العلاء: ما يعجبك من شعر أبي دهل؟ قال: قوله: (سريع)

يَا عَمَرَ جِيرَانُكُمْ بَاكَرُوا فَالْقَلْبَ لَا لَاهٍ وَلَا صَابِرُ

قال صاعد: عجبت من إعجاب أبي عمرو بن العلاء بهذه القطعة واستغرابه لها، وهو يعلم أن الأعشى سبقه إلى هذا المعنى، وأن الآخر سلخ الأول، إذ يقول.....» (272)

(270) الفصوص ص: 150 - 50 ب.

(271) الفصوص 104 أ.

(272) الفصوص ص: 53 ب.

وتفسر هذه العناية النقدية، برد المعاني الشعرية إلى أصولها الأولى، اهتمامه بنقد البناء المنطقي لمعاني الشعر، وتفسيره الشعري لبعض ما اختل منها. ففي نقده مثلاً لبیت بشر بن أبي خازم في وصف فحل إبل، يكاد يسلك مسلك طرفة في قصة «استنوق الجمل» قال: وقول بشر: (وافر)

وَخِنْذِيذٍ تَرَى الْغُرْمُولَ مِنْهُ كَطَيِّ الرِّقِّ عَلَقَهُ التِّجَارُ

أخطأ عن وصفه، لأنه ذكره بكبر غرموله، وهذا عيب: ولا يكبر ذلك إلا في الهُجْن، وأما العتاق منها فلا توصف إلا بصغر الجردان». (273) إلا أنه يبدو أشعر منه ناقداً في تأويله لاختلال المعنى في بيت للمرقش الأكبر: «وأنشد له أبو عمرو الشيباني، وليست في رواية المفضل: (طويل)

1 — هَلْ يَرْجِعُنَّ لِي لِمَتِي إِنْ خَضَبْتُهَا

إِلَى عَهْدِهَا قَبْلَ الْمَشِيبِ خَضَابُهَا

2 — رَأْتُ أَقْحَوَانَ الشَّيْبِ فَوْقَ خَطِيطَةٍ

إِذَا مُطِرَتْ لَمْ يَسْتَكَنَّ صُؤَابُهَا

..... قال: إنما يشبهه الأقحوان بالأسنان، ولم يشبهه الشيب بالأقحوان قبله. والخطِيطَةُ: الأرض التي لم تُمَطَّرَ، بين أرضين ممطورتين، فزعم أنه قد صَلَعَ فجعل صَلَعَتَهُ كالخطِيطَةِ، فيقول: لو مُطِرَتْ لم يستكنَّ صُؤَابُهَا. أي لا شَعَرَ على رأسي فيستكنَّ الصُؤَابُ فيه. قال صاعد: ليس لقوله: لو مطرت، معنى، لأن الصلعة لا يستكنُّ فيها الصُؤَابُ، مُطِرْتُ أو لم تمطر، ولكنه لما ذكر الخطِيطَةَ، ذكر معها المطر، كقول الآخر: (طويل)

وَنَحْنُ نَقْلُنَا مِنْ مُعَاوِيَةَ الَّتِي هِيَ الْأُمُّ تَغْشَى كُلَّ فَرْخٍ مُنْقَنِقٍ

(273) الفصوص ص: 143 ب.

أراد بالفرخ الدماغ، فلما سماه فرخا - لأن الهامة يقال لها أم الدماغ - جعل له نقنقة» (274).

ويلحق بهذه اللمحات النقدية، تخريجه للضرائر الشعرية وفساد الوزن في بعض المختارات الشعرية، إلا أن هذه المختارات نفسها تظل أهم ما يشهد لصاعد بنمو الحس النقدي المتذوق، وإن كان كتابه يفتقر إلى ما يمكن أن يعد نظرية أو كتابة نقدية منهجية.

(7) الهازل المتماجن :

تدل كثرة القصص والحكايات والطرف والملح التي تضمنها كتاب الفصوص، على مهارة بأدب المسامرة والمؤانسة؛ وما تحكيه المصادر عن شغف المنصور بكتاب الجواس الذي ألفه له صاعد، يؤكد أنه كان قصاصا بارعا في السرد. ويمكن أن يعد هزله في الكتاب تكملة لما تتطلبه صناعة المندامة وأدب المسامرة من براعة في الفكاهة والتسلية، وإن كان هذا الهزل يتحول في بعض الفصوص إلى تماجن وتعبير صريح عما يجب أن يكنى عنه. ولا يستغرب هذا التماجن من صاعد، فالمجالس التي كان يحضرها في بغداد، والأشعار التي نظمها شيخاه ابنا حجاج وسكرة، وكثير من شعراء اليتيمة، يفيد أن ظاهرة التماجن في الأدب، كانت قد أصبحت نمطا في الكتابة لا يضايق العلماء ولا الحكام؛ والمجون الذي مزج به التوحيدي جده في كتابه الإمتاع والمؤانسة شاهد على ذلك. لكن الذي يستغرب من صاعد جرأته في بناء هزله، على وضع ما مكانه الجد في موضع الهزل؛ ومما يوضح ذلك الفصل الذي نقل فيه خبر الأعرابي أبي مهدية عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: «... فقال: الأعراب هم والله مادة

(274) الفصوص ص: 114.

الإسلام، كذبتم والله، وإنما قلبتموها كما تقلبون الشعر. فقلنا: فكيف هو؟ قال: الأعزب أشد كفرا، وقد بلغني أنهم في الخط واحد، وما أحسب أن الله تعالى خلق خلقا هو شر منهم، ولا جيلا أخبث منهم، يدبون إلى جاراتهم دبيب العقارب، فلا يَغُرَّنَكَ صَوْمُ عزب وصلاته، فإنه لا يؤول إلا إلى خبث». (275)

ويلحق بهذا الهزل في موضع الجد، هزله في الفص الذي نقل فيه خبر الضيف الذي نظم كلاما وأوهم بعض النساء أنه قرآن، طمعا في قراهن. أما الضيف فقد جعله الخبر الذي ينقله صاعد، يونس مع ما عرف عن هذا العالم من جد: «وروى لنا محمد بن شاذان، عن ابن دريد، عن عبد الرحمان، عن عمه، عن يونس قال: صرت إلى حي يعرف ببني يربوع، فطلبت مَنْ أَنزِلَ عليه، فلم أجد إلا نساء. فأضَرَّ بي الجوع، فقلت لهن: هل لكن في الصلاة جامعة؟ قلن: وأيم الله، إن فيها لَهَلًا. قال: فأذَّنت، وتقدمت فكَبَّرْتُ وقرأت: الحمد، ثم قلت: يا أيها الذين آمنوا إذا نزل بكم الضيف، فلتقم ربة البيت فتملأ قَعْبًا زُبْدًا، وقعبا تمرا، فإن ذلك خير وأعظم أجرا. قال: فو الله ما انفلتت من صلاتي إلا وصحافُ القوم حَوْلِي، فأكلت حتى تَمَلَّأْتُ، وأخذت معي زادا؛ ثم جاء رجال الحي، فسمعت امرأة منهم، تقول لزوجها: ما سمعت قرآنا قط أحسن من قرآن قرأه ضيفنا هذا. قال لها زوجها: اقرئي علي هذا الكلام. فأعادت عليه. فقال: أباي الله تعالى أن يأمرنا إلا بمكارم الأخلاق». (276)

هذا العبث بما هو جد، قد يجيز للدارس أن يتساءل عن علاقة نزعة التماجن لدى صاعد، ببعض التيارات الفكرية المشرقية في القرن الرابع؛ فنظرة صاعد إلى الورع والاستقامة، تبدو مختلفة عن

(275) الفصوص ص: 78 ب.

(276) الفصوص ص: 132 أ.

التصور السائد. إن المبالغة في أداء العبادات - في رأيه - لا تدل على صفاء الإيمان وطهارة السلوك، فالتظاهر بالورع قد يكون شركا أو حباله للصيد، كما أن التماجن والظرف لا يعبران عن باطن المسلم وسلوكه الحقيقي؛ وفي وصف صاعد لأبي حلتيت الصوفي بالظرف والمجون والورع، ما يؤكد ذلك: «أنشدني رجل من أهل واسط، صوفي ... وهو من سواد واسط، يقال له أبو حلتيت، وكان ظريفا ماجنا ورعا...» (277)

هذا المفهوم للورع الماجن أو المجون الورع، يجعل الورع ورع النفس والفعل، لا ورع الأقوال، والمجون مجون النفس والفعل لا مجون القول. وهو تصور يبدو وثيق العلاقة بالموقف الذي وقفه التيار السلوكي في القرن الرابع من التيار الاعتزالي، الذي كان يبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتخويف مرتكب الكبيرة من الخلود في النار، رغم أن أصحابه - في نظر مفكري التيار السلوكي - كانوا أبعد الناس عن الخشوع والورع. وكان التوحيدي ممن تزعم هذه الدعوة إلى جعل الورع ورع النفس، كما يظهر في مهاجمته للفقيه الداركي، وللمعتزلة مطلقا. (278)

ولعل هذا التصور المتميز للفرق بين المجون والتماجن، أو مجون الفعل ومجون القول، كان وراء افتتاح صاعد لكتابه بتفسير (279) «التوسط»، من خلال شرح قوله تعالى: ﴿وجعلناكم أمة وسطا﴾، وختمه له بقول الرسول ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة». (280)

(277) الفصوص ص: 125 ب.

(278) الإمتاع والمؤانسة 1 / 141.

(279) الفصوص ص: 12 أ.

(280) الفصوص ص: 159 ب - 160 أ.

(8) العالم المتحزب :

لا تمدنا المصادر التي ترجمت لصاعد، ولا كتابه الفصوص، بما يمكن أن يكون شاهدا على انتحاله الصريح نحلة أو مذهبا من المذاهب، أو عقيدة من العقائد. ورغم العلاقة التي ربطته في المشرق ببني بويه، تظل علاقته بالمذهب الشيعي، قبل حلوله بقرطبة، مجهولة.

ونستنتج من بعض آرائه في تفسير الآيات القرآنية، أنه كان يأخذ بالسنة؛ (281) وتفيد الفصوص التي بناها على أخبار بعض آل البيت أنه كان يُجلِّهم، لكن الفص الذي استخف فيه استحقاقا ماجنا بمقولة الإمام المنتظر في المذهب الشيعي، تكشف عن موقف يدل - في الظاهر - على عدائه للإمامية: «وحدثنا علي بن مهدي أنه دخل إلى أبي الحسن بن الناصر الأصم العلوي، الذي أسلم الديلم على يده.... فأنشده قصيدة حسنة.... فأعجب أبا الحسن شعره، فقربه وناداه وأحسن صلته؛ وباتا ليلتهما يتعاطيان ملح الأشعار ويتقارضان البديهة، ويتذاكران أخبار الإمامية من الشيعة وسخف مذهبها في اعتقاد إمامة منتظر لم يولد، وما أشبه ذلك من حمقهم، حتى انفجر عمود الصبح. فقام على ابن الناصر إحليله، فقال: يا أبا الغمر، ما أدري ما كنا فيه منذ الليلة؟ ولكن قل في قيام إحليلي شيئا. فأطرق ساعة ثم قال: (مجزوء الرمل)

1 — قل لمن كان إماميا إلى كم تتردد

2 — التمس ما في سراويل فتى الناصر ترشد

3 — فهو القائم يامغـرور من آل محمد...» (282)

(281) الفصوص ص: 14 ب.

(282) الفصوص ص: 17 أ.

وكان من الجائز أن نعد نقل صاعد لهذا الخبر المستخف بالإمامية، دليلاً صريحاً على بغضه لهم، إلا أن ارتباط تأليف الفصوص بأحد خدام الدولة الأموية، في بيئة سنية، يجعلنا نحترس من احتمال كون هذه السخرية، مجاملة مذهبية للمنصور ولسيده الخليفة الأموي هشام المؤيد. أما مجاملاته الصريحة لبني أمية من خلال نقل أخبارهم، فقد كانت كثيرة، ولعل أوضحها، الفصل الذي يجعل الخليفة عمر بن عبد العزيز هو المقصود بدل أبي بكر، في قولهم «العمران»: «وأما العمران فأبو بكر وعمر، وقيل لعثمان رحمه الله: نسألك سيرة العمرين.... الفراء قال: أخبرنا معاذ الهراء قال: لقد قيل: سيرة العمرين قبل أن يولد عمر بن عبد العزيز، وزعم الأصمعي عن أبي هلال الراسبي عن قتادة أنه سئل عن عتق أمهات الأولاد فقال: أعتق العمران فما بينهما من الخلفاء أمهات الأولاد. ففي قول قتادة: العمران عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رحمهما الله، إذ لم يكن بين أبي بكر وعمر رحمهما الله، خليفة». (283)

إن كتاب الفصوص يكشف عن شخصية علمية متعددة الأوجه، وإذا كان الوجه الحزبي المذهبي، يعتبر أقل هذه الأوجه وضوحاً، فإن أهم صورة يرسمها الكتاب لشخصية صاعد العلمية، هي صورة الراوية الحافظ.

(283) الفصوص ص: 6 ب.

رابعاً : أثر صاعد والفصوص في المؤلفات اللاحقة :

لم يكن تشكيك تلامذة القالي في صحة ما تضمنه كتاب الفصوص من معارف وعلوم، ليمنع العلماء اللاحقين، من الاستفادة من الكتاب. وإذا كانت بعض الأسباب غير العلمية قد منعت كتاب صاعد من أن يكون متداولاً كما تدوول كتاب الأغاني مثلاً، فإن في ما نقله بعض المصنفين من كتاب الفصوص، وما أفادوه من صاعد، ما يدل على أن هذا الكتاب لم يكن مجهولاً لدى القدماء.

(1) ولعل أقدم من أفاد من كتاب الفصوص، تلميذه ابن حيان الذي كان ممن روى الفصوص. وقد أورد في مقتبسه متصرفاً خبر البدوية التي «نقلها زوجها عن البادية إلى قرى النخل كارهة، فأحمدت النجعة لما طعمت التمر، ثم حنت إلى وطنها، فلما عاودته أعوزها التمر فتشتهته، وقالت: (طويل)

1 — ألا من لقلب لا يزال مكلفاً

تزايل ما بين القرينة والفحل

2 — يحن إلى الأرطاة حتى إذا أتى

بلاداً بها الأرطاة حن إلى النخل (284)

وما يشير إليه ابن حيان هو الخبر الذي بني عليه الفص (373). (285)

(2) وأفاد ابن سيده تلميذ صاعد كثيراً من شيخه وكتابه؛ وليست الإفادات التي سترد في لسان العرب إلا نقلاً من محكم هذا العالم. وفي فصل من رسالة لابن سيده - نقلها صاحب الذخيرة - في الرد على ابن أرقم نجد قوله: «... وأنا أنشدهم ما

(284) المقتبس 14/3.

(285) الفصوص ص: 109 ب.

أنشدته عن أبي العلاء صاعد بن الحسن الربيعي، عن أبي رجاء
الضبعي: (طويل)

حسود كئيب القلب يخفي أنينه ويضحي كئيب البال عندي حزينه...» (286)
وهذا الذي استشهد به ابن سيدة هو أول ما أورده صاعد من
الشعر في كتاب الفصوص. (287)

(3) وكان أبو عبيد البكري تلميذ ابن حيان ممن أكثروا النقل عن
صاعد؛ ففي التنبيه ينقل من الفصوص خبر سؤال عمر رضي الله
عنه رجلاً طائفاً عن النخلة والكرم. (288) وينقل في التنبيه (289)
واللآلي، (290) رد صاعد لرواية القالي المصحفة لقول الشاعر، مع
تصحيحه للرواية: «... وأخبرني من أثق به أن صاعد بن الحسن
كان يرد هذه الرواية في البيت ويقول إن الصحيح:
(طويل)

تجللت عارا لا يزال يشبه سباب الرجال نثره والقصائد (291)

وأكثر البكري من النقل عن صاعد في معجمه، ففي حديثه عن
البرق يذكر برقة حاج ويقول: «... هكذا ذكرها صاعد بالخاء
والجيم، وهكذا رويناه عنه، وإنما هو خاخ بخاءين معجمتين، على
ما يأتي في حرف الخاء...» (292) وفي حديثه عن برقة الصفاح
يشير إلى تشديد الصاد المفتوحة والفاء، ثم يقول: «هكذا ذكره

(286) الذخيرة 390/1/3.

(287) الفصوص ص: 1 ب.

(288) الفصوص ص: 112 أ.

(289) التنبيه ص: 56.

(290) سمط اللآلي 429/1.

(291) انظر المصدرين السابقين.

(292) معجم ما استعجم ص: 242.

صاعد، وحُدِّثنا به عنه، وأنا أراه برقة الصفاق». (293) وورد الحديث عن البرق في الفص (76). (294)

وعن صاعد نقل البكري بعض كلامه عن الدارات في حديثه عن دارة شجى: «دارة شجى، هكذا ذكرها ابن حبيب. وقال كراع: دارة وَشْحَى، بالواو والشين المعجمة والحاء المهملة، مقصور على وزن فعلى. وكذلك ذكره صاعد. قال: ورأيت بخط إسحاق دارة شحاً بالشين المعجمة والحاء المهملة على وزن فعل. قال: فلست أدري أهى هذه أم دارة أخرى». (295)

وإشارته إلى صاعد إشارة إلى قوله في الفصوص: ودارة وشحى، ورأيت بخط إسحاق دارة شحا فلست أدري أهى هذه أم دارة أخرى... (296)

واستفاد البكري منه أيضا في ضبطه للفظه مكمّن، في حديثه عن دارة مكمّن. (297)

4) ويذكر أحمد بن يحيى الضبي رواية عن ابن حزم «... أن أبا العلاء صاعدا سأل جماعة من أهل الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول الشماخ: (بسيط)

1 — دَارُ الْفَتَاةِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لَهَا
يَا ظَبْيَةً عَظْلًا حَسَّانَةَ الْجِدِ

2 — تُدْنِي الْحَمَامَةَ مِنْهَا وَهِيَ لِأَهْيَةٍ
مِنْ يَانِعِ الْمُرْدِ قِنْوَانَ الْعَنَاقِيدِ... (298)

293) معجم ما استعجم ص: 835/2.

294) الفصوص ص: 41 ب.

295) معجم ما استعجم ص: 535.

296) الفصوص ص: 41 ب.

297) معجم ما استعجم ص: 537 والفصوص ص: 35.

298) بغية الملتبس ص: 322.

والخبر المذكور في آخر الفص 755، في سياق ما استدركه
صاعد على القالي في بارعه. (299)

(5) وكما أفاد البكري من صاعد وفصوصه في معجمه، أفاد
الحموي. ففي معجم البلدان نقول كثيرة من كتاب الفصوص. (300)
إلا أن الحموي في معجم الأدباء وَهَمَ في ترجمته لعلي بن
عيسى الربعي، فجعله (301) المعقَّب على أبي علي الفارسي في قوله
«أكأت الرجل...»، والحكاية في الفصوص (302) كما نقلها الحموي؛
إلا أن الربعي المقصود هو أبو العلاء صاعد بن الحسن، لا علي
بن عيسى. ولم نعثر في صلة ابن بشكوال الذي نقل عنه الحموي،
على أية إشارة إلى الحكاية المذكورة، التي خلط فيها صاحب
الإرشاد بين صاعد الربعي، وعلي بن عيسى الربعي.

(6) واستفاد ابن خلكان في كتابه من الفصوص استفادة
صريحة تدل على معرفته به معرفة من طالعه؛ ففي ترجمته لأبي
العتاهية ينقل من الفصوص خبر بشار وأبي العتاهية، وتنبيه
صاعد إلى سبق الحطيئة وشاعر جاهلي قديم آخر إلى المعنى
الذي نظمها: «... وحكى صاعد اللغوي في كتاب الفصوص أن أبا
العتاهية زار يوما بشار بن برد فقال له أبو العتاهية: إني
لأستحسن قولك...» (303) والخبر بنصه في الفص (107) من كتاب
صاعد. (304) ونقل ابن خلكان من الفصوص أيضا خبر قتل الوزير

(299) الفصوص ص: 156.

(300) انظر مثلا معجم البلدان 452/3 حيث انفرد ياقوت بإيراد قصيدة الأعرابي
اليائية التي في الفصوص ص: 61 ب.

(301) معجم الأدباء 81/14.

(302) الفصوص ص: 118 ب.

(303) وفيات الأعيان 223/1 إلى 226.

(304) الفصوص ص: 150.

علي بن عيسى لغلام الشاعر أبي بكر بن العلاف، والقصيدة التي رثى بها الشاعر غلامه مكنيا بالهر. (305) والخبر بنصه في الفص (337) من الفصوص؛ والملاحظ أن هذه القصيدة المطولة النادرة لم ترد في أي مصدر سابق لوفيات الأعيان — حسب ما اطلعت عليه — وإن كانت قد وردت بعده عند الصفدي وغيره. وفي هذا ما يجعلنا نعتقد أن فضل وصول هذه القصيدة إلينا يعود إلى مصدر وحيد هو كتاب الفصوص. (306)

(7) وبالنقل عن محكم ابن سيده، جعل ابن منظور من آراء صاعد اللغوية مكونا من المكونات العلمية لمعجمه الكبير. وكان النقل عن صاعد إما بذكر اسمه كقوله: «... وقالت شاعرة من العرب، وكان تزوجها رجل من غير بلدها فعُتِنَ عنها... قال ابن سيده: وهذه الأبيات قرأتها على أبي العلاء صاعد بن الحسن في الكتاب الموسوم بالفصوص...». (307) وكقوله: «وأنشد صاعد في الفصوص لأيمن بن خريم يذكر غزاة الحرورية...»، (308) أو بدون ذكر اسمه. (309)

(8) وفي تخلص الشواهد ينسب ابن هشام قول الشاعر: (منسرح)

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ فِي بَعْضِ غِرَاتِهِ يُوَافِقُهَا

305) وفيات الأعيان 109/2 و110/2.

306) الفصوص ص: 104 ب.

307) لسان العرب 446/3.

308) لسان العرب 385/7. وانظر أيضا 124/1، و161/1، و224/1، و460/1، و471/1، و607/1، و799/1، و44/2، و209، و189، و366، و498/4، و189/5، و125/9.... وغيرها.

309) لسان العرب 385/7. وانظر مثلا لسان العرب 246/10 حيث يرد النقل عن الفصوص دون الإشارة إليه ولا إلى صاحبه.

إلى أمية بن أبي الصلت. ثم ينبه إلى أن صاعدا نسبه (310) إلى رجل خارجي قتله الحجاج. ونقل العيني نفس الإشارة، فذكر أن صاعدا نسبه إلى رجل خارجي، ورجح نسبته إلى ابن أبي الصلت. ولم أعثر على هذا البيت في كتاب الفصوص.

9) وفي لسان الميزان، استفاد ابن حجر من الفصوص مصرحا بأنه طالعه، (311) فعرف ببعض شيوخه معتمدا على خطبة الكتاب. ومثل لمناكير صاعد (312) ومجازفاته، بالخبر الذي ذكر فيه صاحب الفصوص خبر مناظرته لقرموطة. وأشار إلى تليفه ممثلا بالفص (120) الذي ذكر فيه خبر الطفيلي وجاره. (313)

10) وفي القرن التاسع الهجري نجد ابن الأزرقي ضمن كتابه بعض ما نقله عن كتاب صاعد. فقد نقل (314) خبر الأعمش وهو يقرئ الناس في مسجد بني أسد بالكوفة مع أبي حصين إمام المسجد، وخبر المنافسة التي كانت بين المبرد وثلعب، وما كان بينهما عندما التقيا في مجلس واحد، وذكر البيتين اللذين استشهد بهما المبرد. (315) كما نقل متصرفا في اللفظ خبر أمير البصرة الذي لحن على المنبر في قراءة آية. (316) وقد وردت هذه

(310) تخلص الشواهد ص: 328، والمقاصد النحوية 2/ 188.

(311) لسان الميزان 3/ 160.

(312) لسان الميزان 3/ 161 وانظر الخبر في الفصوص ص: 11 ب.

(313) لسان الميزان 3/ 162 وانظر الخبر في الفصوص ص: 151 أ.

(314) روضة الأعلام ص: 27 (نسخة مرقونة).

(315) روضة الأعلام ص: 410.

(316) روضة الأعلام ص: 488.

الأخبار كلها في كتاب صاعد في ثلاثة فصوص متباعدة. (317)

وما يمكن أن نستنتجه من هذه النقول التي نقلتها المصادر المذكورة من كتاب الفصوص، وخصوصا ما نقله ابن خلكان المتوفى سنة (681هـ)، والحافظ ابن حجر المتوفى سنة (852هـ)، وابن الأزرقي المتوفى سنة (894هـ)، أن مؤلف صاعد كان حتى القرن التاسع الهجري ما يزال متداولاً بين العلماء.

غير أن أهم أثر لفصوص صاعد أمكننا أن نطلع عليه، بعدما سبقت الإشارة إليه، هو أن الفصوص إذا كانت قد ألبت عليها تلاميذ القالي، فوجدت من تصدى لها من بينهم فألف كتاباً في الرد على صاعد في مناكير كتابه هو أبو عثمان سعيد بن عثمان المعروف بابن القزّان، (318) فقد وجدت من اهتم بها أكثر ممن سبقت الإشارة إليهم، وذلك هو سعد بن أحمد بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن ليون المتوفى سنة 780هـ، الذي ذكر أن له مختصر كتاب الفصوص لصاعد، (319) ولا شك أن هناك من تعدى اختصار الفصوص من القدماء، إلى الشرح، (320) إلى غير ذلك من أصناف الاهتمام العلمي.

(317) هي على الترتيب (الفص 81 ص: 36 ب والفص 498 ص: 129 ب والفص 413 ص: 123 أ).

(318) الصلة 209 - 210 وانظر ص: 90 مما سبق.

(319) درة الحجال 3/ 293.

(320) انظر ص: 56 فقد سبق - نقلاً عن حاجي خليفة - أن لابن النفيس المصري شرحاً على كتاب الفصوص.

خامسا : . فصوص صاعد وأمالى (321) القالى :

- تحدى كتاب لكتاب، أم عالم لعالم:

اتفقت جل المصادر التي ترجمت لصاعد، على أنه ألف كتابه ليعارض به نوادر القالى وأمالى؛ وذكر ابن بسام أن صاعدا قال للمنصور لما أراه كتاب النوادر لأبي علي القالى: «إذا أراد المنصور، أمليت على مقيدي خدمته، وكتاب دولته، كتابا أرفع منه قدرا، وأجل خطرا، لا أدخل فيه خبرا مما أدخله أبو علي. فأذن له المنصور في ذلك، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملئ كتابه المترجم بالفصوص». (322) وقد يوهم هذا الخبر أن صاعدا كان يرغب في تأليف الفصوص، لينسي به ذكر الأمالى باعتباره كتابا تعلق به العلماء. وإذا كان هذا يعد بعض ما قصد إليه صاعد، فإن ما قصد إليه كان أبعد من ذلك. إن معارضته لكتاب الأمالى لم تكن إلا وجها من أوجه الصراع الذي حدث بين صاعد العالم المشرقي الوافد، ومدرسة القالى المتمثلة في تلامذته بالأندلس. فصاعد وفصوصه كانا يمثلان الغزو المشرقي الثقافى الثانى للبيئة العلمية الأندلسية، وهو غزو جعل ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع المزهرة، تواجه بقايا ثقافة القرن الثالث، وأوائل الرابع المستهلكة. وقد اتخذت هذه المواجهة مظاهر مختلفة، نختزل ما يتعلق بصاعد منها فى الحديث عن تحدى هذا العالم لتلامذة القالى، ثم تحديه لمؤلفاته.

(1) صاعد وتلامذة القالى :

تكشف الأخبار التى نقلتها المصادر، والأخبار التى حكاها صاعد نفسه فى بعض الفصوص، عن أن المنافسة بينه وبين

(321) نتحدث عن الأمالى والنوادر باعتبارهما كتابا واحدا.

(322) الذخيرة 4 - 15/1.

تلامذة أبي علي كانت قوية؛ وتفيد المكانة التي حظي بها صاعد في بلاط المنصور أن المناظرات التي كانت تجري بينه وبين هؤلاء العلماء، كانت تزيد المنصور إعجابا بعلم الوافد المشرقي الجديد. ويبدو أن صاعدا كان يعتمد في إفحام خصومه من هؤلاء العلماء على طريقتين:

- مواجهة المحفوظ بالمبتكر.

- ثم مواجهة المتداول المشهور بالنادر المضمنون به على غير أهله.

أ) أما مواجهة المحفوظ بالمبتكر، فقد تجلت في اجتهاده في شرح الشعر وتفسيره، وفي فك المعنى من أبيات المعاني. وقد بدت هذه الشروح مبتدعة مبتكرة، بالقياس إلى الشروح المحفوظة التي كان علماء الأندلس يرددونها نقلا عن شيوخهم. وفي شرح صاعد لبیت الشماخ، (323) وإنكار الأندلسيين لهذا الشرح، واعترافهم بطرافة ما أورده في شرح بيت امرئ القيس، (324) ما يوضح نوع المبتكر الذي واجه به صاعد محفوظ الأندلسيين.

ب) وتجلت مواجهته للمتداول المشهور من محفوظهم، بالنادر المضمنون به على غير أهله، في تلك الفصوص الكثيرة التي بناها على قصائد ومقطعات شعرية لم يسمع بها الأندلسيون من قبل، وعلى روايات خالف بها الروايات المشهورة. ورغم كون صاعد قد نبه في خطبة كتابه إلى أنه لن يضمن الكتاب، إلا العيون التي انتقاها مما بقي في حفظه، من النقول التي نقلها عن خطوط العلماء التي كانت محفوظة بخزانة الوزير ابن يوسف في المشرق، لم يستطع تلامذة القالي أن يخفوا اعترافهم الضمني بجدة ما يسمعون، وإن كان هذا الاعتراف قد تحول إلى تشكيك

(323) الفصوص ص: 156، وانظر الخبر في بغية الملتمس 322 وفي غيرها.

(324) بغية الملتمس ص: 322.

صريح في صحة ما يرويه هذا الوافد المشرقي. لكن هذا التشكيك لم يستطع أن يمنع غيرهم من العلماء والتلاميذ، من أن يبدوا إعجابهم بمثل قصيدة شبل بن الصامت، التي نقلها صاعد عن مخطوطة خطها الأصمعي، تتضمن ما استأثر به هذا العالم الراوية لنفسه. (325) وكان المنصور، ممن أعجبوا بهذه العيون الشعرية التي لم تكن من مرويات القالي؛ وقد تجلّى إعجابه هذا في أمره صاعدا بأن يكتب لابنه عبد الملك قصيدة النظار الفقعسي، التي نقلها من خط الأصمعي ليرويها: «ونقلت فيما نقلت عن خط يده قصيدة النظار الفقعسي، التي ليس للعرب على وزنها وقافيتها وجودتها قصيدة، وهي: (رجز مولد)

كأنني فوق أقب سهوق جأب إذا عشر صات الإرنان

وسوف أثبتها في وسط الكتاب مشروحة، فقد كان مولانا المنصور أبو عامر أنساً لله أجله، وتقبل عمله، أمرني بكتابتها وشرحها، ليرويها الوزير صاحب البرد ولده، أقر الله بفضائل عينه». (326)

وقد كان في تنبيه ابن بسام على أن صاعدا اشترط غير المشهور، وإشارة القفطي إلى أن اختبار كتب اللغة قد أثبت حقيقة ما جاء في الفصوص، ما يؤكد أن تلامذة القالي قد آثروا القدح غير النزيه في كتابه، على الاعتراف له بفضيلة العلم، والإحاطة بما لم يحط به شيخهم.

(2) صاعد ومؤلفات القالي :

لم يذكر صاعد في فصوصه من مؤلفات القالي بالاسم إلا كتاب البارع، إلا أن إشارة المصادر إلى معارضته للأمالي،

(325) الفصوص ص: 130

(326) الفصوص ص: 50 ب.

ووقوف صاعد نفسه عندما ذكر القالي من أسماء القيم على المال، في الأمالي، وإن لم يسم الكتاب، يجعلنا نتناول موقفه مما ألفه صاحب البارع، والأمالي، والمقصود والممدود، من خلال الوقوف عند كتاب البارع وكتاب الأمالي.

(أ) صاعد والبارع :

لم يبق من هذا المعجم إلا قطع (327) قليلة؛ وقد حاول بعض الدارسين، معتمدا على ما تبقى من مخطوطات البارع، البرهنة على أن هذا المعجم الذي ألفه القالي لسد الفراغ المعجمي في الأندلس، (328) كان مما شهد للقالي بالإحاطة والاستيعاب. ويبدو أن صاعدا، الذي حضر المجالس التي قرئ فيها كتاب البارع بأمر من المنصور بن أبي عامر، لم يكن يرى في هذا المصنف الأصالة التي تجعل القالي يستحق التقدير الذي أولاه إياه تلامذته من الأندلسيين. فالكتاب في رأيه كان نقلا لما ورد في كتاب آخر يحمل نفس الاسم: «قال صاعد بن الحسن: كان مولانا المنصور بن أبي عامر أطال الله بقاءه، أمر بقراءة البارع، وهو كتاب لأبي علي القالي رحمه الله، صنفه بالأندلس، ونفض كتب المستنصر رحمة الله عليه واستقصى، وهو كتاب احتذى فيه بالمفضل بن سلمة، صاحب الفراء. وهو كتاب بليغ يقع بخط مجموع في نحو من ثلاثة آلاف ورقة، وسماه البارع، يرد فيه على كثير مما أورد صاحب العين ويخطئه فيه. ولابن دريد كتاب في الرد عليه كبير، يعرف بكتاب الانتصار لصاحب كتاب العين. فنقله أبو علي وضم إليه من خزانة المستنصر رحمه الله زوائد كثيرة. فكان يقرأ على المنصور بحضوري، فكنت أذكر ما أخل به ولم يقع عليه، فكان

(327) حققها هاشم الطعان.

(328) أبو علي القالي ص: 286.

يقع ما أورده مرة في حال الاستحسان، وتارة في حيز الارتياب، وأخرى في حيز الرد، إذ لم يصحبني من كتبي التي درست منها شيء، وكان معولي على حفظي. فقرأ عليه حرف الحاء والميم، فاستمعت إلى آخر الباب فقلت: قد أخل، على طلبه الاستقصاء، بكلمتين. قال المنصور أيده الله: وما هما؟ قلت: قال الفراء: الحميم: الماء البارد... هذه واحدة...» (329) والواضح أن صاعدا لا يكتفي بأن يتهم القالي بالأخذ من كتاب البارع للمفضل بن سلمة الذي كان في الرد على الخليل، وأخذ ما ورد في كتاب الانتصار الذي ألفه ابن دريد شيخ القالي، للرد على المفضل بن سلمة، بل يتعدى ذلك إلى اتهام القالي بالتقصير في النقل، والإخلال بما لم يقع عليه. وإذا كان بعض الدارسين (330) - اعتمادا على قول ابن خير (331) - قد اقتنع بأن القالي جعل من أهدافه، المفاخرة بما أضافه وزاده على المعجم الخليلي، فإن كلام صاعد يجيز لنا أن نجعل من سبق إلى التأليف أولى بالفخر. ويذكر نفس الدارس أن القالي، بما زاده على العين وصوبه منه، قد وضع أمام تلميذه أبي بكر الزبيدي المادة العلمية التي بنى عليها كتابه المستدرک على کتاب العين، ثم يصف الكتاب بأنه مصنف جمع فيه الزبيدي بين إيراد الزيادات، والانتقاد والتصويب، منوها بالردود والتصويبات التي أتى بها القالي على بعض مواد العين». (332) لكن نسبة صاعد ما ورد في بارع القالي إلى ابن سلمة، يجعلنا نتساءل عن مدى أصالة كتاب الزبيدي نفسه. فبتشكيك صاعد في أصالة بارع

(329) الفصوص ص: 1156 - 156 ب.

(330) أبو علي القالي ص: 297.

(331) فهرسة ابن خير ص: 354، حيث يقول، وهو يتحدث عن القالي وبارعه: «زاد على كتاب الخليل نيفا وأربع مائة ورقة، مما وقع في العين مهملا، فأملأه مستعملا».

(332) أبو علي القالي ص: 298.

القالى، يكون قد شكك فى أصالة كتاب الزبيدي أيضاً. وقد يرد على هذا الذى ذهبنا إليه بأن صاعداً كان يعتمد، للتشكيك فى علم القالى وتلامذته، نفس الأسلوب الذى شكك به، هؤلاء التلاميذ فى علم صاعد؛ إلا أن ما ورد فى مقدمة القطع المحققة من كتاب البارع، يجعلنا نطمئن إلى أن ما قاله صاعد، كان وصفاً حقيقياً لهذا المعجم. فمحقق هذه القطع الذى لم يقرأ الفصوص، يعتمد على دراسته لما تبقى من البارع، ليصل إلى أن هذا الكتاب يفتقر إلى الأصالة التى تجعله متميزاً عن العين: «... لكننى بعد أن حققت النص، وقعت على حقيقة طريفة جديدة بالإعلان، هي أن البارع ما هو إلا كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي» (333) أما علاقة بارع القالى ببارع المفضل بن سلمة، فقد قال عنها المحقق: «وسبقه المفضل بن سلمة فى تأليف «بارع»، موضوعه وثيق الصلة بموضوع بارع القالى» (334) ونبه مرة ثانية إلى هذه العلاقة فقال: «وتسمية الكتاب كما قلنا مسبوق إليها، من قبل المفضل بن سلمة. ومن المصادفات الجديدة بالانتباه، أن بارع المفضل بن سلمة هو فى الرد على كتاب العين» (335) فإذا كان المحقق قد انتهى إلى هذه النتائج فى عصرنا، فإن ما وصف به صاعد - فى القرن الرابع - كتاب البارع، رغم كونه تجريح منافسة، يظل كلام عالم باللغة خبير، يصف ما وصفه عن علم ودراية، إلا إذا كشف العثور على ما ضاع من الكتاب، عما يخالف ذلك، كما تكشف اليوم أول نسخة تخرج إلى القارئ المعاصر، من كتاب الفصوص، عن أن جل ما اتهم به صاعد كان تحاملاً.

(333) البارع فى اللغة: (مقدمة التحقيق) ص: 64.

(334) البارع فى اللغة: (مقدمة التحقيق) ص: 61.

(335) البارع فى اللغة: (مقدمة التحقيق) ص: 67.

ب) صاعد والأمالى :

إذا كان موقف صاعد من البارء، قد تجلى فى تنبیه تلامذة القالى وغيرهم على أن مجهود المصنف فى هذا الكتاب لم يتعد النقل من كتابى ابن سلمة وابن دريد، فإن موقفه من كتاب الأمالى والنوادر، الذى شغف به الأندلسيون فى عصره، نحا منحى آخر، تمثل فى محاولته التعفية على آثار القالى وكتابه، وإن كان قد سكت عن هذا فى مقدمة كتابه الفصوص. فكل الأخبار التى تحدثت عن مناسبة تأليف الفصوص، ذكرت أنه ألفه على غرار كتاب الأمالى والنوادر، وتميزت بالإشارة إلى أن صاعدا ألزم نفسه - وهو يعد المنصور بأن يؤلف له كتابا أرفع قدرا من كتاب القالى - بالأى يدخل فى مصنفه خبرا مما ورد فى الأمالى. وعند مقارنة الأمالى بالفصوص، نلاحظ أن صاعدا سلك فى محاولته التفوق على القالى طرقا مختلفة نجلها فى:

I - النظر إلى الأمالى باعتباره كتابا كباقي كتب الأدب العام.

II - إيراد ما ورد فى الأمالى، مع تكملة ما اعتبر نقصا فيه، أو تصحيح ما اعتبر خطأ.

III - النظر إلى موضوع بعض ما ورد فيه من المطالب، مع إيراد صياغة ثانية له.

IV - تجاوز ما ورد فيه، إلى عيون نادرة لم يسمع بها تلامذة القالى من قبل.

ويعود هذا التنوع فى النظر إلى الأمالى، إلى أن صاعدا كان يدرك أن التفوق على هذا الكتاب، لا يمكن أن يتم بتناسيه مطلقا، لأن التجاوز لا يتأتى إلا بعد التقليد.

I - النظر إلى الأمالي باعتباره أحد كتب الأدب العام :

أشرت في مبحث سابق، (336) إلى أن الفصوص والأمالي معا ينتميان إلى مجموعة من المصنفات، تندرج تحت ما وصفناه بأدب الأنس والدرس؛ وهي المصنفات التي قصد أصحابها من تأليفها إلى جعلها مصدرا للمتعة والفائدة معا. ولتحقيق هذه الغاية، كان تنويع المادة العلمية للكتاب أول ما يهتم به المصنف. وإذ كانت هذه غاية الأمالي والفصوص، فإن تنويع موضوعات الكتابين، كان مما اهتم به القالي وصاعد. هذا الالتزام بمنهج التنويع، كان مما جعل صاعدا يبني فصوصه على نفس المطالب الكبرى، التي بنى القالي عليها أماليه، وأقصد بذلك الفصوص والمطالب التي بنيت على تفسير الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والمباحث النحوية والصرفية، والأخبار والمواعظ والحكم، وشرح الغريب، والمختارات الشعرية والأدبية... من حيث اعتبار هذه المادة العلمية فنونا كبرى تتنوع موضوعاتها الفرعية، فهذه الفنون هي جوهر التأليف في الأدب العام، والتخلي عنها لا يتأتى إلا بالتخلي عن هذا النوع من التصنيف.

II - إيراد نفس ما ورد في الأمالي، مع تكملة نقصه وتصويب خطئه :

والمقصود بالنقص والخطأ هنا، ما اعتبره صاعد كذلك، ليجعله وسيلة إلى تكرار نفس ما أورده القالي في أماليه؛ والملاحظ أن القارئ يتوهم أحيانا أن صاحب الفصوص يكرر ما أورده القالي بنصه، لكن التأمل يكشف دائما عن جانب يميز به صاعد ما نقله هو، عما نقله القالي. ففي مطلب الأعمى وقائده الشاب مثلا، يقول القالي: «وحدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال: حدثنا السكن بن

(336) المبحث الأول من المدخل الثالث.

سعيد، عن هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه قال: رأيت ببيشة رجلا من أزد السراة أعمى يقوده شاب جميل وهو يقول له: ياسمي، لا يغرنك أن فسح الشباب خطوك، وخلي سربك، وأرفه وردك، فكأنك بالكبر قد أرب طوفك وأثقل أوقك، وأوهن طوقك، وأتعب سوقك، فهدجت بعد الهملجة، ودججت بعد الدعلجة، فخذ من أيام الترفيه لأيام الانزعاج، ومن ساعات المهلة لساعة الإعجال...» (337) ويورد صاعد نفس الخبر قائلًا: «وقرأت على أبي سعيد رحمه الله: حدّث ابن دريد، عن السكن بن سعيد، عن العباس بن هشام، عن أبيه هشام بن محمد السائب، عن أبيه قال: رأيت ببيشة رجلا من أزد السراة أعمى، يقوده شاب جميل الوجه وهو يقول: يَا سَمِيَّ لَا يَغْرُنْكَ أَنْ فَسَحَ الشَّبَابُ خَطُوكَ، وَخَلَّى سَرْبَكَ، وَأَرْفَدَ قَدْرَكَ، فَكَأَنَّكَ قَدْ أُرْبَ طَوْقُكَ، وَأَثْقَلَ أَوْقُكَ، وَأَتْعَبَ سَوْقُكَ، فَهَدَجْتَ بَعْدَ الْهَمْلَجَةِ، وَدَرَجْتَ بَعْدَ الدَّعْلَجَةِ، فَخُذْ مِنْ أَيَّامِ التَّرْفِيَةِ لَأَيَّامِ الْإِتْرَاعِ، وَمِنْ سَاعَاتِ الْمُهْلَةِ لِسَاعَاتِ الْإِعْجَالِ...» (338) والتشابه واضح بين مطلب القالي وفص صاعد، إلا أن المقارنة الدقيقة تكشف لنا (339) عن حلقة في السند يزيد بها صاعد بين السكن وهشام، ليصبح الإسناد إلى ابن دريد، عن السكن، عن العباس، عن هشام، عن أبيه. وتكشف المقارنة أيضا عن زيادة في الشرح يزيد بها صاحب الفصوص، وعن ورود القسم الأول لنصف البيت الذي استشهد به القالي، مع نسبة البيت إلى قائله، خلافا لما ورد في الأمالي.

وينقل القالي، مسندا إلى ابن دريد، خبر أم الضحاك المحاربة، والأبيات التي قالتها عندما طلقها زوجها الضبابي، فيقول: «وقرأت

(337) الأمالي 312/2.

(338) الفصوص ص: 178 - 78 ب.

(339) مع تجاوز الفروق اليسيرة التي تعود إلى تصحيف بعض ما ورد في الأمالي.

على أبي بكر بن دريد رحمه الله تعالى قال: كانت أم الضحاك المحاربة تحت رجل من بني الضباب، وكانت تحبه حبا شديدا، فطلقها، فقالت: (طويل)

1 — هَلِ الْقَلْبُ إِنْ لَأَقَى الضَّبَابِيَّ خَالِيًا
لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصَّفَا مُتَحَرِّجُ

2 — وَأَعْجَلْنَا قُرْبُ الْمَحَلِّ وَبَيْنَنَا
حَدِيثٌ كَتَنَشِيجَ الْمَرِيضَيْنِ مُزْعِجُ

وروى أبو عبد الله: كتنشاج...» (340) فينقل صاعد نفس الخبر دون تسمية المرأة، مسندا الخبر إلى الراوية الكوفي أبي عمرو الشيباني تلميذ المفضل الضبي. والإسناد إليه أقوى من إسناد القالي إلى ابن دريد، لتقدمه زمنا عليه، ولأخذه عن المفضل أحد أقدم رواة الكوفة. ويستمد سند صاعد قوته من كونه ينقل عن خط عمرو الشيباني في أشعار ضبة، (341) بروايته ورواية أبيه أبي عمرو. والنقل من خط عمرو، كالرواية السماعية عنه. هذا الإسناد إلى عمرو بن أبي عمرو الشيباني، والنقل من أشعار ضبة، يفسر مخالفة صاعد للقالي في ذكر مناسبة الأبيات، فالقالي ينسب الشعر إلى أم الضحاك، بينما ينسبه صاعد إلى امرأة عشقت رجلا من الضباب: «وأنشد أبو عمرو الشيباني لامرأة عشقت رجلا من الضباب: (طويل)

هَلِ الْقَلْبُ إِنْ لَأَقَى الضَّبَابِيَّ خَالِيًا لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصَّفَا مُتَحَرِّجُ (342)

(340) الأمالي 2/86.

(341) الفصوص ص: 16 أ.

(342) الفصوص ص: 19 أ.

ومن الأخبار التي نقلها القالي، خبر اجتماع وفود العرب بباب سلامة ذي فائش لتعزيته، وما قالوه في التعزية. (343) ونقل صاعد نفس الخبر، (344) لكنه زاد على إسناد (345) القالي، فأصبح عن ابن الكلبي عن أبيه عن أبيه. وترك الخبر بدون شرح، وكأنه كان يعتبر شرح القالي لبعض ألفاظ الخبر، مغنيا عن إعادة الشرح، إن لم يكن قصد بترك الشرح الترفع عن شرح ما اعتبره من المستعمل المفهوم من الألفاظ.

وكان الفصل الذي ذكر فيه صاعد القالي بالاسم، نموذجا لهذا التناول المصحح لمطالب القالي في أماليه، إذ يضيف صاعد إلى أسماء القيم على المال التي ذكرها القالي في أماليه (346) أسماء أخرى هي: الترعاية، والحبل، والأيل، والليل، والدمنة، (347) رواية عن أبي الشيخ العقلي الذي وصفه بأنه كان من فصحاء عكيل. وما يعيننا من هذا الفصل هو تصريح صاعد بأن هذه الزيادات، جعلت أحد تلامذة القالي يعترف له ضمنا بالتفوق على صاحب الأمالي: «ثم قال أبو بكر: إن أبا إسماعيل بن القاسم البغدادي رحمه الله، ذكر في هذا عدة أسماء، يعني في القيم على المال. فما الذي تحفظ فيه؟ فعددت له ثمانية عشر اسما؛ فأقبل أبو بكر على مولانا المنصور أبقاه الله، فقال: يامولانا، لم أعلم أني رأيت الذي رأيت، وإن أبا علي نفض كتب المستنصر رضي الله عنه على تأليفه، فلم يورد في هذا المعنى إلا سبعة أسماء أو ثمانية، وقد عدّ هذا على ثمانية عشر اسما، إن هذا لحفظ عظيم. ثم قلت: وما

(343) الأمالي 99/2 - 100.

(344) الفصوص ص: 60 ب.

(345) يقول القالي: «وحدثنا أبو بكر بن الأنباري، قال حدثنا عمي عن أبيه عن ابن الكلبي عن أبيه قال...».

(346) الأمالي 322/2.

(347) الفصوص ص: 25 وكل هذه الكلمات مضافة إلى «مال».

أعجبك مما رأيت، وأنا أشرح الغريب المصنف في أربعة أمثاله، فأُعْني ملتَمِس هذا العلم أن ينظر بعده في شيء من كتب اللغة. فقال: إذا فعلت هذا فأنا أول غاد إليك ورائح عنك، والله المعين» (348). إن مثل هذا الاعتراف كان الغاية التي سعى إليها صاعد، من خلال مشاركته للقالِي في إيراد نفس المطالب، مع الزيادة عليها، أو التصويب الضمني لبعض ما ورد فيها.

III - النظر إلى موضوع ما أورده القالي، مع إيراد صياغة ثانية له :

ونكتفي للتمثيل لهذا الأسلوب في البحث عن التفوق، بالمقارنة بين مطلبِي الرُّطْب والعنب، ثم العنز الضالة، وفصي النخل والكرم، ثم الإبل الضالة، لدى القالي وصاعد. يقول القالي: «وحدثنا أبو عبد الله رحمه الله قال: حدثنا إسماعيل بن إسحاق... قال: ذكروا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أيهما أطيب، العنب أم الرطب؟ فقال عمر: أرسلوا إلى أبي حثمة. فقال يأبأ حثمة: أيهما أطيب: الرطب أم العنب؟ فقال: ليس كالصقر في رؤوس الرقل، الراسخات في الوحل، المطاعم في المحل، تحفة الصائم، وتعة الصبي، ونزل مريم بنت عمران، وينضج ولا يعني طابخه، ويحترش به الضب من الصلعاء، ليس كالزبيب الذي إن أكلته ضرست، وإن تركته غرثت...» (349) ويقول صاعد: «وذكروا أن عمر بن الخطاب سأل رجلاً من أهل الطائف: الحبة خير أم النخلة؟ يعني شجرة الكرم. فقال الطائفي: الحبة أتزبيبها وأتسننها، وأصلح بها برمتي، يعني الخل، وأناام في ظلها. فقال: لو حضرك رجل من أهل يثرب رد عليك قولك. قال: فدخل عبد الرحمان بن

(348) الفصوص ص: 125.

(349) الأمالي 2/ 58.

محسن البخاري، فأخبره عمر خبر الطائفي، فقال: ليس كما قال،
 إني إن أكل الزبيب أضرس، وإن أدعه أغرث، ليس كالصقر في
 رؤوس الرقل، الراسخات في الوحل، المطاعم في المحل، تحفة
 الكبير وصمته الصغير، وزاد المسافر، وعصمة المقيم، ينضج فلا
 يعني طابخا. تحترش به الضباب بالصلعاء، وتخرسة مريم ابنة
 عمران. فقال عمر: أراك يا أخا الطائف إلا وقد غلبت...» (350)
 فالموضوع كما يظهر في الخبرين واحد، لكن الرواية التي يوردها
 صاعد، تجعل الفصل لتأخر زمن إملائه عن زمن إملاء مطلب
 القالي، أطرف. وتبدو رواية القالي أقوى، لإسناده الخبر إلى
 شيوخه، إلا أن استهلال صاعد الفصل بقوله، «وذكروا» لا يضعف
 روايته، فالخبر بلفظه وارد في كتاب النخلة (351) للسجستاني،
 والنقل من الخطوط المنسوبة كان سنداً لصاعد في بعض رواياته.
 أما الفصل الذي نقل فيه صاعد خبر الأعرابي وإبله الضالة، فقد
 كان بطوله (352) وكثرة غريبه، وما تلا ذلك من شرح وتفسير
 مسهب وشواهد شعرية، بديلاً من المطلب القصير الذي ضمنه
 القالي غريباً قليلاً وشرحاً مقتضياً، وهو ينقل خبر وصف الغلام
 للعنز التي أضلها: «وحدثنا أبو بكر رحمه الله قال: أخبرنا عبد
 الرحمان، عن عمه، عن أبي عمرو بن العلاء قال: رأيت باليمن
 غلاماً من جرم ينشد عنزاً له، فقلت: صفها يا غلام. قال: حسراء
 مقبلة، شعراء مدبرة، ما بين غثرة الدهسة وقنوء الدبسة، سحاء
 الخدين، خطلاء الأذنين، فشقاء الصورين، كأن زنميتها تتوا
 قلنسية، يالها أم عيال وثمان مال». (353) وما يجدر التنبيه عليه في

(350) الفصوص ص: 112.

(351) كتاب النخلة ص: 119.

(352) انظر الفصل بأكمله في الفصوص ص: 168 - 172.

(353) الأمالي 34/1.

فص صاعد، أن الذي حدث السيرافي بخبر الإبل الضالة هو نفسه أبو بكر بن دريد، شيخ القالي الذي حدثه بخبر العنز الضالة؛ وفي إسناد الخبر إلى ابن دريد، ما يوحي بأن صاعدا كان يذكر تلامذة القالي بأن تأخر زمانه عن زمان ابن دريد، لم يمنعه من أن ينقل عنه - وهو شيخ شيخهم - ما لم يروه شيخهم نفسه.

وقد يكون التحول من الجد إلى الهزل، كافيا لدى صاعد، لتمييز الفص عن المطلب، وإن كان الموضوع واحدا. فالقالي يورد في سياق الجد، خبرا يستخلص منه أن اجتماع الخصال الحميدة كلها في رجل واحد مع إمكانه، لا يتم. وصاعد يورد خبرا نستخلص منه نفس الفائدة، لكن ما يميز فص صاعد غلبة الفكاهة على الجد في الخبر الذي يتضمنه. يقول القالي: «وحدثنا أبو بكر: قال: كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي: أما بعد، فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذي عفة ونزاهة طعمة، قد هذبتة الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه، إن أوّتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه، له سن مع أدب ولسان، تقعه الرزانة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة وترشده السكّة..... وقد أثرتك بطلبه، وحبوتك بارتياحه، ثقة بفضل اختيارك، ومعرفة بحسن تأتيك. فكتب إليه: إني عازم أن أرغب إلى الله جل وعز حولا كاملا في ارتياد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل الثقات في الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله بالإجابة، فأفوز لديك بقضاء حاجتك والسلام». (354) ويقول صاعد: «وروى المرزباني، عن ابن السراج، عن محمد بن يزيد، عن العتبي، قال:

(354) الأمالي 1/ 249.

كتبت أم محمد بن مروان إلى عامل المدينة: أن اطلب لي غلاما، ورعا، تقيا، عالما، أديبا، فقيها، كاتباً، أميناً، حاسباً. فكتب إليها: قد طلبت هذه الصفة فلم أجد إلا علي بن الحسين، أو عبد الله بن عمر، وأهلهما يأبون بيعهما». (355)

VI - تجاوز ما ورد في الأمالي إلى عيون لم ترد فيه :

هذا التجاوز هو الأسلوب الذي اختاره صاعد لتحدي أمالي القالي. وتعد كل الأخبار، والاختيارات، والشروح، والمباحث التي وردت في كتاب الفصوص، دون أن ترد في الأمالي - نظريا - وسائل توصل بها صاعد إلى تحقيق هذا التجاوز. إلا أن عمق التحدي، لم يكن يكمن في الإتيان بما لم يأت به القالي في أماليه، فرواية ما لم يروه القالي لا تشهد لصاعد بفضل التفوق، إذا كان المروي من المشهور المتداول. إن جوهر التحدي يكمن في الإتيان بما ند عن الأمالي، والكامل، وما أشبههما من كتب النوادر؛ (356) ولا يكون هذا متأثراً للعالم، إلا إذا كان يمتح من معين علمي لا يمتح منه غيره. ويبدو أن صاعداً كان - وهو يختار هذه الطريقة في تحدي الأمالي - يريد أن يسلك نفس المسلك الذي سلكه أبو علي القالي، لبناء مجده العلمي في الأندلس. فالقالي يصرح في خطبة أماليه بأن ما صنّفه وأملاه، كان علما مصونا بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، منزها عن أن يذاع عند من يجهل مكانه: «... ثم أما بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة على خير البشر ﷺ، فأني لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة، فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية. ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت ذهني بحفظه، حتى حوت خطيره، وأحرزت رفيعه،

(355) الفصوص ص: 103.

(356) الفصوص ص: 1 ب.

ورويت جليله وعرفت دقيقه، وعقلت شارد، ورويت نادره، وعملت غامضه، ووعيت واضح. ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، ونزهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه، وأبديه لمن يعلم فضله، وأجلبه إلى من يعرف محله، وأنشره عند من يشرفه، وأقصد به من يعظمه... فغبرت برهة ألتمس لنشره موضعا، ومكثت الدهر أطلب لإذاعته مكانا، وبقيت مدة أبتغي له مشرفا، وأقمت زمنا أرتاد له مشتريا، حتى تواترت الأنباء المتفقة... بأن مشرفه في عصره أفضل من ملك الوري، وأكرم من جاد باللهي... الحكم ولي عهد المسلمين، وابن سيد العالمين، أمير المؤمنين عبد الرحمان بن محمد، الإمام العادل، الخليفة الفاضل.... فخرجت جائدا بنفسي، باذلا لحشاشتي، أجوب متون القفار، وأخوض لجج البحار، مؤملا أن أوصل العلق النفيس إلى من يعرفه... وأعرض الرفيع على من يشتريه، وأبذل الجليل لمن يجمعه ويقتنيه، فمن الله جلّ وعزّ بالسلامة... حتى حلت بعصره الخواف... فناء أمير المومنين عبد الرحمان بن محمد... وصحبت الحيا المحسب، والجواد المفضال الحكم... فتابعا لديّ النعمة، وواترا عليّ الإحسان، حتى أبديت ما كنت له كاتما، ونشرت ما كنت له طاويا، وبذلت ما كنت به ضنينا، ومذلت بما كنت عليه شحيحا، فأملتُ هذا الكتاب من حفظي..... وأودعته فنونا من الأخبار، وضروبا من الأشعار، وأنواعا من الأمثال، وغرائب من اللغات. على أنني لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته، ولا ضربا من الشعر إلا اخترته، ولا فنا من الخبر إلا انتخلته....» (357) وصاعد أيضا يذكر أن المنصور أمره أن يجمع له من حفظه «ما استطف من نخيلة شعر، وغريبة خبر، وعقيلة كلم، ندت عن الكتب المتداولة كالكمال وغيره من كتب

(357) الأمالي 1/1 - 3.

النوادر؛ إذ قد تساوى الناس في تعاورها، وتكافؤوا في نقلها» (358) إلا أن المصون الذي أذاعه القالي، يختلف عن المضمنون به الذي أذاعه صاعد. فالقالي صان بالكتمان، ما كان قد سمعه من شيوخه أيام اغترابه للرواية والدراية؛ بينما كان المصون الذي أذاعه صاعد، مما صانه كبار العلماء والشيوخ عن التلاميذ أنفسهم، استثنائاً به، واختصاص بحسنه: «.... حتى ولاني الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، تغمد الله خطاياه، خزانة كتبه، فأصبت فيها خطوط العلماء وأصولهم، التي استأثروا بها لأنفسهم دون الناس، إذ لا بد لكل عالم من أثيرة مجموعة لخاصته، غير ما يذيعه للطلبة عنها. ووجدت في كتب الخلافة التي خرجت في نهب دار المقتدر، بخط الأصمعي، والفراء، وأبي زيد، وابن السكيت، وابن الأعرابي، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأبوي العباس: المبرد وثعلب، وغيرهم، عيونا من علم العرب، لم يصنف في شيء من الكتب ضناً بها، واختصاصاً بحسنها» (359) وليس هؤلاء الطلبة الذين ضن عليهم شيوخهم ببعض العلم وعيونه، إلا شيوخ شيوخ القالي. فهل كان القالي قادراً على أن يروي من العيون والنفائس، ما لم يروه شيوخه ولا شيوخ شيوخه أنفسهم؟ إن صاعدا وحده كان يستطيع أن يتحف علماء الأندلس بهذه النفائس التي استأثر بها كبار العلماء لأنفسهم. وإذا كان القالي قد صان ما حصله من العلم، وأبى أن يعرضه على من لا يجزل ثمنه، (360) فإن صاعدا أثر أن يذيع في الأندلس ما لم يذعه في المشرق من المعارف العزيزة، التي كانت نقلاً عن خطوط كبار العلماء، لا رواية عن الشيوخ، خشية أن يحين أجله فتموت بموته: «... وحذرتُ خِلاجَ الأجل،

(358) الفصوص ص: 1 ب.

(359) الفصوص ص: 12.

(360) الأمالي 1/1.

واعتياق طوارق العلل، فيموت بموتي ما وعيته، ويدرج في ضريحي ما حفظته، وأشفقت من المأثور عن النبي ﷺ: «من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار». ولم أضمن كتابي إلا ما نقلته من خط منسوب، أو تلقيته من في عالم، فلم أسطره إلا في سويداء القلب، حذار أن يزيغ عن الذكر، أو أعول على تضمين الكتاب؛ وتصنيف المرء مجالة عقله، فلينظر فيه ابن العم، والصديق الأحم، فإن رأى حسنة قال، وإن رأى سيئة أقال، فخيراً أردت، ومضنونا به أذعت، وذخيرة أشعت، وعند الله الجزاء، ومنه التوفيق، وعليه التكلان». (361) هذه العيون المصونة التي وعد صاعد الأندلسيين بإذاعتها، كانت الوسيلة التي اختارها لتجاوز القالي والتفوق عليه؛ لكنه لم يكن يعلم أن هذه الوسيلة نفسها ستكون سببا في وقوع ما أورده في حيز الارتياب تارة، وحيز الرد تارة أخرى، كما صرح بذلك هو نفسه. (362) إن الرغبة في التعفية على الأمالي بالفصوص، لم تكن - كما ذكرت - إلا وجهها من أوجه الصراع بين ثقافة القرن الثالث وأوائل الرابع، الوافدة إلى الأندلس، وثقافة النصف الثاني من القرن الرابع التي انتقلت إلى الأندلس بانتقال صاعد إليها. وإذا كان الحاجب المنصور قد جنى من حمايته لصاعد، كتابا خلد اسمه كما خلد الأمالي اسم الخليفة الناصر، فإن المبالغة في الحديث عن أثر السياسة في إذكاء نار الصراع بين صاعد وتلامذة القالي ومدرسته، قد تصرفنا عن تمثيل حقيقة هذا الصراع. إن المواجهة بين صاعد وتلامذة القالي، كانت أعمق من أن تعد مظهرا سطحيًا للحرب الخفية التي كانت تجري بين سلطة الخلافة المقوضة وسلطة الحجابة الناشئة.

(361) الفصوص ص: 12.

(362) الفصوص ص: 156 - 156 ب.

لقد كان صاعد يخشى أن يحين أجله، فيموت بموته ما وعاه وحفظه من عيون العلم؛ وإذا كان حديث الرسول ﷺ، قد حثه على أن يذيع من عيون علم العرب المضمون بها، ما لم يصنف في شيء من الكتب، فإن مما نأمله اليوم بإخراج كتاب الفصوص إلى القارئ، أن نكون قد حققنا مرة ثانية ما هدف إليه مصنفه، من إذاعة هذه العيون. فكثير من الذخائر التي كان صاعد قد أشاعها، لا توجد اليوم إلا في هذا الكتاب، كتاب الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار.

■ فهرس عام ■

- 1 - فهرس الأعلام
- 2 - فهرس القوافي
- 3 - فهرس المصادر والمراجع
- 4 - فهرس الموضوعات

1 - فهرس الأعلام

الصفحات

الأعلام

- أ -

291	- أبان بن طارق
78 - 69 - 41 - 35	- ابن الأبار القضاعي
228	- الأبشيهي
303 - 282	- الأثرم
170 - 143 - 41 - 35	- ابن الأثير (عز الدين)
56	- إحسان عباس
273	- الأحوص بن جعفر
56	- أحمد أمين
202	- الأحنف البكري
295 - 284 - 283 - 281 - 164 - 163 - 156	- الأخفش (أبو الحسن)
169	- الأخفش (علي بن سليمان)
228	- إخوان الصفا
209 - 138 - 33	- ابن الأرزاق
30 - 29	- ابن أرقم
168	- الأزجي
173 - 145	- الأزدي (أبو الحسن)
69 - 36 - 35	- الأزدي (علي بن ظافر)
173	- ابن الأزرق (القاضي أبو بكر)
319 - 318 - 92 - 49 - 48	- ابن الأزرق

158	- الأزرق (أبو عمر بن محمد)
168 - 163	- الأزهري (يحيى بن عدي)
315	- إسحاق
292	- الأسدي (عبد الواحد)
173 - 168	- الاسفرائيني (أبو حامد)
236	- أسماء
331	- إسماعيل بن إسحاق
208	- الأصبحي أبو الحسن (علي بن محمد)
29	- أبو الأصبغ بن أرقم
- 205 - 155 - 151 - 150 - 144	- الأصمعي
- 256 - 255 - 245 - 236 - 212	
- 281 - 272 - 266 - 264 - 259	
- 297 - 296 - 288 - 286 - 283	
- 306 - 302 - 301 - 299 - 298	
336 - 322 - 312	
173 - 163 - 158	- الأصبهاني (الحسين بن المنذر)
228	- الأصفهاني (الراغب)
228 - 226 - 225 - 164 - 66 - 59 - 16	- الأصفهاني (أبو الفرج)
58 - 16	- الأصفهاني (أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن)
306 - 263 - 259 - 258	- الأعشى
- 275 - 171 - 155 - 148 - 144	- ابن الأعرابي
- 301 - 299 - 296 - 295 - 285	
336	

318 - 49	- الأعمش
240	- الأعور الشني
286 - 281 - 265 - 264	- الأقرع
273	- الأقرع بن حابس
56	- ألبير مطلق
163	- الأمدي (الحسن بن بشر بن يحيى أبو القاسم)
321 - 302 - 38 - 22	- امرؤ القيس
318 - 46	- أمية بن أبي الصلت الثقفي
299 - 281 - 156	- ابن الأنباري (أبو بكر)
284 - 282	- الأنصاري (أبو زيد)
317	- أيمن بن خريم

- ب -

281	- الباهلي
303 - 281 - 182	- البحتري
293 - 137	- البخاري
273	- بدر بن عمرو
48	- البدري
125 - 105 - 104 - 68 - 66 - 29	- ابن برد (أبو حفص)
215 - 202 - 193	
56	- بروكلمان
142	- ابن بري
30 - 28 - 27 - 26 - 25 - 24 - 23	- ابن بسام
46 - 41 - 38 - 37 - 36 - 31 -	

75 _ 74 _ 73 _ 70 _ 69 _ 64 _ 51

_ 91 _ 90 _ 84 _ 82 _ 81 _ 76 _

_ 105 _ 104 _ 103 _ 101 _ 100

_ 133 _ 132 _ 131 _ 117 _ 116

_ 149 _ 140 _ 139 _ 136 _ 134

_ 203 _ 196 _ 190 _ 188 _ 178

322 _ 320 _ 304

135 - 46 - 42 - 23

316 - 305 - 258

307

80 _ 45 _ 41 _ 40 _ 39 _ 34 _ 33

_ 140 _ 113 _ 103 _ 101 _ 84 _

316 _ 213 _ 208 _ 203 _ 194

167

292 - 201 - 192 - 170

330 - 170 - 152 - 26

16 هـ

50

166 - 165

312

316 - 315 - 314 - 204 - 19 - 17

189 - 94 - 93 - 56

56

- بشار الأعمى

- بشار بن برد

- بشر بن أبي خازم

- ابن بشكوال

- البصري (أبو عبد الله)

- ابن بطة (عبيد الله بن محمد

بن محمد العكبري)

- البغدادي (أبو علي بن

القاسم)

- البغدادي (عبد القادر)

- أبو البقاء عبد الله البدري

- ابن البقال (أبو الحسن علي

بن محمد)

- أبو بكر الصديق

- البكري (أبو عبيد)

- بلاشير

- بلانثيا

- 16 - بهاء الدولة البويهى
 209 - 166 - 109 - 108 - 58 - البويهى (عز الدولة)
 153 - ابن البيع (أبو علي)
 258 - بيهس

- ت -

- 173 - 158 - الترجماني أو البرجماني
 (أبو جعفر محمد بن عيسى)
 302 - 287 - 258 - أبو تمام
 173 - أبو تمام (الهاشمي)
 291 - 283 - 251 - 228 - 168 - 165 - التـنـوخي (المحسن بن علي
 بن محمد أبو علي)

- ث -

- 178 - 171 - 169 - 156 - 143 - - الثعالبي (أبو منصور)
 262 - 232
 280 - 259 - 171 - 156 - 155 - - ثعلب (أبو العباس)
 299 - 298 - 296 - 285 - 284 - 283 -
 281 - 336 - 318 - 305
 159 - ثعلبة بن عمير الحنفي
 166 - أبو ثعلب بن ناصر الدولة
 223 - ابن ثور (حميد)

- ج -

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) 220 - 221 - 222 - 223 - 225
- ابن جاشد البغدادي 52
- جامع بن مرخية الكلابي 166
- جحظة البرمكي 165 - 170
- ابن جراح 166 - 259
- جرير 306
- الجزيري (عبد الملك) 124
- جعفر بن علبة 302
- أبو جعفر المنصور 254
- جعفي (هو ابن سعد العشيرة) 286
- الجمل المصري 167
- جميل 258
- أبو جندب 146
- ابن أبي الجنوب 306
- ابن جني 16
- ابن الجوزي 164 - 168 - 169 - 170 - 249 - 291
- الجواس بن قعطل المذحجي 20 - 71 - 72 - 195 - 196
- الجوهري 47 - 93 - 141 - 142 - 163

- ح -

- حاجي خليفة 51 - 54 - 83 - 100
- ابن الحارث 250

- الحارثي 248
- الحامض (أبو موسى) 286 - 281 - 163
- ابن أبي حبة (محمد بن إبراهيم) 208
- ابن حبيب (محمد) 315 - 303
- أبو حثمة 331
- الحجاج 46
- ابن حجاج البغدادي (أبو عبد الله الحسن بن أحمد) 32 - 33 - 59 - 63 - 66 - 67 - 137 - 138 - 172 - 174 - 192 - 193 - 198 - 200 - 201 - 202 - 207 - 208 - 209 - 212 - 308
- الحجاري 52
- ابن حجة الحموي 228
- ابن حجر (الحافظ) 92 - 91 - 86 - 79 - 76 - 49 - 48 - 140 - 151 - 157 - 165 - 170 - 205 - 249 - 290 - 291 - 318 - 319 - 100
- ابن الحدادية (قيس) 305
- ابن الحذاء التميمي (أبو عمر ابن أحمد بن محمد بن يحيى) 212 - 211 - 210 - 207
- الحريري 69 - 36
- ابن حزم (شريح بن محمد) 22
- ابن حزم (أبو محمد) 91 - 79 - 63 - 62 - 49 - 46 - 39 - 33 - 100 - 105 - 125 - 137 - 140 - 204 - 205 - 212 - 213 - 215 - 315
- ابن حزم (مهاجر بن محمد) 214 - 204 - 79

- 333 - الحسن بن سهل
- 311 - أبو الحسن بن الناصر الأصم العلوي
- 259 - الحسن بن وهب
- 38 - أبو الحسن جعفر بن عثمان
- 212 - 211 - 210 - 206 - أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث
- 248 - ابن أبي حصين
- 173 - 49 - أبو حصين
- 171 - الحضرمي (محمد بن هارون)
- 316 - 305 - الحطيئة
- 292 - حفص بن عمر الأردبيلي
- 335 - 198 - 134 - 74 - الحكم (الخليفة)
- 371 - أبو حلتيت الصوفي
- 258 - 248 - حماد عجرد
- 263 - الحمدوني
- 173 - 149 - ابن حمزة (علي)
- 294 - ابن حمود الزبيدي
- 134 - ابن حمود (علي)
- 3 - 102 - 101 - 89 - 69 - 41 - 40 - 35 - الحموي (ياقوت)
- 316 - 212 - 140 - 17 - 19 - 20 - 21 - 22 - 23 - 28 - الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح)
- 39 - 38 - 36 - 35 - 33 - 31 - 46 - 49 - 53 - 62 - 69 - 71 - 72 - 86 - 87 - 91 - 100 - 101 - 103 - 106 - 113 - 140 - 194 - 200 -

- 204
- 248 - ابن حنبل
- 273 - الحنن
- 171 - 157 - 115 - 114 - 66 - 60 - 32 - ابن حنابلة (أبو الفضل جعفر بن الفضل)
- 193 - 172
- 34 - 33 - 32 - 28 - 23 - 19 - 18 - ابن حيان (أبو مروان بن حيان)
- 63 - 62 - 49 - 43 - 41 - 39 -
- 79 - 78 - 77 - 76 - 75 - 74 - 68
- 127 - 117 - 110 - 91 - 81 - 80 -
- 214 - 213 - 212 - 204 - 203 -
- 314 - 313 - 230 - 229 - 215
- 66 - 58 - 42 - 17 - 16 - 15 - أبو حيان التوحيدي
- 198 - 168 - 163 - 120 - 106
- 310 - 308 - 228 - 227 - 201
- 214 - 204 - 79 - ابن حيان (عمر)

- خ -

- 263 - 165 - الخالدي (أبو بكر)
- 263 - 165 - 146 - الخالدي (أبو عثمان)
- 173 - الخراساني (أبو حامد)
- 71 - الخزرجي
- 139 - 114 - 63 - 60 - 32 - ابن خشخاش
- 146 - الخصيبي
- 169 - 163 - 157 - 60 - 42 - 40 - 33 - الخطابي (أبو سليمان أحمد بن إبراهيم)

- ابن الخطيب 116 - 115 - 47
 - الخطيب البغدادي 292
 - الخفاجي 147
 - الخلال 168
 - ابن خلدون 222
 - خلف الأحمر 298
 - ابن خلكان 82 - 80 - 55 - 47 - 43 - 42 - 35
 - 140 - 103 - 101 - 92 - 85 - 83 -
 - 319 - 316 -
 - الخليل بن أحمد الفراهيدي 325 - 324 - 259 - 166
 - الخنوت بنت مخرمة بن أنيف 20
 - الخوانساري 140 - 102 - 101 - 88 - 83 - 55
 - الخولاني (محمد بن عبد الله 207 - 208 - 210 - 211 - 212 -
 بن الرحمٰن) 213 - 215
 - ابن خير الإشبيلي (أبو بكر 31 - 32 - 33 - 51 - 59 - 60 - 63
 محمد) - 66 - 68 - 70 - 77 - 91 - 100 -
 - 101 - 103 - 114 - 138 - 157 -
 - 210 - 211 - 212 - 213 - 215 -
 229 - 230 - 324
 - خيران العامري 183 - 135 - 134

- د -

- أبو دؤاد الإيادي 258
 - الداركي (عبد العزيز بن عبد 168 - 174
 الله)

- الدارقطني 115 - 164 - 171 - 291
 - ابن الدب (أبو جعفر) الوزير 70 - 131 - 132 - 133 - 190
 - ابن دراج القسطلبي 28 - 136 - 137 - 138
 - ابن دريد (أبو بكر) 21 - 147 - 156 - 161 - 163
 - 166 - 177 - 256 - 272 - 281
 - 283 - 295 - 299 - 309 - 323
 - 326 - 327 - 329
 - أبو دلامة 258
 - أبو دهل 306
 - الديلم 311

- ذ -

- أبو ذر عبد الرحمن بن أحمد 292
 الهروي
 - ذكوان العجلي 240
 - الذهبي (الحافظ) 45 - 84 - 100 - 140

- ر -

- رؤية 258
 - أبو رؤية 286
 - رجاء بن مرجئ 292
 - أبو رجاء الضبعي 30 - 314
 - أبو الراحيان 292
 - الراشدي (أبو الحسن) 36

- ابن رشيق القيرواني 174
 - ابن رفاعة الأندلسي 118
 - الركلي (أبو محمد) 214 - 204 - 79 - 41
 - الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى) 301 - 283 - 163 - 107

- ز -

- الزاهد (أبو عمر محمد) 304 - 299 - 172 - 157 - 114 - 63
 - الزاهي 176
 - أبو زبيد البكري 336 - 131
 - الزبيدي الأندلسي (أبو محمد بن حمود) 294 - 259 - 193 - 161
 - الزبيدي (أبو بكر) 117 - 116 - 114 - 113 - 27 - 26
 - 118 - 141 - 152 - 153 - 162 - 324
 - الزبير بن بكار 283 - 251
 - الزبيري (الشاعر صاحب صاعد) 23
 - الزجاج 284 - 283 - 163
 - الزجاجي 284
 - الزركلي 56
 - زرياب 197
 - زهدم 273
 - أبو الزهراء (الأعرابي) 272
 - الزهيري 53 - 36

- ابن زياد 291
- زياد بن شهاكويه 111
- زيري بن عطية 181

- س -

- ابن السائب (هشام بن محمد) 328
- ابن سابط 306 - 145
- السجستاني (أبو حاتم) 332 - 299 - 287 - 272
- سحيم 301 - 297 - 263 - 258
- ابن سراج (أبو مروان عبد الملك) 214 - 79 - 42
- ابن السراج 333 - 283 - 163
- سراج بن عبد الملك اللغوي 204 - 40
- السري الرفاء 263 - 176
- سعد التجوبي 319
- ابن سعدان 156 - 111
- ابن سعيد 70 - 67 - 53
- ابن سكرة (أبو الحسن محمد بن عبد الله) - 137 - 67 - 66 - 63 - 59 - 32
- 198 - 193 - 192 - 174 - 172
- 308 - 211 - 207
- السكري 281
- السكن بن سعيد 328 - 327 - 286 - 283 - 251
- ابن السكيت (يعقوب) - 207 - 205 - 156 - 155 - 32
- 336 - 299 - 281 - 210 - 209

- 330 - سلامة ذي فائش
- 189 - السلفي
- 303 - 118 - سلمة (الوزير)
- 131 - 128 - 127 - 105 - 70 - سليمان (ال خليفة)
- 178 - 139 - 134 - 133 - 132
- 190 - 183
- 265 - 247 - سوار بن مضرب
- 273 - سيف
- 167 - 166 - 146 - السميساطي (أبو الحسن
- علي بن محمد العدوي)
- 161 - 155 - 141 - 137 - 117 - - سيويه
- 282 - 281 - 276 - 263 - 259
- 55 - 43 - ابن سيد بن مقلس الأندلسي
- 62 - 55 - 43 - 33 - 30 - 29 - 17 - ابن سيده (أبو الحسن علي
- 206 - 205 - 137 - 136 - 135 - بن إسماعيل)
- 212 - 211 - 210 - 209 - 207
- 314 - 313
- 60 - 49 - 48 - 42 - 40 - 33 - 32 - السيرافي (أبو سعيد)
- 144 - 119 - 117 - 115 - 107 -
- 158 - 157 - 149 - 148 - 145
- 163 - 162 - 161 - 160 - 159
- 213 - 212 - 210 - 209 - 198
- 283 - 272 - 258 - 236 - 215
- 301 - 300 - 299 - 297 - 284
- 332 - 306 - 302
- 106 - 15 - ابن سورين

- ابن سينا 163
- السيوطي 277 - 88 - 87 - 55 - 50

- ش -

- ابن شاذان (أبو بكر بن إبراهيم) 157 - 168 - 169 - 251 - 283 - 291 - 309
- الشافعي 168 - 174 - 304
- ابن شاهين 291 - 292
- شبل بن الصامت المزني 264 - 322
- أبو شجاع (فناخسرو) 111 - 147
- شرحبيل بن سلامان 148 - 149 - 173 - 238 - 283 - 300 - 301
الأباضي
- شريح (بن محمد بن حزم) 35
- الشريشي (أبو العباس أحمد بن عبد المومن) 35 - 36 - 37 - 69
- الشريف الرضي 172 - 174
- الشريف الغرناطي 228
- الشريف المرتضى 228
- الشماخ 22 - 38 - 258 - 295 - 303 - 322
- شنجول (عبد الرحمن) 126 - 127 - 128
- ابن شهيد 23 - 36 - 48 - 53 - 115
- الشيباني (أبو جعفر محمد بن ورقاء بن نصلة) 170

- الشيباني (أبو عمرو) 237 - 266 - 281 - 286 - 299 -
 301 - 307
 329 - الشيباني (عمرو)
 330 - أبو الشيخ العقلي

- ص -

- 15 - الصابي (أبو إسحاق)
 232 - 15 - الصابي (أبو الخطاب)
 102 - صاعد بن الحسن الدمشقي
 - صاعد (أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي البغدادي)
 99هـ - صاعد بن عيسى (الكاتب الحلبى)
 199 - 189 - 149 - 140 - 78 - الصدفى (أبو علي)
 317 - 228
 85 - 83 - 69 - 47 - 46 - 41 - الصفدي
 103 - 101
 209 - 171 - 111 - 110 - 108 - صمصام الدولة بن عضد الدولة
 25 - الصنعاني (أبو الغوث)
 179 - 174 - الصنوبري

- ض -

- 328 - الضبابي
 173 - الضبعي (أبو الحسن)

- الضبي (أحمد بن يحيى بن 34 - 41 - 63 - 69 - 72 - 87 - 10
- أحمد بن عميرة) 100 - 140 - 194 - 315
- الضبي (المفضل) 281 - 284 - 299 - 301 - 329
- الضحاك 329
- ابن الضحاك (يوسف) 147 - 173
- أم الضحاك المحاربة 329 - 398
- الضريس البجلي (محمد بن 168
- أيوب بن يحيى)

- ط -

- ابن طباطبا العلوي 258
- الطبري 24 - 101 - 102 - 115 - 149
- الطبني (أبو عبد الله محمد 115
- بن الحسين)
- طرفة 307
- الطفيلي 291
- الطلمنكي (أبو عمر) 33 - 206
- الطوسي 281
- الطويل (أحمد) 15

- ع -

- العاصمي النحوي 21 - 22 - 26 - 27 - 37 - 63 - 117
- 118 - 141 - 152

- العامري (مجاهد بن عبد الله) 24 - 42 - 46 - 70 - 134 - 135 - 136 - 137 - 183 - 190 - 200
- عباد 29
- ابن عباد (الصاحب) 163 - 190
- أبو العباس بن نصير 146
- عبد الجبار (القاضي) 163
- عبد الجبار (الملقب بالمهدي) 29
- العباس بن هشام 328
- أبو عبدة (الوزير) 22
- عبدة بن الطبيب 118
- ابن عبد ربه (أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد) 224
- عبد الملك بن مروان 252هـ
- عبد الله بن طاهر بن الحسين 264 - 265
- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن معمر 59 - 63 - 211
- عبد الرحمن بن محسن البخاري 332
- عبد الرحمن بن محمد (ال خليفة) 335
- عبيد بن أيوب العنبري 148 - 149 - 171 - 263 - 300
- أبو عبيدة 148 - 268 - 297 - 298
- أبو عبيد القاسم بن سلام 169 - 205 - 211 - 287
- أبو عبد الله بن سعدان 111
- عبد الله بن عمر 334
- أبو عبد الله الحاكم 292

- ابن عتاب (أبو محمد عبد الرحمن بن محمد)
 23 - 31 - 32 - 63 - 77 - 78 - 80
 - 91 - 100 - 204 - 213 - 215
 230
 258
 - العتابي
 - أبو العتاهية
 42 - 258 - 305 - 316
 334
 - العتبي
 168
 - العتيقي
 312
 - عثمان بن عفان
 35 - 43 - 44 - 53 - 69 - 103 - 203
 214
 - ابن العريف (أحمد بن محمد بن موسى)
 24 - 25 - 27 - 36 - 41 - 53 - 54
 - 61 - 67 - 70 - 73 - 79 - 88
 89 - 95 - 115 - 117 - 120 - 121
 122 -
 162 - 187
 - العسكري
 149 - 150 - 151 - 171 - 193
 - عضد الدولة البويهی
 (فناخسرو)
 107
 - العطار (أبو الحسن)
 31
 - ابن العطار
 23 - 70 - 78 - 80 - 213
 20 - 71 - 195
 - عفراء
 43 - 47 - 317
 - ابن العلاف (أبو بكر)
 107
 - علقمة
 146
 - العلوي (علي بن حمزة)
 20 - 22
 - علي بن أحمد (أبو محمد)

291	- علي بن الجعد
306	- علي بن الجهم
334	- علي بن الحسين
73	- علي بن حيدر
316 - 301	- علي بن عيسى الربعي
317 - 166 - 42	- علي بن عيسى (الوزير)
311 - 259	- علي بن مهدي
147	- عليّة بنت المهدي (الأحنف)
- 103 - 100 - 84 - 83 - 54 - 51	- ابن العماد الحنبلي
147 - 140	
273	- عمر بن الأحوص
291	- ابن عمر
331 - 312 - 252	- عمر بن الخطاب
312	- عمر بن عبد العزيز
297	- أبو عمر النجدي
152 - 118	- أبو عمرو البصير
273	- عمرو بن جابر
249	- عمرو بن عبيد
306	- أبو عمرو بن العلاء
252	- عمرو بن معد يكرب
- 153 - 150 - 119 - 113 - 107	- ابن العميد (أبو الفتح)
- 194 - 193 - 166 - 162 - 160	
231	
159	- ابن عمير الحنفي
170	- العنبري (عبيد بن أيوب)

31 - 63 - 80 - 204 - 215

318

- عياض (القاضي)

- العيني

- غ -

122

- غرسية

256

- أبو غريب

33

- ابنا غصن

- ف -

16 - 198

- الفارابي

162

- ابن فارس

32 - 33 - 40 - 42 - 48 - 49 - 60

- الفارسي (أبو علي)

110 - 111 - 141 - 144 - 157 -

158 - 159 - 161 - 162 - 163 -

173 - 174 - 209 - 210 - 212 -

237 - 258 - 267 - 268 - 283 -

294 - 297 - 299 - 303 - 316

292

- فتح بن شخرف

155 - 281 - 299 - 302 - 303 -

- الفراء

312 - 323

169

- ابن الفرات (أبو الحسن)

174

- أبو فراس

148 - 238 - 300

- فرعان اللص

163 - 258

- أبو فرعون العدوي

- 363 -

- أبو فرعون المكي 163
 - الفرضي (أبو الحسن) 173
 - أبو الفضل (العباس بن الحسين) 106 - 15
 - الفيروز آبادي 200 - 103 - 102 - 101 - 89 - 87 - 48

- ق -

- أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف (الوزير) 40 - 103 - 108 - 110 - 111 - 112 - 113 - 149 - 154 - 155 - 156 - 171 - 189 - 209 - 280 - 321 - 336
 - القالي (أبو علي) 19 - 20 - 22 - 25 - 34 - 38 - 47 - 52 - 54 - 73 - 74 - 80 - 85 - 89 - 95 - 102 - 108 - 111 - 112 - 113 - 116 - 117 - 118 - 119 - 120 - 142 - 154 - 174 - 194 - 203 - 219 - 227 - 260 - 264 - 266 - 303 - 304 - 313 - 314 - 316 - 320 - 321 - 322 - 323 - 324 - 325 - 326 - 327 - 328 - 329 - 330 - 331 - 332 - 333 - 334 - 336 - 337 - 312
 - قتادة 312
 - ابن قتيبة (أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم) 225 - 224 - 174 - 166

- قرموطة الشيرازي 259 - 211 - 173 - 151 - 150 - 149 -

318

147

- القرمطي (أبو ماعز)

319

- القزاز

- ابن القزاز (أبو عثمان سعيد

بن عثمان)

- ابن القطاع (عيسى بن

125 - 124 - 69 - 44 - 28 -

سعيد)

183 - 126

- قطرب

282 - 15

- القطيعي (أبو بكر بن مالك)

33 - 40 - 42 - 60 - 84 - 157 -

158 - 163 - 169 - 170 - 291 -

304

- القطيني (أبو تمام غالب بن

عبد الله)

208 - 140 - 139 - 137 - 65

- القفطي (جمال الدين أبو

35 - 38 - 39 - 40 - 45 - 46 - 52

الحسن علي بن يوسف)

69 - 72 - 87 - 100 - 102 - 106

109 - 111 - 140 - 141 - 142 -

158 - 189 - 194 - 277 - 304

29

- ابن القوطية

166

- قيصر

- ك -

171

- كافور

- ابن الكتاني (أبو عبد الله)

17 - 33 - 68 - 100 - 103 - 138 -

212 - 213

229 - 93 - 92 - 85 - 47	- ابن كثير
56	- كحالة
315	- كراع
299 - 298	- الكسائي
166	- كسرى
263 - 240 - 194 - 189 - 37	- كشاجم
330 - 286 - 283 - 272 - 251 - 160	- ابن الكلبي
146	- الكلبي (أبو مقداد)
286 - 256 - 166	- الكلابي (أبو زيد)

- ل -

184م	- لبيد
263	- لقيم بن لقمان الحكيم
306 - 192	- ابن لنك (أبو الحسن علي)

- م -

248	- ابن ماجة
286 - 284 - 283 - 282 - 277	- المازني
292	- ابن مالك
21	- مبرمان بن يزيد
52 - 155 - 156 - 166 - 222	- المبرد (أبو العباس)
224 - 225 - 259 - 275 - 281	
282 - 283 - 284 - 286 - 318	
336	

- المتنبي (أبو الطيب) 16 - 59 - 66 - 107 - 149 - 162 - 164
192 - 174
- المتوكل 182
- متى بن يونس 16
- مجنون بني عامر 196 - 27
- المحاملي (أبو الحسن محمد بن أحمد القاسم) 166
- محمد رسول الله ﷺ 291 - 229 - 223
- محمد بن أبي عامر 44
- محمد بن سماعة القاضي 333
- محمد بن يزيد 333
- محمود علي مكي 204 - 56
- المدائني 286 - 283 - 281 - 251 - 250
- مراد (المعروف بيحابر بن مذحج) 286
- المراغي (أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني) 166 - 158
- المراكشي (عبد الواحد) 89 - 87 - 71 - 69 - 41 - 40 - 38 - 37 -
196 - 194 - 140 - 103 - 100
- مرثد 273
- المرزباني (أبو الحسن) 333 - 283 - 173 - 43
- مروان بن أبي حفصة 258
- المرقش الأكبر 301 - 263 - 258 - 237 - 236
- أبو مروان الجزيري 24
- مريم بنت عمران 332 - 331

200	- أم أبي مزبد
258	- مزرد
	- المستعين (سليمان بن الحكم)
206 - 131	
330 - 323 - 198 - 152	- المستنصر (الحكم)
289 - 247	- ابن مسعود
294 - 270	- مسكين الحنظلي
293 - 248	- مسلم (الإمام)
132 - 131 - 127 - 116 - 70 - 24	- ابن مسلمة (عبد الله، الوزير)
248 - 190 -	
163هـ	- المسيب بن علس
207 - 139 - 138 - 63 - 60 - 59 - 32 -	- المصحفي (أبو بكر محمد بن هشام)
212 - 211	
210 - 209 - 207 - 32	- المصحفي (أبو الوليد هشام بن محمد)
114 - 60	- المطرز (أبو عمر محمد بن عبد الواحد)
258 - 248	- مطيع بن إياس
69 - 62 - 43 - 37 - 28 - 22 - 21	- المظفر عبد الملك بن أبي عامر
- 178 - 138 - 125 - 124 - 123 -	
205 - 204 - 198 - 183 - 182	
312	- معاذ الهراء
249	- معاوية بن عمر
- 280 - 268 - 263 - 259 - 156	- ابن المعتز
303 - 281	

31	- ابن المعذل (أحمد)
15	- ابن معروف القاضي
162 - 55	- المعري (أبو العلاء)
263 - 237	- معن بن أوس
237 - 169	- معن بن زائدة
209	- ابن مفرج
- 307 - 299 - 266 - 237 - 156	- المفضل بن سلمة
326 - 325 - 324 - 323	
171 - 166 - 155	- المقتدر
238 - 146	- أبو المقداد الكلبى
70 - 64 - 60 - 53 - 52 - 51 - 48	- المقرئ
103 - 102 - 101 - 88 - 83 - 81 -	
189 - 114 -	
299 - 284	- ابن مقسم
259 - 253 - 248	- ابن المقفع
208 - 55 - 52	- ابن مقلس الأندلسي (عبد العزيز بن أحمد)
88 - 87 - 55 - 51	- ابن مكتوم
- 183 - 138 - 137 - 136 - 28	- منذر بن يحيى التجيبي
206 - 200	
198	- ابن المنجم
27 - 26 - 25 - 24 - 22 - 21 - 20	- المنصور بن أبي عامر
- 40 - 38 - 37 - 36 - 33 - 31 -	
52 - 51 - 48 - 47 - 44 - 42 - 41	
- 71 - 69 - 67 - 60 - 54 - 53 -	
- 89 - 88 - 81 - 75 - 73 - 72	

_ 114 _ 113 _ 112 _ 110 _ 109
_ 121 _ 120 _ 117 _ 116 _ 115
_ 127 _ 125 _ 124 _ 123 _ 122
_ 135 _ 134 _ 131 _ 129 _ 128
_ 177 _ 176 _ 153 _ 152 _ 138
_ 187 _ 182 _ 181 _ 179 _ 178
_ 196 _ 195 _ 194 _ 190 _ 188
_ 219 _ 202 _ 201 _ 198 _ 197
_ 261 _ 260 _ 257 _ 252 _ 229
_ 312 _ 308 _ 294 _ 270 _ 262
_ 323 _ 322 _ 321 _ 320 _ 315
330 _ 324

111 - أبو منصور بن الحسن
الناظر

258 - منصور النمري

317 - 206 - 45 - ابن منظور

283 - 178 - ابن مهدي

308 - ابن مهدية

_ 106 _ 66 _ 59 _ 58 _ 16 _ 15 - المهلبى (أبو محمد)

_ 193 _ 192 _ 164 _ 113 _ 107

198 _ 194

336 - 281 - 173 - 155 - الموصلي (إسحاق بن
إبراهيم)

55 - مخائيل أماري

- ن -

- النابغة 237 هـ - 275
- الناصر (محمد بن هشام بن عبد الجبار) 134 - 337
- نافع 291
- النامي 176
- ابن نباتة السعدي 174
- ابن النجار 50
- النجدي (أبو عامر) 173
- أبو النجم 258 - 263 - 268
- ابن النخاس (أبو القاسم) 42 - 79 - 214
- النحوي (أبو علي الحسن بن أحمد) 159
- أبو نخيلة الراجز 258
- الندوي 56 - 93
- ابن النديم 162 - 167 - 277
- نصر الأندلسي 292
- نصر بن علي الجهضمي 291
- نصيب (مولى المهدي) 263
- النضر بن شميل 287
- النظار الفقعسي 296 - 322
- النعمان بن المنذر 166
- النعمان ذو الأنف 272
- نفطويه 163

- 54 - ابن النفيس المصري
 238 - نهشل بن حري
 258 - 184 - 177 - 176 - 24 - أبو نواس
 103 - النويري

- ه -

- 280 - 156 - الهاشمي (أبو الحسن محمد بن صالح)
 253 - هارون الرشيد
 196 - 195 - 20 - الهجفجف بن غدقان بن يثربي
 248 - أبو هريرة
 317 - 45 - ابن هشام
 128 - 127 - 126 - 105 - 24 - 20 - هشام بن الحكم المؤيد (الملقب بالمهدي)
 - 252 - 139 - 133 - 131 - 130 -
 312
 312 - أبو هلال الراسبي
 173 - 147 - همام بن غالب الضرير
 248 - الهمداني (أحمد بن محمد)
 250 - ابن الهيثم

- و -

- 128 - واضح (الفتي العامري)
 263 - الوأواء
 - 130 - 129 - 128 - 70 - 41 - 24 - ابن وداعة (أبو الحسن علي)
 190 - 183 - 178

56	- الودغيري (عبد العلي)
18 - 205 هـ	- الوراكلي (حسن)
305	- وديعة بن ذرة
170 - 171	- ابن ورقاء
227	- أبو الوفاء المهندس
258	- الوليد بن يزيد
368	- ابن وهب

- ي -

200	- يحيى بن خالد
16 - 163 - 198	- يحيى بن عدي (المنطقي)
259 - 281	- اليزيدي
15	- اليفرني (أبو عبد الله)
146 - 173	- أبو يعقوب الأهوازي الضرير
138 - 208 - 212	- ابن اليمان (إدريس)
68	- ابن يوسف
259 - 285 - 309	- يونس

2 ■ فهرس القوافي

الصفحة	عدد الأبيات القائل	البحر	القافية
الهمزة			
305	أبو العتاهية	1	الحياء مجزوء الكامل
305	الحطيئة	1	البكاء وافر
18	ابن سيده	1	الأسماء رجز
الباء			
153	ابن العميد	1	فضرب متقارب
44	صاعد	4	انتسبا بسيط
182	صاعد	2	انتسبا بسيط
257	أبو غريب	2	الغضبا بسيط
307	المرقش الأكبر	2	خضابها طويل
148	صاعد	1	الكوكب متقارب
125	صاعد	1	الشبيب بسيط
104	صاعد	2	مأثوب بسيط
215	أبو حفص بن برد	4	محسوب بسيط
124	أبو حفص بن برد	3	مقطوب بسيط
202 - 193	أبو حفص بن برد	1	الطيب بسيط
181	صاعد	1	التعب كامل
257	صاعد	5	غريب رجز
التاء			
50	صاعد	2	عانقته سريع
الجيم			
329	أم الضحاك المحاربية	2	متخرج طويل

الحاء

18	ابن سيده	1	رجز	ولاحا
129	صاعد	4	وافر	الرماح

الدال

181	صاعد	5	رمل	للرشد
311	أبو الغمر	3	مجزوء الرمل	تتردد
314 - 19	صاعد	1	طويل	القصاصد
305	بشار	1	وافر	الجليد
296	الشماخ	1	بسيط	الجيد
315	الشماخ	2	بسيط	الجيد
303 - 295	الشماخ	1	بسيط	العناقيد
182	صاعد	2	كامل	يعهد

الراء

270	مسكين الحنظلي	2	طويل	شزرا
125 - 28	صاعد	2	بسيط	عبرا
183				
	لقيم بن لقمان	2	وافر	المقرا
263 - 104	الحكيم			
44	صاعد	1	بسيط	نشرا
307	بشر بن أبي خازم	1	وافر	التجار
185	صاعد	5	مجزوء الكامل	عقير
306	أبو دهب	1	سريع	صابر
180	صاعد	2	بسيط	معبار
52	صاعد	1	بسيط	بمنقار
201	ابن حجاج	2	مخلع البسيط	تسري
193	ابن حجاج	4	مخلع البسيط	شعري
52 - 48	ابن جاشد	2	كامل	الشكر

40	سراج اللغوي	3	كامل	النظر
40 - 68	صاعد	3	كامل	النظر
189				

الزاي

18	ابن سيده	1	رجز	الشيرازي
----	----------	---	-----	----------

السين

36	صاعد	2	متقارب	أنفاسها
174	صاعد	1	طويل	الإنس
188	صاعد	2	مجزوء الرمل	جليس
195	كشاجم	3	مجزوء الرمل	جليس
29 - 127	صاعد	1	وافر	الرؤوس
180				

الصاد

26 - 82	صاعد	1	سريع	الفصوص
89				
26 - 82	ابن العريف	1	سريع	يغوص
89				

الظاء

18	ابن سيده	1	رجز	الحفاظ
----	----------	---	-----	--------

العين

257	3	منهوك المنسرح	ببربوع
161	1	رجز	براعه
161	1	رجز	مصاعه
184	2	وافر	المروع
18	1	رجز	بارع
			صاعد
			ابن سيده

الفاء

294	1	طويل	المساعف
-----	---	------	---------

القاف

29	1	بسيط	سراق
180	2	بسيط	أوراق
317	1	منسرح	يوافقها
307	1	طويل	منقنق
202	1	بسيط	المخاريق
192	3	كامل	مخرنق
			صاعد
			أمية بن أبي الصلت
			العكبري
			ابن لنك

اللام

176	1	وافر	العضالا
132	7	كامل	زليل
191	1	طويل	رجلي
313 - 18	2	طويل	الفحل
			المتنبى
			صاعد
			صاعد
			بدوية

الميم

223	حميد بن ثور	1	طويل	تسلما
289		1	طويل	الدم
179	صاعد	2	طويل	المتوسم
184 هـ	لبيد	1	كامل	قوامها
50	صاعد	2	سريع	نظمه

النون

322	النظار الفقعسي	1	رجز مولد	الإرنان
314 - 30	أبو رجاء الضبعي	4	طويل	حزينه
31	أحمد بن المعذل	1	طويل	حزينه
184 - 37	صاعد	2	منسرح	أين أنا
306	ابن أبي الجنوب	1	كامل	عاداني
53	ابن العريف	2	مجث	المباني
54	صاعد	4	مجث	كيوان

الهاء

17	ابن سيده	1	رجز	عليه
176	صاعد	2	مجزوء الكامل	فيه

الياء

136	ابن دراج	2	طويل	الدنيا
306	جرير	1	طويل	هجائيا
297	سحيم	1	طويل	تهاديا
306	وديعة بن ذرة	1	طويل	قازيا
256	أبو النجم	5	كامل	سرباليا

أنصاف الأبيات

نصف البيت	البحر	القائل	الصفحة
- إني لأحسد ثوبيها إذا رقدت	بسيط	بشار	305
- حلت رملية بالمتبع حلة	كامل	ابن الحداية	305

3 - المصادر والمراجع

- ابن الأبار (محمد بن عبد الله القضاعي) :
- (1) المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي - طبعة مصورة
عن طبعة مدريد 1885 - نشر مكتبة المثنى بغداد ومؤسسة
الخانجي - بمصر.
- (2) المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي - دار الكاتب العربي
للطباعة والنشر - القاهرة 1967.
- (3) الحلة السيرة - تح: حسين مؤنس - ط 1 - القاهرة - 1963.

- ابن أبي يعلى (القاضي أبو الحسين محمد) :
- (4) طبقات الحنابلة - تح: محمد حامد الفقي - مطبعة السنة
المحمدية - القاهرة - 1952.

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم) :
- (5) الكامل في التاريخ - تح: عبد الوهاب النجار - إدارة الطباعة
المنيرية - ط 1 - مصر - 1353هـ.

- إحسان عباس :
- (6) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - دار الثقافة
بيروت - 1960.

- الأزدي (علي بن ظافر) : المتوفى سنة 613 هـ.
- (7) بدائع البدائه - تح: محمد أبو-الفضل إبراهيم - مكتبة الأنجلو
المصرية - القاهرة - 1970.

8) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات - دار المعارف القاهرة
- 1971.

- ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد بن علي الحميري الأصبحي) :
9) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام - تح: سعيدة
العلمي - مرقونة بكلية الآداب بفاس.

- الأصفهاني (أبو الفرج) :
10) الأغاني - تح: عبد الستار أحمد فراج - دار الثقافة بيروت -
1958.

- ألبير حبيب مطلق :
11) الحركة اللغوية في الأندلس - المكتبة العصرية صيدا -
بيروت - 1967.

- أمين (أحمد) :
12) ظهر الإسلام - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
1961.

- الباخريزي (علي بن الحسن) :
12 م) دمية القصر وعصرة أهل العصر، تح: محمد التونجي -
دار الفكر - دمشق 1971.

- بروكلمان (كارل) :
13) تاريخ الأدب العربي - ترجمة مجموعة - دار المعارف
القاهرة.

- ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني) :
(14) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تح: إحسان عباس - دار
الثقافة - بيروت - 1979.

- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) :
(15) الصلة - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة 1966.

- البغدادي (عبد القادر) :
(16) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية
- دار الثقافة - بيروت.

- البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) :
(17) اللآلي في شرح أمالي القالي - تح: عبد العزيز الميمني لجنة
التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1936.

(18) التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه - دار الكتاب العربي -
لبنان.

(19) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - تح: مصطفى
السقا - عالم الكتب - بيروت - ط 3 - 1983.

- بلاشير (ريجس) :

(20) صاعد البغدادي رائد من رواد الثقافة العربية المشرقية في
إسبانيا في القرن العاشر الميلادي - مجلة هيسبريس المجلد
10 - الجزء الأول - 1930 - لاروز - باريس.

- بلانثيا (أنخل جنقالث) :

(21) تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة حسين مؤنس - مكتبة النهضة المصرية - ط 1 - 1955 - القاهرة.

- التوحيدي (أبو حيان) :

(22) الإمتاع والمؤانسة - تح: أحمد أمين وأحمد الزين - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.

(23) المقابسات - تح: حسن السندوبي - المكتبة التجارية القاهرة - 1929.

- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك) :

(24) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - تح: محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر - بيروت.

- ابن الجوزي (عبد الرحمن) :

(25) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - 1357هـ.

- حاجي خليفة :

(26) كشف الظنون - مكتبة المثنى - بغداد.

- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) :

(27) فتح الباري بشرح البخاري - تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي - ومحِب الدين الخطيب - دار الفكر - بيروت.

(28) لسان الميزان - بيروت - لبنان.

- الحموي (أبو عبد الله يا قوت بن عبد الله الرومي) :
(29) معجم الأدباء - نشر أحمد فريد رفاعي - مكتبة البابي الحلبي
- القاهرة.

(30) معجم البلدان - دار صادر - بيروت.
- الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله) :
(31) جذوة المقتبس - تح: محمد بن تاويت الطنجي - مكتب نشر
الثقافة الإسلامية - القاهرة - 1952.

- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) :
(32) المقتبس في تاريخ رجال الأندلس - القسم الثاني. تح:
محمود علي مكي - القاهرة - 1971.

- ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني) :
(33) الإحاطة في أخبار غرناطة - تح: محمد عبد الله عنان. نشر
مكتبة الخانجي - القاهرة - ط 2 - 1973.
(34) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام تح:
ليفى بروفنسال - دار الكشاف - بيروت.
(35) السحر والشعر - تح: قدور إبراهيم - رسالة ماجستير - نقلا
عن المستدرك على ديوان ابن شهيد الأندلسي.

- ابن خلدون (عبد الرحمان) :
(36) العبر - وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر
- نشر دار الكتاب اللبناني - لبنان - 1958.

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد) :
(37) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمن - تح: محمد محيي الدين
عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ط 1 - 1948.

- الخوانساري (الميرزا محمد باقر الموسوي) :
(38) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات - طهران
1391هـ.

- ابن خير (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي
الإشبيلي) (المتوفى سنة 575هـ).
(39) فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب
العلم وأنواع المعارف... - تح: فرنشكه قداره زیدین وخليان
رباره طرغون - المكتب التجاري - بيروت - 1963.

- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد) :
(40) العبر في خبر من غبر - تح: فؤاد سيد - سلسلة التراث
العربي - الكويت - 1961.
(41) ميزان الاعتدال في نقد الرجال - تح: محمد علي البجاوي دار
المعرفة - بيروت - 1963.
(42) المغني في الضعفاء - تح: نور الدين عتر - دون ذكر الناشر
والطابع والتاريخ.

- ابن رشيقي (أبو علي الحسن القيرواني) :
(44) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - تح: محمد محيي
الدين عبد الحميد - ط 3 - 1963 - القاهرة.

- الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق) :
(45) أمالي الزجاجي - تح: عبد السلام هارون - المؤسسة العربية
الحديثة - القاهرة - 1392هـ.

- الزركلي (خير الدين) :
 (46) الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ط 5 - 1980.
- الساوري (عبد العزيز) :
 (47) المستدرک علی دیوان ابن شهید الأندلسي - مجلة المورد،
 المجلد 17 - العدد 1 - 1988 - بغداد.
- السجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان) :
 (48) کتاب النخلة - تح : حاتم صالح الضامن - مجلة المورد مج
 14 - ع 3 - 1985 - بغداد.
- سزکین (فؤاد) :
 (49) تاریخ التراث العربي - ترجمة جماعة من الأساتذة - جامعة
 الإمام محمد بن سعود الإسلامية - 1984 (المجلد 2 - الجزء 4 -
 المجلد 2 - الجزء 5).
- السِّلَفِي (أبو طاهر أحمد بن محمد) :
 (50) معجم السلفي - أخبار وتراجم أندلسية - مستخرجة من
 معجم السلفي - إعداد إحسان عباس - دار الثقافة ط 2 -
 بيروت - 1979.
- الشريري (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي) :
 (51) شرح مقامات الحريري - تصحيح محمد عبد المنعم خفاجي
 ط 1 - مصر - 1372هـ.
- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) : المتوفى سنة
 599هـ.

52) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس - دار الكاتب العربي - القاهرة - 1967.

- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد) :
53) العقد الفريد - تح : أحمد أمين وأحمد زين وإبراهيم الأبياري - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ط 2 - القاهرة - 1952.

- ابن عذاري المراكشي : (توفي في حدود 695هـ).
54) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - ج 3 تح : ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال - دار الثقافة (أوفست بيروت) 1929.

- ابن عطية (عبد الحق بن عطية المحاربي) :
55) فهرس ابن عطية - تح : محمد أبو الاجفان - محمد الزاهي - دار الغرب الإسلامي - ط 1 - 1980 - بيروت.

- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن العماد) :
56) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

- عنان (محمد عبد الله) :
57) دولة الإسلام في الأندلس - مطبعة مصر - القاهرة - 1952.

- عياض (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض) :
58) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك - تح: د. أحمد بكير محمود - بيروت - 1965.

(59) الغنية (فهرسة شيوخ القاضي عياض) تح : د. محمد بن عبد الكريم - الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس) ط 1 - 1978.

- العيني (محمود) :

(60) المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية المعروفة بشرح الشواهد الكبرى (بهامش خزانة الأدب للبغدادى).

- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) :

(61) البلغة في تاريخ أئمة اللغة - تح : محمد المقرئ - وزارة الثقافة - دمشق - 1972.

- ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي) :

(61م) درة الحجال في أسماء الرجال - تح : د. محمد الأحمدى أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس، ودار التراث بالقاهرة، ط 1 - 1970.

- القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم) :

(62) البارع في اللغة. تح : هاشم الطعان - مكتبة النهضة بغداد - ودار الحضارة العربية في بيروت - ط 1 - 1975.

- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :

(63) عيون الأخبار - دار الكتب المصرية - القاهرة - 1925.

- القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) :

(64) إنباه الرواة على أنباه النحاة - تح : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الكتب المصرية - القاهرة - 1952 - 1973.

- كابانيلاس (داريو) :
(65) ابن سيدة المرسى - ترجمة د. حسن الوراكلي - الدار
التونسية للنشر - تونس.

- ابن الكتاني (أبو عبد الله محمد الطيب) :
(66) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس - تح : د. إحسان
عباس - دار الثقافة - بيروت - 1966.

- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل) :
(67) البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت.

- كشاجم (أبو الفتح محمود بن الحسين السندي) :
(68) ديوان كشاجم - تح : خيرية محمد محفوظ - دار الجمهورية
- بغداد - 1970.

- كحالة (عمر رضا) :
(69) معجم المؤلفين - مكتبة المثنى ببغداد - ودار إحياء التراث
العربي - بيروت.

- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) :
(70) الكامل - تح : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر -
القاهرة - 1981.

- المراكشي (عبد الواحد) :
(71) المعجب في تلخيص أخبار المغرب - فرغ منه سنة 621هـ

تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي - دار الكتاب
ط 1 - الدار البيضاء - 1949.

- المراكشي (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك) :
(72) الذيل والتكملة - القسم الثاني السفر 5 - تح : إحسان عباس -
دار الثقافة - 1965.

- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين) :
(73) لسان العرب - دار صادر - بيروت - 1955.

- المعري (أبو العلاء أحمد بن عبد الله التنوخي) :
(74) سقط الزند - تح : إبراهيم الزين - دار الفكر - بيروت 1965.

- المقرئ (أحمد بن محمد) :
(75) نفح الطيب - تح : محمد محي الدين عبد الحميد - ط 1 1949
- المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.

- ميخائيل (أماري) :
(76) المكتبة العربية الصقلية - جمع وتحقيق (ميخائيل أماري)
ليبسك 1857 - اعادت طبعه بالأوفست - مكتبة المثنى - بغداد
- د.ت.

- ابن هشام الأنصاري (جمال الدين أبو محمد عبد الله بن
يوسف) :
(77) تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد - تح : عباس مصطفى
الصالح - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 1 - 1986.

- الودغيري (عبد العلي) :
(78) أبو علي القالي وأثره في الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس
- الرباط 1983.

- الندوي (هاشم) :
(79) تذكرة النوادر من المخطوطات العربية - دار المعارف
العثمانية - حيدر آباد الدكن - 1350هـ.

- النويري (أحمد بن الحسن) :
(80) نهاية الأرب في فنون الأدب - مطابع كوستاتسوماس -
القاهرة.

المستعمل
غفر الله له ولوالديه

4 ■ فهرس الموضوعات

ص 3
من ص 11 إلى ص 95

- مقدمة
- المدخل الأول

قراءة في المصادر

- تقديم ص 13
أولا : - عرض وترتيب
- مصادر القرن الرابع ص 15
- مصادر القرن الخامس ص 17
- مصادر القرن السادس ص 23
- مصادر القرن السابع ص 35
- مصادر القرن الثامن ص 45
- مصادر القرن التاسع ص 48
- مصادر القرن العاشر ص 50
- مصادر القرن الحادي عشر ص 51
- مصادر متأخرة ص 55
- مراجع حديثة عربية وأجنبية ص 55

- ثانيا : ترتيب نقدي
I - مصادر تؤرخ لحياة صاعد ص 57
1) المرحلة المشرقية ص 57
2) مرحلة السفر، أو المرحلة المصرية ص 60
3) المرحلة الأندلسية ص 61
4) المرحلة الصقلية ص 64

II - مصادر متنوعة المعلومات ص 65

III - مصادر تتحدث عن غير الفصوص من مؤلفات

صاعد وآثاره ص 67

(1) مصادر اهتمت بآثاره الشعرية أو سككت عنها ص 67

أ) مصادر نقلت شعره دون أخباره ص 67

ب) مصادر نقلت أخباره وأشعاره ص 68

ج) مصادر سككت عن شعره مطلقا ص 70

(2) مصادر اهتمت بآثاره غير الشعرية ص 70

أ) مصادر نقلت رسائله ص 70

ب) مصادر تحدثت عن أدبه القصصي ص 71

IV - مصادر تؤرخ للفصوص ص 72

(1) مناسبة تأليفه (أي كتاب الفصوص) ص 73

أ) ما يشير بتدقيق إلى مناسبة تأليفه ص 73

ب) مصادر تكتفي بالإشارة إلى أنه ألف

الفصوص للمنصور ص 73

ج) مصادر لم تهتم بالحديث عن مناسبة تأليف

الفصوص ص 74

(2) إملاء الفصوص وروايته ص 74

أ) إملاء الفصوص ص 74

ب) روايات الفصوص ص 76

(3) مصادر تهاجم الفصوص أو تدافع عنه

«القيمة العلمية للفصوص» ص 80

أ) مصادر تنقل ما يمكن اعتباره مهاجمة شبه

صريحة للكتاب ص 80

ب) مصادر تنقل خبر تغريق الفصوص ص 81

- ج) مصادر تجرح صاعداً، أو تنقل خبر
ص 83 تجريحه، دون التعرض للفصوص
- د) مصادر تتضمن ما يفيد أن رفض الأدباء
ص 84 للفصوص ليس موقفاً من الكتاب نفسه
- هـ) مصادر تدافع عن الفصوص ضمناً من
ص 86 خلال دفاعها عن صاعد
- و) مصادر تدافع ضمناً عن الفصوص، من
ص 88 خلال تجاهلها خبر التغريق
- ز) ما يتضمن دفاعاً صريحاً عن القيمة العلمية
ص 90 للفصوص
- 4) مصادر يشير مؤلفوها إلى الفصوص إشارة
ص 91 معرفة وإطلاع
- 5) مصادر تصف الفصوص وصفاً منقولاً
ص 92
- 6) مصدر يصف الفصوص عن غير معرفة به
ص 92

V - مراجع حديثة

- 1) تذكرة النوادر من المخطوطات
ص 93
- 2) الدراسة التي أنجزها «بلاشير» عن صاعد
ص 93 البغدادي
- 3) مقدمة تحقيق كتاب المقتبس
ص 94
- 4) أبو علي القالي وأثره في الدراسات اللغوية
ص 95 والأدبية بالأنديس

- المدخل الثاني

من ص 97 إلى ص 215

مشروع سيرة

أولاً : صاعد الإنسان
- تقديم
ص 99

I - الهوية والجذور
ص 99

II - المولد والنشأة
ص 104

III - صاعد في بغداد : مرحلة الشهرة
ص 106

VI - الخروج من بغداد والرحلة إلى الأندلس
ص 109

(1) بحث عن الشهرة أم فرار منها ؟
ص 109

(2) السفر، أو المرحلة المصرية
ص 113

(3) الوصول إلى الأندلس وقسوة المواجهة
ص 115

V - الحياة الجديدة بالأندلس
ص 120

(1) ما بعد الامتحان
ص 120

(2) موت المنصور وبداية النهاية
ص 122

(أ) شيخوخته
ص 123

(ب) حزنه على المنصور
ص 124

(ج) محاسبة للنفس
ص 124

(3) الهجرة الجديدة والبحث عن المجد الضائع
ص 134

(أ) في بلاط مجاهد العامري
ص 134

(ب) في بلاط منذر بن يحيى التجيبي
ص 136

(ج) غربة النهاية
ص 139

ص 141	ثانيا : صاعد الأديب
ص 141	I - تصحيح وهم
ص 142	II - صاعد التلميذ
ص 142	(1) التلمذة الأولى
ص 143	(2) مجالس العلم في بغداد
ص 145	(3) التحصيل خارج بغداد
ص 145	أ) البصرة
ص 146	ب) الموصل
ص 146	ج) واسط
ص 146	د) الرقة
ص 146	هـ) الأبله
ص 146	و) الأهواز
ص 146	ز) دمشق
ص 146	ح) زباله
ص 147	ط) فيد
ص 147	ي) اليمن
ص 150	(4) تحصيل المناظرات
ص 154	(5) تحصيل المضمون به على غير أهله
ص 157	(6) الشيوخ
ص 158	أ) شيوخ التلمذة الأولى : السيرافي والفارسي
ص 162	ب) شيوخ مشهورون
ص 174	III - صاعد الشاعر
ص 174	(1) في المشرق
ص 177	(2) في الأندلس : صاعد شاعر قرطبة
ص 178	(3) شعره

ص 190	IV - صاعد الكاتب
ص 191	V - صاعد النديم
ص 194	(1) النديم العالم
ص 194	(2) النديم المسامر
ص 196	(3) النديم المغني والعالم الموسيقار
ص 199	(4) النديم الماجن

ص 202	VI - صاعد العالم المنصف
ص 202	VII - صاعد الشيخ
ص 203	(1) التلاميذ
ص 209	(2) المرويات
ص 212	(3) مصنفاة

ص 216	- جداول توضيحية
ص 216	(1) تلامذة صاعد وتلامذة تلاميذه
ص 216 أ	(2) المرويات
ص 216 ب	(3) روايات الفصوص

من ص 217 إلى ص 338	- المدخل الثالث
--------------------	-----------------

ص 217	- كتاب الفصوص في الآداب والأخبار
-------	----------------------------------

أولاً : الفصوص بين كتب الأمالي والمجالس والأدب العام

ص 219

ثانياً : بناء الفصوص

ص 229

(1) عنوان الكتاب

ص 229

ص 231	(2) دلالة العنوان، وعلاقتها ببناء الكتاب
ص 235	(3) البناء المنطقي للفصوص
ص 242	(4) البناء الكمي للفصوص
ص 243	(5) البناء العلمي للفصوص
ص 244	أ) فصوص الآيات القرآنية الكريمة
ص 247	ب) فصوص الأحاديث النبوية الشريفة
ص 249	ج) فصوص المواعظ والحكم والأمثال
ص 250	د) فصوص الأخبار
ص 254	هـ) فصوص الطرائف والملح
ص 254	و) فصوص الهزل والمجون
ص 258	ز) فصوص أخبار الشعراء
ص 259	ح) فصوص أخبار العلماء
ص 260	ط) فصوص أخبار صاعد
ص 261	ي) فصوص المختارات الشعرية
ص 267	ك) فصوص المختارات الأدبية
	ل) فصوص تفسير الأشعار وشرح أبيات المعاني
ص 268	
ص 272	م) الفصوص اللغوية
ص 274	ن) الفصوص الصرفية والنحوية
ص 276	ص) فصوص العروض والقوافي
ص 277	ع) فصوص المعارف العربية الجاهلية
ص 278	(6) مصادر الفصوص
ص 279	أ) المصادر الوسيطة
ص 279	- النقل من خطوط العلماء

ص 283	- الرواية الشفوية
ص 285	ب) المصادر الأصول
ص 287	ثالثا : الشخصية العلمية لصاعد من خلال الفصوص
ص 288	1) العالم المفسر
ص 290	2) العالم المحدث
ص 293	3) العالم الشارح
ص 297	4) الصرفي النحوي
ص 300	5) الرواية الموثق
ص 300	أ) ترجيح الروايات
ص 301	ب) ذكر الخلاف في الرواية
ص 301	ج) التنبيه إلى ما لم يرد عند بعض الرواة
ص 302	د) التنبيه إلى تفرد الرواية
ص 302	هـ) بناء الفص على رواية شبه مركبة
ص 302	و) تخطئة ما لا يراه صحيحا من الروايات
ص 304	6) الشاعر الناقد
ص 308	7) الهازل المتماجن
ص 311	8) العالم المتحزب
ص 313	رابعا : أثر صاعد والفصوص في المؤلفات اللاحقة
ص 320	خامسا : فصوص صاعد وأمالي القالي
	- تحدي كتاب لكتاب، أم عالم لعالم -
ص 320	1) صاعد وتلامذة القالي
ص 322	2) صاعد ومؤلفات القالي

- أ) صاعد والبارع ص 323
- ب) صاعد والأمالى ص 326
- I - النظر إلى الأمالى باعتباره أحد كتب الأدب العام ص 327
- II - إيراد نفس ما ورد فى الأمالى، مع تكملة نقصه وتصويب خطئه ص 327
- III - النظر إلى موضوع ما أورده القالى مع إيراد صياغة ثانية له ص 331
- VI - تجاوز ما ورد فى الأمالى إلى عيون لم ترد فيه ص 334
- 1- فهرس الأعلام ص 341
- 2- فهرس القوافى ص 375
- 3- فهرس المصادر والمراجع ص 383
- 4- فهرس الموضوعات ص 397

رقم الإيداع القانوني: 242 / 1993

مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)

